أرواح هندسيّة

سليم بركات



الكلمة
دار الكلمة للنشر

الكلمة
دار الكلمة للنشر

شارع ليون - بناية سلام . الحمراء
بيروت . لبنان
ص . ب ١٣/٤٢٨٨
تلفون : ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الأولى ١٩٨٧

ALKALIMA PUBLICATIONS (CYPRUS) Ltd. Tel : 311753 Telex 5223 CY Rawatio-P. O. Box 7047 NICOSIA
, DAR ALKALIMA (LEBANON) Tel. 803740- Telex 20639 LE Delta - P. O. Box 13/5288 BEIRUT

أطراف صناعية .
لوحة غير مُنْجزة .
لُفافات تبغ .
طواويس .
ميناء لم يكن ميناءً .
محاربون متنكرون في هيئة المياه .
مؤلِّف عشوائيّ .
أحداثٌ لم تكن على موعدٍ مع هذا التأليف .
قُرّاء يختلقون للمؤلِّف مكاناً لا يعنيه .
نسيان ، وقطن ، وهياكل عمارات ، ونباح كلاب ، وأنقاض ، وتحيات خفيضة ، وشهوات ، وأدراج ، وكهرباء مقطوعة ، وزجاج ، ومكبرات صوت ، وجَدٌّ يتتبَّع حفيده قبل . . . الخ .

الجزء الأول

(مشهد واحد في غَيْبٍ مقسوم . وبطولة لا تُبْرِمُ اتّفاقاً مع أحد)

الفصل الأول

تجري الأمور، الآن، في ترتيب هادىء. فالجميع هنا، على السطح الحديدي المُخضرّ، الذي يعكس إشعاعات خاطفة بفعل رطوبة البحر، ومن ثم تتكسر تلك الإنعكاسات إذ تتقاطع من فوقها ظلال تعبر من جهة إلى اخرى.

مدىً حديديٌ، ذو مستوى محدّد بمربعات تنفر من كل زاوية فيها مسامير مستديرة ملساء، وأعقاب الأحذية الصلبة، في ذلك الليل الكسول المشتّت، لا تعلن ثقلها، بل تتواطأ مع الرطوبة الجارفة، فتلمس الأرض الحديدية دون صخب، كأنّما تحاول ألاّ تشرّش على الذي يتفكّر فيه المتمدّدون تحت الأغطية العسكرية، وهم يدخّنون في نَهَم.

همسات تعلو ثم تخفت. وجبة عشاء رديئة سبقت هذا الهدوء، فيما يشبه الاحتفال، لمّا تدافع المحاربون صوب قُمْرَة في مقدمة السفينة، ثم تأكدوا، من إشارات القبطان اليوناني؛ أنهم لن يحصلوا على وجبتهم إذا لم ينتظموا صفوفاً، فانتظموا على مضض. بعد ذلك عادوا، واحداً واحداً، متذمرين، إلى الزوايا الحديدية التي ركنوا إليها.

أكلوا نصف ما حصلوا عليه، ورموا البقية إلى البحر؛ رموها بقوة، كأنّما يحاولون أن يصيبوا بها سفن الأسطول الأمريكي التي تواكبهم، حمايةً، بعد خروجهم من تلك المدينة، بتاة على مواثيق، وعهودٍ مشفوعةٍ بالغمز، إلى آخر ما هناك ممّا هناك.

ذلك كان المساء الأول لنفي هؤلاء المحاربين من الشرق إلى الغرب، عبر

بحر واحد، متّصل، انعكس، خفيفاً، على السفينة التي نراها ـ نحن الخمسة ـ دون أن تنعكس هي عليه، كأنما تتخفّى، وكأنما يجاريها البحرُ فيدَعُها، متعمِّداً، تسترسل في ذلك.

بالطبع، دون تمهيد، حين نقول: «نحن الخمسة» فإنما نعني أنفسنا ـ نحن الخمسة، غير المحسوبين في عداد هؤلاء الذين تثرثر مصائرهم، من فوق الهواء الذي يعلو السفينة، حتى ليكادُ رذاذُ أفواهها يختلط برطوبة البحر.

غير أننا كنا حيارى إزاء وجود «أ. دهر» مع الآخرين هناك. لم نُبْدِ دَهْشَنا على أية حال، فنحن من روح لا يخالطها دَهَشٌ، أو ذعر، أو فرح، أو ما يشابهها مما يتّصف به الكائن المرئي، ذو اللحم والدم والضجر. ولو دُهِشنا لكان حريّاً بنا أن ندهش من وجودنا هنا، فالمهمة التي أُوكِلنا بها كانت انتهت، منذ انهيار عمارة «أبي كير» على قاطنيها، وفيهم «أ. دهر». لكنه موجود، الآن، وسط الآخرين، ولذلك نحن موجودون حُكْماً.

والخمسة ـ الذين هم نحن ـ غير مرئيين؛ هكذا، في بساطة، غير مرئيين. وقد جرى توكيل كل خمسة، ممن هُمْ على كثافاتنا اللا مرئية، بآدميٍّ واحد، ليُميتَهُ على ما يُغْمِضُ عليه، أو يستعصي. والأمثلة كثيرة، لن نأتي على الخطير منها، بل على الهيّنِ للتّبيين: فالآدمي يلتقط، بحدسه، خاطرة الآدمي الآخر، مثلاً. والآدمي يحتسب للأمور التي تكون مُنْجَزةً مِن قبَلِ الغيب فيتدارك أن تصيبه هذه الأمور في آخر لحظة. يقرِّر أن يمضي، اليوم، من هنا، لا من هناك. يلازم بيته، متوهِّماً المرضَ، في أحيان كثيرة، تداركاً لغامض يصيبُه، حقّاً، لو غادر بيته. يفقد شهيته فجاءةً. يثور فيتفادى ضربةً، أو يهدأ فيتفاداها. أيْ أن في كل احتساب من جانبه، لتفادي مكروهٍ مّا، قَدْرٌ من اشتغالنا ـ نحن اللا مرئيين ـ على تدبير ذلك. لكنه، في أحيانٍ يستعصي علينا إجراءُ تدقيقٍ فيها، يتبصَّرُ ما نحن مقدِمون عليه في شأن أموره.

على أية حال لن نسترسل في شرح ما ندبِّره نحن له، وما يشترك هو في تسييره. وغايتنا من هذا السرد كلّه القولُ إننا لا مرئيون فحسب، موكَّلون بـ

«أ. دهر» كغيرنا. وكُنّا، في ما أُعِدَّ لنا، موكلين بطفل وُلِدَ رخوَ الجمجمة، كعادة المواليد، بيد أنه كبر وظل رخو الجمجمة، حتى عامه الخامس. وكان أهله يوسِّدون رأسه مخدّاتٍ من الجانبين لئلا يلامس أي شيء صلب.

وفي سنته الخامسة نطق الولد، أول مرة، بعدما اقتصرت إشاراته كلها، في أعوامه الماضية، على ابتسامات شاحبة تنمُّ عن وداعٍ وشيك. قال لأمه: «سأنام»، وابتسم. وظل يكرِّر الكلمة لكل من يقترب منه: «سأنام»، فيجامله المقتربون منه: «نَمْ»، لكنه لا ينام. ولم يَطُل الأمر بالولد إذْ مات ذات ظهيرةٍ، كما يموت غيره. فحزمنا شؤوننا اللا مرئية، راجعين، كعادة أمثالنا حين يموت من هُمْ موكّلون به، وقد سقطت عنهم مهمةُ مواكبة أيٍّ آخر إلى أبد الآبدين. بيْدَ أننا رُدِدْنا على أعقابنا، وقد قيل لنا في جهامة: «أنسيتم هناك كلَّ ما كان معكم، وعُدتم؟»، فنظر واحدنا إلى الآخر مذعوراً: «وما الذي نسيناه هناك؟».

ليس لنا أن نحاجج أحداً، لذلك عدنا أدراجنا إلى حيث قبر الطفل ذو الجمجمة الرخوة، فعقدنا أيدينا خلف ظهورنا، لا مبالين بشيء. ومن حقّنا أن نكون على تلك الحال، فالأفق فارغ من حولنا: حفنة من القبور، وموتى ضجرون من عظامهم، وزيزانٌ تتباكَى وتتبارى في الظهيرة الملساء كحجر في ساقية.

«ثم ماذا؟». ليس لنا أن نقول ذلك، لكن أيدينا المعقودة خلف ظهورنا كانت تقولها. وبالطبع جلسنا على الأرض قليلاً، وطُفْنا قليلاً بالخلاء المحيط بالمقبرة، وعاينّا السماء، والعشبَ اليابس، والجحور الجديدة، والمهجورة، من حول الشواهد، المسكونة بخشاش التراب. ثم تحلّقنا، بعد ذلك، من حول قبر الطفل ثانيةً، عاقدين أيدينا خلف ظهورنا، لا مبالين بشيء، مادامت الأمور، بترتيبها هذا (نعني موت من نحن موكلون به) قد أعفتنا من الإنشغال بتدبير ما ينبغي تدبيره من مصادفات، أو حلِّها إن تقاطعت مع ما ينبغي إعفاؤه من المصير المحسوب لمن نحن موكَّلون به.

لقد اعترانا ما يشبه الضجر من هذه العودة. لا. ليس ضجَراً بحقٍّ، ولا

ينبغي أخــذُ اللفظ على محمله. فنحن، كلا مرئيين، لا يصيبنـا ما يصيب الآدميّ. والضجرُ خصيصة آدمية. فإنْ نطقنا الكلمة فإنّما نطقناها عن محاكاة.

أقُلْنـا: «أحسسنا بالضجر؟». لا. قبرٌ، ونحن موكَّـلون به، فلماذا الضجر؟ عراء مديد من حولنا، وظهيرة تتدلى من السماء بسلاسل متوهجة، فلماذا الضجر؟ حفنة من قبور، وطقطقة جمجمة رخوة ستنفجر بعد قليل، فلماذا الضجر؟ ونحن، على أية حال، لسنا ممَّن يَزِنون الوقتَ، ولا يروِّح عـنّا انقضاءُ حادثٍ أو دوامــه. وسيّان تســتَّرت الأمــور أو انكشفت، فلماذا الضجـر؟ والخمسة، الذين هم كثافتُنا غير المتجلّية، حَسْبُهُ لا أكثر، قيِّمون على معاينة الآدمي مسترسلاً في شؤونه، بتمامها وبنقصانها. ونحن لا نفرِّق، بَحدْسٍ، بين حادثة كبيرة وصغيرة ممّا يصيب الآدمي، بل نركن في تقويم ذلك إلى الآدمي نفسه. فإن استرسل، بعد حادثةٍ، على عهده قَبْلها فهي صغيرة، وإن بات ينسى إقفال باب بيته إذ يغادره، ويسأل شخصاً ذاته سؤالاً واحداً، مراراً، في الساعة الواحدة، مع الاعتذار عن نسيان سؤاله، فذلك يعني أن الحادثة كبيرة.

ولّما كنا، كلامرئيين، ذوي شأن لا يطوله ضجر، فقد أعفينا أنفسنا من المساءلة التي هي شأن الآدمي في استعراض حركته استعراضاً لا مرح فيه. والـذي نسمعـه، الآن، على السـطح الحـديدي للسفينـة التي تُقِـلّ هؤلاء المحاربين، المنفيين بمواثيق دولية، هو ذاته ما يجعل اختلاطَ التقويم أساسَ النّظر.

إذن، لا حسـاب على هذا السطح أو ذاك. ففي المقبرة التي سترتفع طقطقة الجمجمة الرخوة فيها، بعد قليل، كما على ظهر هذه السفينة، نقف نحن، عاقـدي الأيدي خلف الظـهـور، ناظرين إلى المساء المُنْكبّ بشفتيه المظلمتين نفخاً على كُوْرِهِ المظلم. وكما نصغي في المقبرة الى دبيب الخشاش فوق العظام، فإنما نصغي هنا، أيضاً، على ظهر الســفينة، إلى الإنقســام الأبدي الذي يُرْبِكُ المياهَ فتحاولُ اتّـحاداً في صخب، فتلتحم، ثم تنفصم، وقد اغتلى الزبدُ، فنوقنُ أن الزبد هو جرح الماء.

لكننا حائرون قليلاً، نحن الذين هُيِّئْنا أن نرى الأمور صائرة من حال

إلى حال فلا نُحار. والأرجح . . . ما من أرجح. نحن حائرون قليلاً. فمذ أعلنـا، عند قبر الطفل، ضجرنا، غدونا إلى كثافةٍ يمازجها خليط من طبعٍ قلقٍ، وفضول يكاد يُحْلَنُ ولا يُعْلَن. لذا نحن حائرون، إذ ننظر إلى «أ. دهر» على سطح السفينـة، متمـدداً بكامل ثيابه العسكرية، وهو الذي ضاع بين أنقاض عمارة «أبي كير»، التي انهارت قبل أن يغادر محاربٌ واحد تلك المدينة التي تمّ الإفـراج عنهـا بمواثيق دولية، وبكفالةٍ، كما يُكْفَل السجين، لشهر واحـد. وكـان يُقلقنا، إضافة إلى حيرتنا، أنه ينظر إلينا مباشرة، متمعّناً في هيئـاتنـا اللا مرئية فرداً فرداً، كأنما بات يرانا، بعد سبع سنين من احتجابنا عليه، وانكشافنا على مصيره ذي الكثافة المروَّضة.

لا يُخفى علينـا ذلك، والأمر مقلق. فنحن لم نعهد من ينظر إلينا في تمعُّن: النـظرات تخترقنـا، عادةً، كأنما نحن ذرات في بُعْدِ المشهد. لكن أن يتمعن فينا كائن مرئي فذلك مُرْبك بحق. و «أ. دهر» ينظر إلينا مباشرة. لا زغل في عينيه، ولا نَوَس، في الظلام. ولّما عَدَدْنا الأيام أدركْنا تقطُّعاً في العدّ. فنحن، بما أننا على سطح السفينة الآن، كان علينا معرفة أين اختفى «أ. دهر» منـذ أربعـة أيام، أيْ تاريخ انهيار عمارة «أبي كير»، وكيف ظهـر بين هؤلاء المنفيين، بثيابه العسكرية، ممعناً النظر في هيئاتنا.

حين كانت دفعات من المنفيين تودع المدينة انهارت العمارة، أيْ في أيام المواثيق الكبيرة المُبرمة، والعهود المختومة بأختام لا شمع فيها ولا مطّاط. ولما انتظرنا تلك الأربعةَ الأيام، والنَّبش والنُّكْش على أتـمِّهما، ولم يظهر «أ. دهر»، عمدنا إلى مصاحبة المنفيين الآخرين، صاعدين معهم السلالم الحديدية إلى سطح السفينة الحديدي. وكنـا عارفين، بالطبع، أن مواكبتنا لهذا المرئي انتهت، ولن يكون هناك استثناء ثانٍ، كالذي حصل بعد موت الطفل ذي الجمجمة الرخوة، حينما كان حرياً بمهمتنا أن تنتهي، لكننا رُدِدْنا على أعقابنا: «أعدتم، بعد ما نسيتم ما نسيتموه هناك؟». وما الذي نسيناه؟ لا بأس. ظللنا حول قبر الطفل أمداً لم نتفكَّر في حسابه، ثم اخْتَلَقْنا عَبثاً من الكلام هو رَجْـعٌ مّما نسمع في ذلك العراء من ريح، وطقطقات، ودبيب، وهمس مشيِّعين لموتى

جدد، ورعد، وحثٍّ، وتشقق في الأرض، أو انجراف في التراب، وانخساف في حَدَبات القبور، وأجنحة شاردة، وزَلَلٍ في حجارة الشواهد فتميل بغتةً دون أن تسقط، حتى استوت لدينا جُمَلٌ متداعية، من نحو: «هاهو. عُدْ. لا أحد. ما هوَ. ما هو هذا؟»، فهتف بنا هاتف: «اسكتوا»، فهتفنا: «ما هذا؟» فتطايرت من حولنا القبور، والعظام، والشوك اليابس، والزواحف من أفاع وحرباءات، وكذلك القوارض من جرذان، وقنافذ، إلى آخر ما هنالك من خشاشٍ صغير ـ فقرياتٍ وغمديات؛ كل ذا تطاير، فألفينا أنفسنا كأنما على هاوية لا يُرى قاعها، تحت سقف من حطام معلّق كغيمة، فلم ننطق، بل هرولنا في اتجاه ما بدا لنا تُخْمَ البلدة، هلعين، حتى أشرفنا عليها، بل دخلنا أزقة فيها، قبل أن نسائل أنفسنا: «إلى أين؟».

لم يبقَ من الطفل الذي أُوكلنا به قبره حتى، فإلى أين بعد ذلك؟. ولبرهة همنا بالعودة إلى البُعْد الذي يرجع إليه أمثالنا لّما يقضون ما عليهم، لكننا يخيفنا أن نُجْبَهَ بالسؤال المُمِضّ ذاته: «نسيتم كل ما لكم هنالك، وعدتم؟». نسينا ماذا؟. لم ننسَ شيئاً، فلمَ الخوف؟ قلنا فلنعدْ، وعدنا إلى «هنالك»، فلم يَخِبْ ما تفكّرنا فيه. قيلَ: «أعدتم، وقد نسيتم ما نسيتموه؟»، فأجبنا في ثقةٍ حذرةٍ: «لم ننسَ شيئاً»، راكنين إلى أن في الأمر امتحاناً ربما، تُراد به دعابةٌ، فإذا الصيحةُ: «ارجعوا. نسيتم أن تكونوا لا مرئيين».

أنحن مرئيون؟ إشْكَالٌ محض. فها نحن نوغل في الأزقة دون أن يلتفت إلينا أحد قط. وكانت خالية تلك الأزقة بعض الشي، لكن ثمت مارّة مهرولين، بين حين وآخر. وكلّما تقدمنا فيها تكشَّف لنا أنها تفضي إلى طرق أوسع، وتفضي البيوت الوطيئة، التي تزدهر فناءاتها بهياكل سيارات رثّة، وإطارات المطاط، إلى بيوت أكثر علواً، تزدهر فناءاتها ببعض الشجر، وبآلات أقل رثاثة. وتفضي هذه، بدورها، إلى عمارات عالية، وأخرى شاهقة، تنتصب فوقها أدغال من هوائيات التلفاز المعدنية.

أوغلنا كثيراً على ما نعتقد، حتى استوقفتنا عمارةٌ بالمشهد الذي كان

يجري أمامها: رجلان بقناعين، يمسكان بقضبان حديدية يصهرانها بوساطة نافورة من اللهب الأزرق. فهما كانا يلحمان بوابةً، أجزاءً إلى أجزاء. وكانا يستوقفان كل داخل ليعطياه مفتاحاً. والواضح أنهما إنما عَمَدا إلى إغلاق مدخل العمارة ببوابة معدنية إسرافاً، ربما، في ابتغاء الأمان، لأنهما كانا يسترسلان في الإشارات، كلّما أعطيا شخصاً مفتاحه، مباعِدَيْن بين أذرعهما، ناظرين إلى الأعلى، وإلى الأسفل، كأنما يقيسان المدخلَ شبراً شبراً، ويحذّران من الشرّ المُنْتَظر إذا لم تُثْبِتْ عوارض هنا، وعوارض هناك. وكانا، في أثناء هذا كله، يهرولان إلى الداخل، محتمين بالجدار الذي يجاور الدرج، كلما سمعا صوتاً يشبه صوت الطبل في كهف، أجوفَ مُخَشْخِشاً، ثم يرجعان، في حذر غير واضح، إلى إكمال عملهما، وهما يرفعان سيقان بنطاليهما، من الركبة إلى ما فوقها، بحركة آلية يحفظان بها مرونة انحناء السيقان إذا قَرْفَصَا.

أخذنا فضول لم يكن في طبعنا، فجعلنا نتحلّق من حولهما، ونشيش الحديد، وبخُوره، يتصاعدان إلى كثافاتنا، إضافة إلى الوميض الذي ينبجس حلقات حلقات، فنكاد نتسلّقُه إلى أشباهنا في شهوات اللون. وفيما نحن سارحون دوّى صوتُ طبلٍ أجوف جديدٍ، محبوكٌ من شظايا وغبار ذي طعم حرِّيف، فإذا الرجلان يتراجعان إلى المدخل، مصغيين كأنما دويٌّ آخر موشك على الاتصال بسابقه. وفي برهة، لم تكن خشخشة الدوي الاول قد خمدت فيها، علا ومضٌ ثانٍ، محبوكٌ من طنين تقشرت منه جدران المدخل. وانتشر الطنين، من ثم، كسرب هائل من اليعاسيب انبثق من مجهولٍ إسمنتيٍّ، حتى لنظن أننا نسمعه الآن، على ظهر هذه السفينة الكسول، التي تجري وفق مواثيق يطويها الماء وينشرها، كأنين خافت لا يوقظ حتى اكثر المحاربين قلقاً في إغفاءته القلقة. و «أ. دهر»، المتمدد بكامل طوله، على الملاءة السميكة التي افترشها، مدخناً لُفافته، لن يعير ذلك الصوت القادم من شرقيّ المياه، بجسارة ماضٍ خفيف، إلاّ ما يعيره، من أعماقه، لهيئاتنا، وهو ينظر إلينا مباشرة، دون زُغَلٍ في بؤبؤيه اللذين نراهما في الظلام المنزلق على السطح الحديدي. وقد درنا نصفَ دورة على مؤخّر السفينة، علّنا نكذّب وسواسنا، لكن عينيه تتبّعتا مُكْرنا

الصغير، وكدنا نلمح سخريةً هينةً فيهما، فتوقفنا موقنين أن الذي يجري، الآن، يجري بدَفْع من اقتدار الغيب ـ شقيق كثافاتنا.

«ليكن» قلنا. ستوطد سيرورةٌ هي خلافُ ما أعددنا أنفسنا له. سنقترب منه سائلين عن هذه السخرية في عينيه. واقتربنا كاقترابنا منه في المرة الأولى، أمـام مدخـل عمارة «أبي كبره» حين انتشر الـطنـين كسرب غاضب من اليعاسيب، وهرول الرجلان، اللذان كانا متكئين على لُـحْـمِ البوابة بعضهما إلى بعض.

كان «أ. دهر» واقفاً، آنذاك، قرب جدار العمارة الجنوبي، واضعاً يديه على خصره، ناظراً إلى الشرفات الثماني المتراكبة، وهو يشتم: «أولاد البغل». ويعاين، من ثم، كيساً ورقياً اندلقت منه أشياء رطبة إثر سقوطه على الأرض، قرب قدميه.

لقد لمحناه قادماً دون أن يثير اكتراثاً: كان كغيره، هزيلاً بعض الشيء، اكتست ملامحه بما يشبه الضجر من حاضره، أو من ماضيه، بل ـ الأصح ـ من جسده، كأيّ آدميّ يعلمه جسده الألمَ وخوفَ الألم. لكن، إذ توقف إثر سقوط الكيس من إحدى الشرفات، برغم الطنين الذي قشَرَ الرصيف وجدران العمارة معاً، توقفنا نحن أيضاً، مأخوذين بدعابة المشهد. بيد أنه كان يعاين، في غضبه الصبياني، تلك اللحظة، مهزلة الميزان الذي يُخِلُّ بالجسد تارة، وبظل الجسد تارة أخرى، وإذ ترجح كفّةُ الظلّ، بعامة، ترجح كفّةُ الموت: الظلُّ ضد الثقل؛ ضد الكثافة؛ ضد ذاته. و«أ. دهر» كان يعاين كيف يتّفق للظل أن ينقلب على جوهره، قبل سقوط الكيس من إحدى الشرفات، وبعد سقوطه، وقد أصمّتْهُ المساءلةُ والغضب، معاً، عن دوي القذيفة الذي قشر الجدران، وحدا بالرجلين إلى الاحتماء بالمدخل.

في مرح تتبّعنا خطاه، غير العجولة، إلى مدخل العمارة. وإذ توقف لبرهة توقّفنا. تبادلَ والرجلينُ بضع كلمات متقطعة. حذّراه ربما. عاتباه على بطئه. عليه أن يركض. الظل يهيّء انقلاباته على الرصيف. وقد ناولاه مفتاحاً، أسوة بغيره، فصعـد الأدراج، فصعـدنا خلفه: طبقة. طبقتان. ثلاث. أربع.

خمس. ست. نعم. ست طبقات، ومن ثم أخرج «أ. دهر» مفتاحه ودلف إلى الداخل، فدلفنا خلفه. وقف أمام باب غرفة الجلوس متفقداً بعينيه آثار خراب ما. مال قليلاً، دون أن يبارح مكانه، صوب باب المطبخ. كان على ما يرام. مشى في الممر حتى غرفة النوم. تفقّدها من مُبْعدةٍ أيضاً، والتفت إلى الحمّام. ما من خلل ظاهر. خلع حذاءه وجلس على بساط أُفْرِدَ في الممر بطوله، واستند إلى وسادة وحيدة، محدّقاً في جدار الممر المقابل، الأبيض، الذي لا يبعد عن ساقيه الممـدُّدتين فِتْراً واحداً.

الممر ضيق، لكن الواضح أنه اعتاد التمدُّد هناك. الوسادة، ومنفضة السجائر، وكأس فيها بقايا سائل، وتفاحة مقضومة في صحن صغير، كلُّها تدلّ على أنه متهيء للدخول، هكذا، إلى الممر، والركون إليه، دون العبور إلى أية غرفة خلا المطبخ، الذي كان يتردد عليه ـ كما رأينا لاحقاً ـ للتزود بالماء، وبأشياء صغيرة أخرى. وكان للتلفاز موقعه في الممر، أيضاً، في الركن الشمالي، قرب باب الحمام، حيث الموصّل الكهربائي الأقرب، الذي يجعل المتعة الممزّقة ممكنة إذا تسنى تزويده بتيار لا تمر ساعة إلاّ يتقطّع، أو بحسب تقنين ينسى عمّاله مواعيدَ وصله وحجبه. أما فراشه فكان ممتناً للدوي المتعاقب، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، إذ يُتاح انتقاله من غرفة النوم إلى الممر، ومن الممر إلى غرفة النوم، . وإلاّ بقي مائة عام في المكان ذاته.

في خفّة كان «أ. دهر» ينقل فراشه، مساءً، إلى الممر، متجهاً بقدميه إلى التلفاز إذ يتمدّد، وقد توسّد جميع ما يمكن توسّده من حشايا ليبقى رأسُه في المستوى الـذي يمكّنُهُ من الشاشة ذات اللونين، حتى لو لم تكن هنالك كهـرباء، أو صور على المستطيل الفضيّ المضاء، كما يحصل مراراً، لما ينسى العمال بث الصور، أو يتذرّعون بعطل فنيّ. وفي الصباح، أبداً، يرجع الفراش إلى غرفـة النوم، ممـدّداً، كما كان من قبل، على لوح خشبي لصق البلاط.

وعذره، في كل هذا، موقع شقته: **كل شقة تطل على شرقي المدينة مهددة بقذيفة.**

كانت الطبقات الأرضية تَدْرأ الأمر بعض الشيء، فتتحصن بأكياس من

الرمل، أما العليا فليس لها الإمكان ذاته، لذا يلجأ الساكنون فيها إلى الممرات. فحائطان، مثلاً، أكثر ضمانة من حائط واحد، وثلاثة، على الأرجح، آمنةٌ، إذا لم يتحايل الغيبُ على التقدير، كمثل الذي جرى للعمارة الثالثة إلى جنوب «أبي كير».

لقد سقطت قربها قذيفة ولم تنفجر. ثم انزلقت من سرعة سقوطها على بلاط المدخل فاصطدمت بالمصعد الكهربائي، فارتدت على زاوية الدَّرج، فتدحرجت شبرين غرباً حتى باب القبو. ثم.. تْرَكْ تْرَكْ تْرَكْ، درجةً درجةً، نزولاً، والتفّت على نفسها هناك، في أرض الملجأ تماماً، تحت بصر الملتجئين الذين انقسموا مجموعات على ضوء الشموع، بعضهم يلعب النّرد، وبعضٌ يوبّخ الأطفال، واقفين وقاعدين. وفي لمحة علا ومضٌ غامر لم يُتح للأيدي أن تحجب منه العيون. بل علا الدوي، فمن يدري ما كان الأسبق: الدوي أم الومض؟. هكذا، فجاءةً، علا شيء ما، وانتشر، رقيقاً من شدّته، فتبادلت الأجسادُ أعضاءها، في سخاء لا مثيل له: رأس هذا على جذع ذاك، وأحشاء ذاك على صدر هذا.

ربما، والأرجح أن المسألة كانت على هذا النحو، في برهاتها الصامتة الأولى: دارت القذيفة على نفسها، في أرض الملجأ، تحت الأبصار التي خالها أن سهواً مّا يلعبُ لعبته. فقد تكون يدٌ لاهيةٌ دحرجتها على مزاج، أما أن تتفكّر الأذهان في مجرى سقوطها، من مدخل العمارة، إلى باب المصعد، فالدَّرج، فذلك أمر لم يُتِحْهُ لها الومض، أو الدّوي، بحسب الذي سبق الآخر، فتبادلت الأجسادُ أعضاءها.

كنا، نحن الخمسة اللا مرئيين، نقتعدُ الممرَّ من جهته الجنوبية، أيْ حيث ينتهي رأس «أ. دهر»، قرب عتبة غرفة الجلوس، ونتراصف من هناك حتى باب المطبخ، فيخترقنا، بين الحين والحين، وميض باهتٌ أو باهر، من البابين الزجاجيين المفتوحين شرقاً، حتى لا يتناثرا من الضغط. غير أنهما تناثرا، فيما بعد، أربع مرات، في الشتاء تحديداً، وكان يُعاد تركيب زجاجهما على مضض، كاقتصاص من الذات. فالمعلوم، الذي لا يُخفى على أحد، يحمل

أبداً أخبار عصفٍ وقصف، على محاور القتال المشتعلة، والتي ستشتعل، داخل المدينة، وداخل الأزقة، وداخل العمارة الواحدة أحياناً، حيث يدحرج المحاربون القنابل على الأدراج لتصيب من تصيب، ثم يهدأ العراك فيتعاتب الجانبان، ويتصافحان، ليرجع جيران آخرون إلى إشعال المحاور المشتعلة، والتي ستشتعل، داخل المدينة، وداخل الأزقة، وداخل العمارة الواحدة، أيضاً. وكان لعمارة «أبي كير» نصيبها من ذلك بالطبع، كأية عمارة أخرى. لذلك أُعيد تركيب زجاج شقة «أ. دهر» أربع مرات، في الشتاء تحديداً، حتى يغدو السكن مُحْتملاً في ذلك العاصف الرطب من المطر والقلق معاً، برغم المعلوم الذي يحمل خبرَ ضربات تهدم الجدران، لا الزجاج وحده. غير أن العادة هي عادة: يذهب زجاج ويأتي زجاج. تذهب شرفة وتأتي شرفة. يذهب آدمي ويأتي آدمي. ونحن الخمسة اللا مرئيين اعتدنا أن نرى الشاغل المهيمن على المرئيين، في تحصين الحال والملجأ، والتعوّد على الأقل الأقل، لكن، من وراء كثافاتنا المتحصّنة بعذابها الشفيف، نسأل أنفسنا أمام المشهد الذابل على سطح السفينة الحديدي: ما الذي سيفعله «أ. دهر» في الجهة الثانية من البحر؟.

سيختار، بالطبع، عمارة ستنهار بدورها. سيختار الطبقة السادسة كعادته، ليبرر نومه في الممر. ستكون شقته إلى الجهة الشرقية. القصف يأتي أبداً من الجهة الشرقية. سيصعد الطبقات الست بسطلين من الماء يجلبهما من بئر العمارة، واقفاً في ردهة كل طبقة وهو يعاين الساكنين الملتصقين، جلوساً، بالجدران، متأففاً من مشقة الحال. وهو يتأفف، كل ثانية، من مشقة الحال، في القصف وفي هدنات القصف:

- «تباً للشارع، كم هو خالٍ»، يقولها آن تلجأ الناس إلى سواتر الإسمنت.
- «تباً للشارع، كم هو مكتظ»، يقولها آن تسعى الناس، بين الهدنات، إلى شؤونها العجولة.
- «تباً لأهل العمارة، كم هم صاخبون»، يقولها لمّا تلتئم كل عائلة، كعادتها في تاريخ ما يجعلها عائلة، بالآباء، والأبناء، الصاخبين معاً.

ـ «تباً لسكوتهم» يقولها حين يصعد الأدراج فيراهم جالسين في قلق، وقد احتضن بعضهم البعض، أو أخرسَ أحدُهم الآخرَ عنوةً، كلّما أنطقَهُ فزعٌ وعراهُ عويل.

هكذا سيصعد الطبقات الست، وقد تأخذه الحالُ من عجلته فيصعد إلى الطبقة السابعة. سيضع السطلينْ على بلاط الردهة، باحثاً عن مفتاحه في أحد جيبيه. سيجد المفتاح. سيدفع به في قفل الباب. سيفتحه. سيحمل السطلين دالفاً بهما إلى الداخل. سيُرْدِف الباب من خلفه. سيحمل السطلين، ثانية، ماضياً بهما صوب الحمام. سيختلط عليه الأمر، بسبب لون الدهان في الممر، فالشقق الشرقية متشابهة في هندستها، لكن لكل ساكن ذوقه في اللون. ولون الشقة الشرقية، في الطبقة السابعة، لا يشبه لون شقته. لذلك سيختلط عليه أمره، وسيحار قليلاً، قبل أن يبصر من يناديه، خارجاً بنصفه من غرفة النوم المواجهة للحمام تماماً. سيتمعن فيه «أ. دهر» تفحصاً، ثم ينظر إلى الخلف كمن يبحث عن المدخل الذي عليه العودة منه بسبب خطأ في التقدير. لكن الواقف، هناك ـ نصفه في غرفة النوم، ونصفه خارجها ـ سيلح عليه بإشاراته أنْ تقدَّم، وسيتقدم، وقد ترك سطلي الماء أرضاً. سيختفي المنادي قبل أن يبلغ «أ. دهر» بابَ الغرفة. سيمدُّ بعنقه، كمتطفّل، إلى داخلها. سيرى الذي ينبغي عليه أن يراه:

سيرى العجلة الخشبية الضخمة، التي تشبه البلاط بلونها، دائرةً في مستوىً أفقيّ، في أرض الغرفة، وقد اقتعد الشخص الذي ناداه وسطَها الثابتَ، المنفصل عن الهيكل المسرع في دورته. سيتقدم جسمُه الذي سبقه عنقُهُ. ستتقدم خطواته. سيتقدم ظله وفضوله المرتعش. ستتمكن عيناه من حصر المشهد حين يجاوز عتبة الباب. سيفتح فمه، هامساً في دَهَشٍ تشوبه مرارة: «أنتَ؟».

غير أنه لم يخطىء قط صعودَه إلى الطبقة السادسة. ولم يجاوزها، أعجولاً كان في صعوده أم متمهِّلاً. ويظل وصوله إلى الطبقة السابعة افتراضاً محضاً. ويظل افتراضاً أن يختار عمارة ستنهار، بدورها، في الجهة الثانية من البحر. لكن

يعن لنا، نحن الخمسة اللا مرئيين، تدبير الافتراض على أنه واقعٌ، في ماضٍ مّا من هموم الإنسان. ولذا فلنقل إن «أ. دهر» سيختار عمارة بثماني طبقات، في الجهة الأخرى من البحر. وسيصعد ستّاً منها، في الأزمات، بسطلي ماء. ولربما أخطأ الطبقة السادسة فصعد إلى السابعة من عجلته. سيفتح الباب بمفتاحه. سيفتح الباب بالرغم من صغر مفتاحه على قفل ذلك الباب. سيدلف بسطليه، ثم يردف الباب خلفه. سيتجه إلى الحمام، لكنه سيلاحظ اختلاف لون الدهان في الممر. سيتراجع مستدركاً خطأه. إذ ذاك سيناديه شخص ما، بإشارات ملحاحة، من باب غرفة النوم. سيتقدم منه «أ. دهر». سيمد عنقه إلى داخلها مستطلعاً. سيرى الجدار الشرقي مفتوحاً على الأفق الشرقي: فضاء تعترض بعض فسحاته هوائيات التلفاز، ومئذنة واحدة، أما المدى، باتساعه، فلا يحده إلاّ الجبل الداكن بأزرقهِ في البعيد الأزرق. سيلتفت إلى الشخص الذي استدرجه في تساؤل مكتوم: «أنتَ؟».

هذا ما قد نحاول تدبيره في الجهة الثانية من البحر. لكن العرف يقتضي منا الاّ نتفكَّر في تدبير أمرٍ لمن انتهى أمره. فالذي ينتهي ينتهي، وكذلك مهمتنا. أما أن يظهر بعد أربعة أيام من انهيار عمارة «أبي كير» على سطح السفينة هذه، فذلك يثير قلقاً فاحشاً. وبعد هذا كله، ما الذي نفعله نحن، هنا، على سطح السفينة الحديدي؟. أثمت للصرخة ـ التي ردّتنا على أعقابنا: «ارجعوا. نسيتم أن تكونوا لا مرئيين» ـ شأن بالذي يجري؟

ثمت مغالطة في تقديرنا لسيرورة المعلوم، وعلينا أن نسائل أنفسنا في الذي جرى بعد انهيار عمارة «أبي كير»: أعُدنا إلى حيث ينبغي لنا العَوْد بعدما انتهى من نحن موكُلون به؟ نذكرُ رجوعنا، إثر موت الطفل ذي الجمجمة الرخوة، إلى منشأ أمرنا، فقيل لنا «ارجعوا، نسيتم ما نسيتموه...»، لكننا لا نلمس إشارة من قبيل هذه بعد انهيار العمارة. وكان حريّاً بالأمر أن يتم على نحو محسوب. كأن نعود من حيث جئنا، وقد انتهت المهمة، فنُقْبَل عودتنا، أو تجري الصرخة المعهودة: «ارجعوا، نسيتم..»، ونحن نعلم، يقيناً، أننا لم ننسَ شيئاً.

لكننا هنا، الآن، على ظهر السفينة الحديدي، مصغين إلى تهتُّك المياه، وعيوننا لا تفارق عيني «أ». دهره المحدّقتين، كأنما يعبثُ، صامتاً، بكل الذي فاته من أموره وأمورنا، معاً، كأنما يقهقه فتختلج كثافاتنا. نعم. نحن في جهة وهو في جهة، وبعد حين من الوقت سيلقي بمفاتيح بيته إلى المياه، وذلك ما سيشغلنا أكثر. سيرفع عن جسده المتمدّد ملاءته العسكرية السميكة، متقدماً، في الفجر، إلى سياج السفينة. سينظر صوب الغرب. سيتقرى مفاتيح بيته، ومكتبه، بيده، عابثاً بها في وداعة المستسلم، وسيرفعها إلى عينيه، متأملاً، ثم يرخي أنامله فتسقط، على مهل، في المياه.

ستكون سقطة المفاتيح هينة على جنب السفينة، بسبب الزبد المتسارع، لكنها ستجد لنفسها موقعاً تستثيره بسقطتها. وستنبعث حلقة صغيرة في الزبد، قبل أن تطويها حلقـات أكثـر بطشاً. وستنحدر المفاتيح، بعد تلك الحلقة الزرقاء، إلى سكونها تحت الطبقة القلقة؛ تحت القلق؛ تحت النسيج المتمزّق الذي يُدعى سطحاً. ستنحدر المفاتيح إلى سكونها. سينحدر هو إلى الأعماق، متهايلاً كالفقاعات، وقد صيَّرته المياهُ مُشْكِلاً كحماقةٍ لا يجد المكانُ سبيلاً إلى الاعتذار عنها.

نعم. ستنحـدر أشياء كثيرة إلى الهاوية الزرقاء، إنما سنتشبث، نحن الخمسـة الـلا مرئيين، بسياج السفينـة، براحاتنا التي لم تتشبَّث، من قبل، بشيء، خائفين من تلك الغواية المتبرِّجة، فجراً، وسط الزُّرْقة المُحْكَمة تَحَبَل في شهره الرابع. فنحن لا نريد أن ننحدر بدورنا، كالمفاتيح، إلى الأعماق. لقد وجدنا أنفسنا على ظهر السفينة، فجاءة، وسنبقى على ظهرها، متفكّرين في الأربعـة الأيام الضائعة من تقويمنا المحسوب، بينما لا تفارق أنظارنا «أ». دهره، والفجرُ يهيمن، رويداً رويداً، على الجهة الثانية من البحر. لكن الفجر لا يبدد شيئاً، أو يوضحه، في هذه الجهة، مثلَهُ مثلُ الفجر في الجهة الأخرى، والفـرق أن المفـاتيح رُمِيَتْ إلى المياه، هنا، قصداً، غير أنها كانت تسقط، هناك، من الذعر، إذ ترتخي عنها الأيدي. ولمّا كان في المستطاع ان يستغني المرء عن مفاتيحه، في هذه الجهة، لأنه لن يجد باباً، فقد كان في المستطاع الاستغناء

عنها في تلك الجهة أيضاً. فطلقة واحدة، إذا أضعتَ مفاتيحك، كفيلة بتمزيق أيّما قفل، والجدار الذي يلي القفل أيضاً. فالأسلحة رحمة. الأسلحة تجعل التـوازن ممكنـاً بينك وبين القفل، وبينك وبين جارك، وبينك وبين الحياة. لهذا، ربما، وضع «أ». دهره فوهة البندقية في قفل المصعد، وأطلق النار. وقد تساءلنا: لماذا قفل المصعد وليس قفل الباب؟

عليه أن ينتـظر هبـوط المصعـد، أو صعوده، ليرتقيه، لأن المصعد لا يُداهَم. غير أنه جاوز تقديرنا واقتحم المصعد فلم يجد فيه أحداً.

خلع البابَ فوقعَ على هاوية هي مجرى العلبة الحديدية التي تقل السكان من الأسفل إلى الأعلى، في العمارة ذات الطبقات الثماني. وقد أطلق رَشَقاً من بندقيته الآلية على ظلام الهوة فاهتزت الأسلاك الثخينة، وجاوب الصدى نفسه.

حدث ذلك، مرةً، حين دخل ردهة العمارة ووجد المصعد لا يتزحزح عن الطبقة الرابعة، بدليل الإشارة المضيئة التي تدل على وجوده هناك. ضغط زراً أخضر فما جاوبه المصعـد. دار حول نفسه شاتماً، ثم قرع الباب ذا الشّق الـزجـاجي قرعاً عنيفاً. دار ثانية حول نفسه أخرسَ كظله الأخرس. توجه صوب الدرج وصعد قفزاً. وصل الطبقة الرابعة فألفى باب المصعد غير مردود. والمصعد لا يصعد أو يهبط ما لم يكن بابه مردوداً. وكان، بحق، مصعداً قديماً، ينبغي ركله بقـوة حتى يصـطفق بابه. فأصغر حصاة في ردهة المبنى التي لم يكنّسها أحد من زمن سحيق، كفيلة بجعل الحركة الآلية للإقفال عسيرة.

نعم. ركَلَ الباب فكسر الحاجز الزجاجي الذي يتوسّطه عمودياً، ثم أكمـل صعـوده قفزاً حتى الطبقة السادسة، فأخرج بندقيته الآلية من شقته واقتحم باب المصعد.

غير اننا تفكّرنا طويلاً في أمر ذلك اليوم. إذ كان عهدنا بهذا المصعد أنه يشتغل يوماً وينقطع لشهور: تسقط قذيفةٌ أُطْلِقَتْ من المَحَلّة بسبب خطأ في قراءة الاحـداثـيات، أو تسقط قذيفـة على المَحَلّة بسبب صواب في قراءة الاحداثيات، فيستسلم المصعد.

مصعد مستسلم، هو والدّويّ أبداً على موعد، فلماذا اشتغل ذلك اليوم الذي أعقب وصولنا إلى العمارة، وكان معطلاً ميتاً، فعبرنا الدرج خلف «أ. دهر» إلى الطبقة السادسة؟.

حدث ذلك مساء، نعني إطلاق النار على الهاوية المظلمة لمجرى العلبة الحديدية في العمارة، فندَّ صوتُ نباح من الأعماق كأنما اشتعلت حناجر مائة كلب، فشتم «أ. دهر»: «إخرسي يا بنات البول»، ولم يسائل نفسه، بالطبع، في أمر ذلك النباح الصاعد من الأعماق، بل حَبَسَ نَفَسه بعدما شتم ثانية، ثم رفع إحدى يديه يسدّ بها أذنه، في محاولة لحجب ذلك الهدير الموحش، ولمّا لم تُستقم له محاولته أفرغ ما تبقى من طلقات في قفل بابه هو، لا في ظلام العلبة الحديدية، فارتد الباب قليلاً وقد انطحن القفل وما يحيط به من خشب. إذ ذاك رجع خطوتين صوب المصعد، وألقى ببندقيته إلى الفراغ المظلم، صارخاً: «اخرسي»، ثم سدّ أذنيه براحتيه، ودخل الشقة التي سند بابها من الداخل بقارورة الغاز، وألقى بنفسه، بعد ذلك، على سجادة الممرّ الرثّة، في إعياء مكتوم، دافناً وجهه بين ذراعيه اللذين توسّدهما. وقليلاً قليلاً يرفع ذلك الوجه، حين تهدأ رئته لا قلبه، التي يفصلها عن أرض الممر نسيجٌ حائلُ اللون، فاترٌ كحديث زوجين أنجبا كثيراً، ناظراً إلى التلفاز الراكن الى الزاوية قرب باب الحمام، بشاشته البيضاء المُطفأة، مطيلاً في تحديقه، تماماً كتحديقه فينا على ظهر السفينة هذه، حيث ترتخي يده فتسقط منها المفاتيح إلى المياه، في الجهة الثانية من البحر، منحدرةً إلى كثافة لا نعبأ إن كانت تشبه كثافاتنا، لأننا، في حدود ما نحن عليه من هيئات، لم نتلقف مفاتيح ساقطة من الأعلى، كالتي تنغلق عليها المياه، الآن، وتتفتّح لها، في دورة متعاقبة، فقاعةً إثر فقاعةٍ، قبل أن تستقر هناك، فوق الشعله الرطبة لذاكرة الأعماق. أمّا هو فيلتفت بعنقه المتعب إلى جهة اليابسة، غرباً، بعدما أطال التحديق في الشرق الذي ارتخت بداه عن زبد السفينة، كأنما جاهد أن يوقفها طوال الليل. وقد التفتنا بدورنا، كمن تحرَّر قليلاً من ذلك الثقل الذي توزع علينا، وعلى الشرق، معاً، بدَفْعٍ من عينيّ «أ. دهر»، فألفينا الرصيف الكبير يقترب، وقد توسّطته عمارة على

شاكلة «أبي كير».

لكننا التفتنا إلى أعماقنا، من جديد، باحثين في أمر الأربعة الأيام التي تلت سقوط عمارة «أبي كير»، ولماذا ظهرنا نحن و«أ. دهر» معاً على ظهر السفينة هذه.

إنها أربعة أيام، وفيها ما فيها من حيوات، ونهب، ونسيان، وعصف، وخصام، وقطيعة، وجَبْرٍ، وكَسْرٍ، وإغواء، وإبرام، وتقويض. أربعة أيام سرقتنا بأنامل ماكرة، رخيّةً كرخاء هذا الفجر الشهواني، الذي شطرَ المعلومَ بين يابستين: ميناء المدينة هناك، ورصيف الأرض الأخرى هنا.

نعم. انهارت عمارة «أبي كير» طبقة عن طبقة. تقوّضتْ كأنما يدٌ كبيرة أهوت على لُعبة من سُمْسم، فنفرّ بعض الحطام خارجاً، والبعض ارتدّ إلى داخل. والحديد، وحده، بقضبانه الرقيقة الملتوية، كان يشير إلى فداحة لم يحتملها البنيان الذي بدا، قبل ذلك، جَسُوراً في وقفته، برغم ما تطاير من خزانات المياه على سطحه، وما تهاوى من شُرفات، وما انبعج من زجاج.

انهارت العمارة على الهواء وعلى «أ. دهر»، فما الذي مكّنه من صعود هذه السفينة؟ من الذي أحضره في هيئته الكاملة هذه، ولم ينسَ أن يحضر مفاتيح البيت، والمكتب أيضاً؟. مَنْ مكّنَهُ من الحركة المُتقَنة في أنامله لترتخي، هكذا، في دعَةٍ فخيمة، عن المفاتيح فتهوي الى الفرج المكين، هناك، في القاع الأنثوي؟

انهارت عمارة «أبي كير»، ولم يسلم محيطها، في قطر يجاوز أربعمائة متر، في المحلّة التي عاد إليها قاطنوها، إثر الهدنة الدولية، والمواثيق المعلنة والمجهولة، التي ألقت بالمحاربين المخذولين إلى الجهة الثانية من البحر.

القضبان الحديدية مندلقة كالأحشاء. الغبار بقهقه، والمتحلّقون الكُثْر، الذاهلون والفضوليون، ينحنون على الأنقاض محدِّقين، أو يكتمون أفواههم بالأيدي. والأصواتُ منقسمة على أنواعها من حول الهيكل المهدوم. ففيها كانت آهات الحسرة، ودمدمات العويل المكتومة، ورطانة النوح، وغُنّة الأسف والحرقة، وحروف الحلق المدرَّبة على المواقف، مضافٌ إليها، جميعاً، إيماءات

التجدة والتوسُّل من الأطراف، بدءاً بالكتف وانتهاء بالأنامل، مروراً بالأهداب وانتهاءً بالأقدام التي تتحرك أمشاطها في الأحذية، بينما تبقى الأعقاب ثابتة على الرصيف، أو ترتفع، رُمّةً، لتخبط خبطاً خفيفاً كما حَرَدُ الأطفال.

نعم، فيما كانت الأصوات تتواتر من حول الهيكل المهدوم، كان النباح، في الوقت نفسه، يتواتر تحت الهدم، متعالياً، كأنما فُضَّتْ أختامٌ عن مائة حنجرة لمائة كلب. غير أن أحداً لم يُجرْ ذلك النباح سؤالاً، حتى بدا لنا ـ نحن الخمسة الراكنة كثافاتُنا إلى شهواتها ـ أنهم تعوّدوا ذلك، وهم عارفون بمكمن الأمر ومصدره، فأزمعنا أن نغضّ عن الأمر كله، فالذي صُيِّر غاية توكيلنا فُنْدُقُهُ العمارة كما تفنّد المصادفةُ هندسةَ الأكيد، وغدونا في حِلٍّ من التبعات التي تلي صمتَ الحيّ، صمتَ عضله وخلاياه؛ صمت مثوله الأحمق بين يديْ الشهوة الرحيمة التي يُشْغِلُها بانكساره، أبداً؛ كأنما يُمعن، ببطولة النهاية، في تأكيد غدهِ المقامر بما لا يملك. فكيف انبثقنا، معاً، على ظهر هذه السفينة؟

إنه يتطلع صوب الميناء الآن، كالآخرين تماماً، ويتحرك الحركة ذاتها التي يحتذيُها الآخرون: إنهم يقتربون من حافة السطح المسيج، فيتكئون على القضبان الأفقية، مدخنين، أو متلمسين جيوبهم وعيونُهم نصف مغمضة في الفجر، كأنما يتأكدون من ممتلكاتهم الصغيرة المطوية في فوضى. لكن السفينة كانت كلّما اقتربت يَهِتَ المكانُ، وامّحى الميناء، تدرُّجاً، فالفينا عمارة «أبي كير» وحدها، وشرُفاتها إلى المياه. مدخلها إلى المياه. البوابة الحديدية على حالها، والزجاج غير مهشم، وثمت أزرار مضاءة على يمين المصعد الذي يلوح في ظل المدخل. وقد تفرّسنا في الوجوه، جميعِها، عسى نجدَ فيها حيرةً كالتي غرّتنا من التبدُّل البـيِّن، فما رأينا فيها إلاّ الدّعة الشاحبة.

ولما استقرَّت هُلْبَة السفينة في القاع، واستقرَّ هيكلها لصق الحافة الإسمنتية، لم يبارح أحدٌ مكانه، ولم ترتخ يدٌ عن القضبان التي تسيّج السطح أفقياً. وحده «أ. دهر» استدار دورة صغيرة ليعبر الشخص الواقف خلفه، ثم تقدّم إلى الجسر المصفّح الذي وصل السفينة بالرصيف، ونزل في هدوء، متجهاً

صوب بوابة العمارة. ولمّا أدركها أخرج بضعة مفاتيح من جيبه، ولم تكن تشبه، في لألائها، تلك المفاتيح التي ارتختْ أنامله عنها فتلقّفتها المياه. نعم. كانت شفيفةً ذات ألق، أعادها إلى جيبه حين دلف من البوابة، فتتبّعناه. وقد وقفنا من خلفه إذْ وقف، متجهاً بعينيه إلى الأعلى، حيث أزرار المصعد المضاءة تومضُ عَكْساً كدليل على هبوط العلبة الحديدية. وآن استوى مثولها فتح البابَ وآوى إلى الركن المربّع المنوَّر بضوء شحيح فآوينا إلى العلبة من ورائه. بعد ذلك صعدتِ العلبة الحديدية إلى الطبقة السادسة، حيث شقته، فأخرج مفاتيحه، ثانيةً، وفتح الباب، ثم دخل فدخلنا. وحين أوصده خلفه اتّجه، هرولةً، إلى غرفة نومه، التي بدت مفتوحة على جهة الشرق، فما يحدُّ امتدادها إلاّ سور الشرفة الواطيء. وقد قصد «أ. دهر» ذلك السور، من فوره، فاتكأ عليه بصدره، ناظراً إلى أسفل، في لهفةِ مَنْ يخشى فواتَ أمرٍ عليه. واستقام، من ثم، يعلو وجهه رضى خفيف.

ولمّا أدركْنا سورَ الشرفة، بدورنا، ناظرين إلى أسفل، لم يَفُتْنا مقصدُه: كان يطمئن على وجود السفينة هناك. وقد كانت هناك، بحقٍّ، ضخمة، مديدة، أكثر عرضاً من المبنى، ومن رصيف المبنى الذي بات أشبه برصيف ميناء. فيما بدا الشرق، برمّته، مفتوحاً على أحواضِ رُسُوٍّ بعيدة، ستدخلها، بعد حين، سفن كثيرة لم تُـخْـفَ علينا وجهتها آن رأيناها عابرةً، شرقاً، وكنا عابرين بسفينتنا تلك غرباً. و «أ. دهر» يعرف ذلك؛ يعرف أننا كنا نتأمّله برهةً، في تمدّده تحت ملاءته العسكرية، على ذلك السطح الحديدي، ونتأمل السفن الجارية عكس اتجاهنا برهةً أخرى. وكان هو، أيضاً، يَزِنُ المشهد على نحو ما كنا نَزِنُ به المشهدَ: عين علينا، وعين على السفن، متمَدّداً، هكذا، ولفافته المشتعلة لا تفارق شفتيه. وقد عنَّ لنا أن لعبةً ما تتواقتُ مع هذا اليقين الصارم في أنه يرانا. ولكننا حِرْنا حين نزل «أ. دهر» الجسرَ الحديديَّ، الذي وصل السفينة بالرصيف، ولم يلتفت إلينا، وأبقى رأسه مطاطئاً إذ صعدنا معه المصعد.

يقيناً، منذ أمد لا نعرف مداه، حاولنا أن نلفت انتباه هؤلاء المرئيين، بما

ملكنا من حِيَلٍ، فما قدرنا. لقد غيّرنا، مراراً، في أماكن وسادة الطفل ذي الجمجمة الرخوة، فظنت أمه أن الأمر حصل بسهوٍ منها. وبدّلنا كثيراً في أماكن حذاء «أ. دهر»، وأدوات حلاقته، ومنامته، فظنّ في الأمر شروداً منه. حتى أننا غيرنا في ساعته، فعزا ذلك إلى ساعته. وكدنا نغير بعض السنين من عمره، كأن نؤجّلها، أو نعجّلها، فأدركنا أن لديه من المقدرة ما يبرر ضياع ألف عام، واستحداث ألف عام، فحجبنا أنفسنا عن ذلك.

سيكون لنا يقين آخر إذا صرنا مرئيين، لكن «أ. دهر» حيّرنا، وها هو ينظر، الآن، من شرفته، في الطبقة السادسة، إلى سطح السفينة الذي ينخفض عن مستوى شرفته بمقدار قليل، ويكاد يومىء للمحاربين في ثيابهم الخضراء، والمرقّطة، لكنه يكتفي بنقل بصره بين الوجوه، في حنوّ. أما هم فكانوا ينظرون، لا إليه فحسب، بل إلى الشرفات جميعاً، كأنما توشك السفينة أن تبلغ بهم الميناء، في الجهة الثانية من البحر.

بيد أن المياه متماوجة، قليلاً، لصق رصيف المبنى هنا، وكانت رخيّةً على رصيف الميناء هناك، في الفجر الذي يشبه هذا الفجر، برطوبته التي تضفي على الجلد ثقلاً. وكان في استطاعتنا رؤية رموش عينيه مبتلّة بَلَلاً لا يُرى إذا لم ينعكس عليها شعاع جانبيّ، غير أننا رأينا البَلَلَ ذاك، من مكمننا الذي يبعد عنه أمتاراً قليلة، على سطح السفينة، في الليلة التي سبقت الفجر المهيمن الآن، لا بأثرٍ من شعاع مّا، بل بالذي عكسته عيناه بتحديقهما فينا. وفيما نحن بين ظن ويقين، آنذاك، من أنه يرانا، لمحنا تلك السفن التي كانت تجري معاكسةً، والتي سترسو، فيما بعد، في الأحواض الكبيرة المفتوحة على البعيد، شرقاً، حيث سيمكن حصرها، من شرفة «أ. دهر».

نعم. سترسو، من ثمّ، بأشكال أخرى، على غير ما كانت عليه حين قَدِمَتْ. وقد تعقبناها، في الليلة التي سبقت وصولنا إلى «أبي كير» على سفينتنا، متهاديةً صوب الشرق، بظلال معكوسة في ظلام المياه، واضحة في الأعماق بأناسها الملثمين. أما على مستوى السطح الرمادي الداكن، الممتد من حولنا، فلم يكن لتلك السفن أثرٌ منظور، حتى أننا كنا نرى، على جهتين، البوارج

الأمريكية سارحةً على اتجاهنا ذاته، بحسب مواثيق أُوكِلْتُها بحماية المنفيين هؤلاء، في ارتحالٍ لا يرى الإنسانيّ إلاّ ارتحالاً.

كنا نجري وسفنَ الحماية المضحكة غرباً، وتجري السفن الأخرى شرقاً، متقاربين، تتأمّلنا مياه واحدة، غيورة قليلاً، على جهاتها أجمعين، بدلالة أنها كانت تهيء الموانىء الغربية على صورة الشرق، فما أن نخرج «أ. دهر» من عمارة «أبي كير»، هناك، حتى بَلَغها هنا. أما الجهتان الأُخريان، بالرغم من أننا لم نَرَ تقابلاتهما، وتماهيهما، فلا يفوتنا أن الشمال ـ مثلاً ـ مرآةُ أعماق الجنوب، لا ظاهرُهُ. والجنوب هو سطوةُ الشمال الظاهرةُ، لا الخفية.

ما همَّ إن قدرنا على التوضيح أم عجزنا، لكن الثابت في مقادير الأمور أنها كانت تجري على هذا النحو الغُفْلِ المُتَنَظِّم، الصارم أيضاً. ولا تضيرنا المبالغة في وصف الجهة الغربية من البحر، قبلَ أن يتبدَّل المشهد المفتوح على رصيف الميناء إلى مشهد مغلق بعمارة «أبي كير». فقد كنا نرى الهُلْبَةَ تغور إلى مستقرها بين صخور القاع، ونسمع المحركات تهدأ بضرباتٍ من سوط المرُوِّض الذي لا يُرى، أما المحاربون، الذين بدأوا يتململون واحداً بعد الآخر، في رقادهم، ويستوون جالسين، دون أن تفارق جسومهم أغطيتهم العسكرية السميكة، فقد ألقوا نظرات باهتة أحدُهم على مَنْ يجاوره، وعادوا فَنَضوا الأغطية، وطووها دون عناية، باحثين في جيوبهم عن تبغ اشتعلتْ لُفافاته تباعاً، في هدوء. وكانوا، كلما إستكمل الصباح نسجه المضاء، تدرُّجاً، يتجمعون أكثر فأكثر على سياج السفينة، من الجهتين الشمالية والجنوبية، وقد انحنى سوادهم، بأعناق ملوية صوب الميناء، يستقرئون الغيب المفتوح على ضباب معتكر المزاج.

وبِهِمَّةٍ لم يكن فيها فضولٌ أو عَجَلَةٌ طوى «أ. دهر» غطاءه العسكري، بدوره، دون عناية، كالآخرين، وتركه على السطح الحديدي، متجهاً إلى مؤخّر السفينة لينحني بصدره على السياج، ناظراً إلى الزبد الذي يتداعى. ودار، بعد ذلك، على عقبيه، ليُسْقِط مفاتيحه في المياه؛ مفاتيح بيته ومكتبه، ولينظر إلينا، من ثم، نظرةَ من أنجزَ المهمة، فحيرنا، بحقّ، في ذلك، كحيرتنا

الآن وهو ينظر من شرفة بيته إلى السفينة الراسية قبال عمارة «أبي كبير»، والمحاربون لا يغادرونها، ممعنين تحديقاً في شرفات الطبقات الثماني، كأنما ينتظرون إشارة تُنْزِلُ الجسرَ الحديدي الذي سيعبرون عليه إلى الجهة الأخرى من أعمارهم.

نعم، تقرَّينا الشرفات الثماني للعمارة، متكئين بصدورنا، مثل «أ. دهر»، على سياج شرفة بيته، ناقلين أبصارنا من الأسفل إلى الأعلى، فبدا كل شيء على حاله: الرَّصيف المُحَفَّر ـ حيث رست السفينة ـ بآثار قذيفتين، وشرفة الطبقة الثانية التي انبعج حديدها.

وحين غادر «أ. دهر» الشرفة، عائداً إلى داخل المنزل، تتبَّعناه، فلم نجد ما تغيَّر: التلفاز في الركن، قرب باب الحمام. سجادة الممر الرثة علاها غبار خفيف، بل كثيف. فهي كانت مغبرَّةً منذ زمن، على أية حال. مرآة الحمام ـ التي تقشَّر طلاء الزئبق عن ظهرها، فباتت صورة الوجه لا ترى إلاّ مقطَّعة ـ مالت قليلاً. إذ انفصل مسمار صدىء عن إحدى الحافات بفعل ارتجاجٍ مّا. الخشب الممزَّق من حول قفل الباب، المُنْتَهَكُ برصاصة، معادٌ جَبْرُهُ، على نحو سريع، برُقَعٍ مُخَلْخَلة من خشب رقيق متشقق. الستائر، ذات الرقائق المعدنية المقعَّرة، المتوازية عرضاً، والمتراصفة واحدتها فوق الأخرى، حيث تسندها حبال رقيقة تمرُّ من فتحات في أطرافها، فتنغلق أو تنفتح، إذا شُدَّت تلك الحبال إلى أسفل.. أيْ، الستائر هذي، كانت متكوِّرة إلى الداخل، بنفْخٍ قوي من قذائف أصابت سطح المبنى المقابل، ذي الطبقتين فحسب، وقد سدَّت السفينة مرآه الآن.

الأشياء الأخرى غير ذات شان: نعني باب المطبخ الخارجي، مثلاً، الذي ظل مفتوحاً خشية انكسار زجاجه. وباب البراد المفتوح، بدوره، لخلوِّه من أي شيء. الكنبة الخضراء، على الشرفة، وقد تمزَّق بعض حواشيها. زجاجة الجعة الفارغة متكئة على إحدى الزوايا دون أن تسقط تماماً. حبل الغسيل المعقود من وسطه الذي تقطَّع ذات مرة. والرطوبة ذاتها، الوديعة كهرة، والمكتنزة التي تلتهم المعلوم والمجهول، معاً، بفمها الذهبي، تتربَّص

بالمكان كَذَلالٍ يتربَّص بأميرة.

و «أ. دهر»، الذي ينكفىء إلى الداخل، يفتعد سجادة الممر، مستنداً بظهره إلى الحائط الشرقي، ناظراً يميناً إلى شاشة التلفاز المطفأة، ثم يلتفت شمالاً صوب الباب وقد عَلَتْ من خلفه ضوضاء غير معهودة، لأن العمارة كانت مقفرة، لأمدٍ، بسبب القصف اليومي الذي جعل السكن مستحيلاً في تلك المنطقة، بينما سلمت مناطق أخرى من المدينة، نزح إليها من نَزَح.

في توجُّس نهض «أ. دهر» من مجلسه متجهاً صوب الباب. فتحه ومدّ عنقه مستطلعاً، فألفى أولاد الجيران الخمسة يستعرضون لَهْوهم، فعراه بعض الدُّهش. وإذ لمحه الأولاد على ذلك النحو خفَّفوا من ضوضائهم خَجِلِيْنَ، فبادرهم:

ـ متى رجعتم؟

فنظر واحدهم إلى الآخر، ثم طأطأوا مبتسمين. فكرر سؤاله، لكنهم انسلُّوا إلى باب شقتهم، وطرقوه أجمعين، في عجلة، ففتحته أمهم، فدلفوا في ارتباك. وإذ لمحها «أ. دهر» وكان يتتبَّع بعينيه الأولاد المنسلِّين، بادرها بدورها:

ـ متى رجعتم؟

فرفعت المرأة عينيها إليه، وقد مدَّت عنقها ناحية بابه، ثم ابتسمت محيِّية، كأنما تشتمُّ من سؤاله مزاحاً. وإذ كرر سؤاله ذاك، ردت المرأة وابتسامتها على حالها:

ـ رجعنا إلى أين؟

فرفع حاجبيه: «إلى هنا»، وأشار إلى شقتهم بيده. فساءلته المرأة ضاحكة:

ـ وأين كنا؟.

فاكتست ملامحه بعض ارتباك، قطعه فجاءةً مالكُ العمارة، دالفاً من باب المصعد:

ـ «مرحباً أختي»، حيَّا المرأة في تهذيب، والتفت إلى «أ. دهر»، مبدياً ترحيبه

المتكلِّف:

ـ. أووه. كيف حال يدك؟.

فنظر «أ. دهره» إلى يديه معاً مستغرباً: «يدي؟». وتطلع إلى مالك العمارة مستوضحاً أي يدٍ يقصدُ، فالتفت الأخير إلى المرأة التي لم تبارح الباب:

ـ لم أر زوجك منذ مدة، أهو على ما يرام؟

فردت المرأة: «إنه مشغول قليلاً. يتأخر في المجيء، لكنه في خير».

فألوى مالك العمارة عنقه، وهو لم يزل واقفاً لصق المصعد، صوب «أ. دهره»، وغمزه بإحدى عينيه، فابتسم الشاب مجاملة، فتقدم منه الرجل الشاحب من أثر مرض السكري، ذو السترة البيضاء أبداً، وحك إبهامه بسبّابته، بعدما رفع يده إلى مستوى ذقنه، كإشارة يُشتَمُّ منها معنى النقود. فهزّ «أ. دهره» رأسه متسائلاً عن مغزى ذلك، فبادره مالك العمارة في همس متكلّف، بدوره:

ـ عليك إيجار شهرين لم تسدّدهما.

فما كان من «أ. دهره» إلا أن يتطلع إلى المرأة هناك، شمال شقته، وإذ ألفاها راكنة إلى مدخل بابها ابتسم دون داع، وطلب من ذي السترة البيضاء الدخول. ولما صار الرجل الشاحب داخلاً بادره الشاب مستدركاً:

ـ أي شهرين؟

فألوى الشاحب برأسه إلى إحدى الجهات، هامساً: «أووه» كمن يعاتب شخصاً على سوء ذاكرته. غير أن «أ. دهره» تجاهل ذلك، سائلاً سؤالاً يلح عليه:

ـ أيشتغل المصعد؟

فتفرس الشاحب فيه برهة، ثم تطلع إلى المصعد المواجه للباب تماماً، من خلف كتفه:

ـ «كان يتعثر بسبب رداءة التيار الكهربائي، لكنه لم يتوقف بالطبع»، واستدار برأسه إلى «أ. دهره» مكرراً كلمة «بالطبع». وأردف مستدركاً:

ـ أحدث خلل مّا؟

فرفع «أ. دهره» ذراعيه، مفرودتين على جانبي جذعه، في توسُّلٍ مُسْتَهجن:

ـ من دون كهرباء، لا يشتغل المصعد. وشهران دون كهرباء يعني أن المصعد تعطّل شهرين. أليس كذلك؟

ثم التفت شمالاً، ويميناً، في تساؤل فَكِهٍ:

ـ لا تملك مضخة كهربائية تخص المبنى إذا انقطع التيار..

لقد كان شأن العديد من العمارات تدبير محولات كهربائية تستخدمها، من آن لآخر، بسبب الشلّل المتعاقب الذي استحكم في مرافق الطّاقة، والهاتف، والمياه، خلال سنين الحرب المعلومة، حتى التاريخ السابق بشهرين لصعود «أ. دهره»، ثانية، إلى عمارة «أبي كيره». غير أن الرجل الشاحب أشار إلى خصيتيه، على نحوٍ مازح، ثم استرسل بيده فأمسك بهما وسط فخذيه:

ـ هنا المضخة الكهربائية..

وضحك حين رأى بعض الاستحياء على ملامح «أ. دهره»، مردفاً:

ـ لماذا نحتاج إلى مضخة والتيار لم ينقطع؟

ولما لمح عينَي «أ. دهره» الغائبتين برغم تحديقهما فيه، حاول إبداء شهامة مُخْتَصرة:

ـ لا عليك. كلنا إخوة. قَسِّطْ بدَل الشهرين على سنة. كل شهر إدفع عشر ليرات زائدة. ها؟

وصفق بيديه، ثم عقدهما، كفّاً إلى كفّ، كمن أنهى مُشْكِلاً مستعصياً، مضيفاً، في استطراد:

ـ «سألوا عنك اليوم»، وأشار برأسه يميناً، فالتفت «أ. دهره» تلقائياً إلى حيث أشار الشاحب، فاصطدمت عيناه بالحائط الأبيض، فاستدرك متسائلاً:

ـ من تقصد؟

ـ «أهلك»، ردّ الشاحب: فندّت همسةُ استغراب من بين شفتي «أ. دهره»:

ـ «أهلي؟»، وأعقبها برفع كتفيه: «أهلي؟»، وأرخى فكّه كأن في الأمر

سوء فهم مضحك. ولما وجدَ وجهَ الرجل الشاحب على هيئة جادة، ردّد: «أهلي؟؟»، واستوضح: «أين هم؟». ثم ابتسم، فابتسم الرجل الشاحب أيضاً، وقد أمال عنقه في تطلُّعٍ مازح:

ـ «ربما هربوا»، وسوى عنقه، بعد ذلك، ناظراً إلى عيني «أ. دهر» مباشرة:

ـ صارحني، أأنتم متخاصمون؟

فتفرّس فيه الأخير: «أنا وأهلي؟»، وأردف دون انتظار جواب:

ـ وماذا تنتظر من أناس على بُعْدٍ كهذا؟

ثم أطرق، كأنما الرجل الشاحب على علم بالمسافة التي تضمنتها كلماته. بيد أن مالك العمارة أشار بباهم يده اليمنى جنوباً، مختصراً الحوار:

ـ ليسوا بعيدين. لا تقل لي ذلك. سألوا عنك. هم جيرانك. أأنتم متخاصمون؟ أنا مستعد لبذل وساطتي.

فلجم «أ. دهر» ابتسامة ساخرة كادت تصعد من زاويتي فمه إلى خديه، وسأل الرجلَ الشاحبَ: «أين هم؟»، في فضول واضح، فلم يجبه مالك العمارة، بل دار على عقبيه، بعد وقوفٍ استغرقَ المحاورة كلها في الممر الموازي لباب المطبخ، وخرج من شقة «أ. دهر». وإذ صار على بعد خطوتين من العتبة المواجهة للمصعد التفت إلى الداخل، حيث وجه الشاب المتأمل، وأشار إليه:

ـ اتبعني

ثم التفت إلى يمينه فالفى المرأة، ذاتها، واقفة في باب شقتها، كأنها لم تغادر إلى الداخل كلَّ تلك اللحظات، فبادرها، ثانيةً: «كيف حال زوجك؟»، ولم ينتظر جوابها المعتاد، إذ نزل الدرج فتبعه «أ. دهر» بعدما أردف الباب خلفه، وحيّا المرأةَ بدوره: «كيف حال زوجك؟».

على الدرجات، نزولاً في ما يشبه القفز، تتالتْ من خلفهما كلمات المرأة: «مشغول. زوروه مساءً إذا استطعتما»، وأردفتْ جملتَها تلك بلفظة «الباب»، كأنما قصدت أن باب شقة «أ. دهر» لم ينغلق، لأن اصطفاقاً ثانياً علا في ردهة الطبقة السادسة، وترددت كلمة «تمام» مترافقة مع قيامها، هي، بإغلاق

الباب. أما الرجلان فتابعا انحدارهما على الأدراج، حتى وصلا مدخل العمارة، فاستدارا صوب الدرج الذي ينحدر نزولاً إلى القبو. وكان «أ. دهر» يتبع المالك، بطريقة آلية، غير أن حركات الرجل الشاحب كانت تنمّ، في كل برهة، عن دعوة الشاب إلى اللحاق به، وقد غزت وجهه مُسْحةٌ واثقة. وفي النفق المعتم الذي سلكاه، وسط نباح مكتوم يعلو من جهات تختلط على الأذن، سأل «أ. دهر» الرجلَ الشاحب:

ـ لم أفهم إلى أين نحن متجهان؟

فرد الآخر، ماضياً قُدُماً:

ـ إلى العمارة المجاورة. أهلك هناك.

فتوقف الشاب من فوره: «اسمعْ». ولما رأى الشاحبَ متقدّماً، كرّر:

ـ «إسمعْ. أينبغي أن نتوجه إلى العمارة المجاورة من هذا النفق؟»، وأردف: «نستطيع بلوغها من الشارع أيضاً. أليس كذلك؟».

فتمهل الشاحب، وهو يكاد يمتزج بظلام النفق وبالنباح المكتوم، القادم من مسافة ضائعة:

ـ «ألا تريد أن تراهم؟» هَمْهَمَ، فرد «أ. دهر» من فوره:

ـ لا أهل لي في هذا البلد يا صاحبي. أهلي ليسوا هنا. وأنت حيَّرْتني..

فاستدار الشاحب عائداً صوبه:

ـ «ليس أهلي مَنْ سألوا عنك»، قالها ساخراً. «وليسوا أهلي أيضاً» ردّ «أ. دهر» في سخرية مماثلة. فوضع الرجل الشاحب يديه تحت إبطيه، في مواجهة الشاب، بطريقة يُشْتَمُّ منها نفادُ صبرٍ، متمتماً:

ـ أنرجع؟

فأجابه «أ. دهر»:

ـ نرجع بالطبع، إذا كنت مصراً على مزاحك. أهلي في بلد آخر. في بلد آخر.

كنا، نحن الخمسة اللامرئيين، نصغي إلى محاورة محبوكة كهذه، في

مسافة النفق، لكن النباح، الصاعد من مكمن أعمى، ألهانا قليلاً عمّا خوّضنا فيه:

- «أنا راجع» قال «أ. دهر»، فصاح الشاحب:
- «إرجع إذا شئت. ضيّعت وقتي معك». وهمّ بالرجوع من حيث جاء، فاعترضه الشاب:
- أأنت جاد؟ أهلي في العمارة الثانية!!!.
- «انظر» ردّ مالك العمارة، وقد ألوى عنقه متأففاً. واسترسل:
- «كم عمرك؟». ومن غير انتظار لجواب «أ. دهر» رفع يده عالياً:
- عمرك لا يعنيني. أنت في عمر ابني.

وتوقف ملتقطاً نفساً: «أنت في عمر ابني لو تزوّجت قبل..»، وبدأ يعد على أصابع يديه في ظلام النفق المضاء بضوء شاحب، متسرِّب من حيث لا ندري: «لو تزوّجت قبل..» ردّد، فاختلط ما تبقّى من جملته بالنباح الذي اشتد، بغتةً. فشدّ مالك العمارة «أ. دهر» من كم قميصه، وهو ما يزال متمتماً: «تعال»، فانحدر معه الشاب إلى خواء النفق على مهل، وقد عمد إلى التملّص من يد الرجل الشاحب دون أن يحرز نجاحاً.

بعد تقدّمهما خطواتٍ محدودة همهم «أ. دهر»:

- «دع كمّ قميصي. سيتمزق»، فاعتذر الشاحب: «أووه. معذرة. نكاد نصل»، وأرخى أصابعه من كُمّ القميص.

نعم. أرخى أصابعه وعاد يشمها كعادته. وهو يشمها، بحقّ، كلّما لمس شيئاً، في تلقائية متصلة. وهذا ما درجنا على رؤيته مُذ دخل الشاحب إلى ردهة الطبقة السادسة من عمارته: أردف باب المصعد خلفه وشمّ أصابعه. حيّا المرأة الخارجة بربع جذعها من الباب، وشمّ أصابعه. سلّم على «أ. دهر» وشم أصابعه. حك أذنه وهو يحادث الشاب، وشمّ أصابعه. أحكم ربطة عنقه، دون داع، وشمّ أصابعه. ولّما بلغا، هو والشاب، قبو العمارة الأخرى، عبر النفق، رفع أصابعه إلى أنفه قبل أن يهمس:

- «من هنا أفضل»، مشيراً إلى النفق من خلفه. ثم تمتم: «

الشارع..»، وتفرّس في وجه «أ. دهر» مضيفاً: «أكنت تريدنا أن نأتي هذه العمارة من الشارع؟». وهزّ رأسه ساخراً:

- لا مدخل إلى قبوها إلاّ من هنا.

وإذ لمح فضول «أ. دهر»، وهو يتطلع من حوله مستكشفاً ذلك المكان الضيق الشاحب، بادره: «من هنا»، وقرعَ على باب لم يكن يُرى، بسبب تماثـل لون صفيحه الصدىء مع الجدار الصدىء، فرد صوت مختنق، من الداخل، بلغةٍ يعرفها «أ. دهر»: «من هناك؟»، فاجفل الشاب، ثم ارتدّ؛ ثم دار على عقبيه مهرولاً من حيث أتى، نافخاً في ما يشبه الذعر:

- أهلي ليسوا في هذا البلد.

ولم يتوقف في أثناء رجوعه إلاّ برهةً أشعلَ فيها لُفافةً، على عجل، دون التفات إلى الرجل الشاحب الذي جأرّ بغتةً:

- شهران. لي شهران في ذمتك، وأريد بدل الاستئجار الآن.

غير ان «أ. دهر» أكمل انسحابه حتى قبو عمارة «أبي كير»، وصعد الأدراج إلى المدخل، حيث المصعد، فضغط الزّر، وانتظر في توتر واضح، ولمّا جاوره الشاحب، خارجاً من القبو، لم يلتفت إليه. وإذ لمس صاحب العمارة كتفه، ملفتاً نظر الشاب إليه، ومهدّئاً من انفعاله في الوقت ذاته، انتفض «أ. دهر»، وابتعد خطوة:

- ماذا تريد تحديداً؟ أيّ شهرين وأي أهل؟

وركل باب المصعد قبل أن يهمّ بمواجهة الرجل، متحفزاً كأنما سيصفعه. غير أنه جمد قليلاً، ناظراً إلى كفه التي استرعته بالدم الذي صبغها، فمسح بها على الحائط، وتطلع إلى راحتها عسى يجد جرحاً فما وقع على خدش فيها. فمسح بها على الحائط ثانية، تحت بصر الرجل الشاحب، الذي همّ بالصراخ مما يفعله «أ. دهر» من تلطيخ لردهة عمارته. وإذ استوى المصعد نازلاً، فتح الشاب بابه ودخل، فلم يلحق به مالك العمارة، بل همهم وهو يخبط الأرض بحذائه:

- تتنكّر لأهلك!! يا لَكَ..

وكأنما لم يشفِ ذلك غليله، فأردف:

ـ كُلُهُما. كُلِ الشهرين. كُلْ بَدَلَ استئجار الشهرين. كُلِ الشهرين القادمين أيضاً إذا أردتَ.

والوى بعنقه صوب مخرج العمارة ساخراً، فقد أدى ما توجَّبَ عليه كشهم جعل الكلام الرصين، من هذا النوع، شاهداً على حكمة رجل لا يقرأ ولا يكتب. وهو يتباهى، قطعاً، بكونه يقول كلاماً كهذا دون دراية بالكتابة والقراءة. نعم. إلهامٌ شاحب كجلده الشاحب.

. . و «أ. دهر» يمضي صُعُداً في العلبة الحديدية، المضاءة من سقفها، دون أن يرفع بصره عن راحته المدماة من أثر جرح غير معلوم. وهو يقلب راحته، وساعده، وعَضُدَه أيضاً. بل يقلب راحة يده الأخرى، وساعدها، وعَضُدَها أيضاً، ثم ينظر إلى صدره، فبطنه، فساقيه، عسى يقع على جرح يتكشف منه سبب وجود دم على راحته. غير أنه صرف النظر عن الأمر كله حين وصل الطبقة السادسة، فترجل من المصعد، وعَبَرَ الباب الذي فتحه إلى شقته. ثم مضى، في هدوء، إلى الشرفة، فتبعناه، نحن الخمسة بكثافاتنا الملجومة، ملقين بصدورنا، مثله، على الحاجز الحديدي، ناظرين إلى أسفل. لا. بل إلى مسافة أقرب إلى مدى الشرفة ذاتها، حيث السفينة لم تزل على حالها، قبالة مدخل العمارة، والمحاربون يدخنون لفافاتهم على سطحها، وهي لفافات سيسحقونها بأحذيتهم بعد قليل، دون أن يلقوا بأعقابها إلى المياه.

هكذا كانوا يفعلون حين اعتلوا هذه السفينة. لم يكن ينتظرون وصولهم إلى حافاتها، من الضجر، فيلقون بأعقاب لفافاتهم إلى السطح الحديدي، ثم يدعكونها بالأحذية. أما «أ. دهر» فكان يدعك جمرة اللفافة بيده، على السطح ذاك، في الممر الذي شكَّله المحاربون المتمددون، عفوياً، ليفسح بعضهم في المرور لبعض. وكان النسيم الليلي يؤجّج النثارَ الناريَّ ويدحرجه، حين تتفتت جمرة اللفافة، إلى مسافة قليلة قبل أن تخبو. وما من عين نصف مغمضة، أو مفتوحة على وسعها، اكترثت إنْ شبَّت نارٌ، من جراء ذلك، في الملاءات العسكرية المبسوطة مُتَرَاصَّةً على مدى السطح.

عيون كثيرة كانت تنظر إلى أحذيتها، أو إلى السماء، أو المياه، وعينا «أ.

دهر» إلينا: عينان تتفرسان في هيئاتنا، فنظن أن الحقيقة شكلٌ مغلوبٌ على أمر الحقيقة. وأنَّ كلَّ شيء آخر مكرورٌ، حتى هذا الصباح المُشْتَعَل بنفسه أمام سفينة ترسو، فجاءةً، على مقربة من عمارة «أبي كير»، كأنَّ الرصيف كان مهيأً منذ ما لا ندري، وكذلك البحر الذي لم يكن في هذه الجهة قط.

ثمت شبه تماسٍ يتجلى ـ رويداً رويداً، وسط النظرات المتبادلة ـ بيننا وبين «أ. دهر»، على سطح السفينة هذه، التي يلقي نظرة عليها من شرفة الطبقة السادسة، ويتراجع بعد التأمل في يده الملطخة بالدم، كأنما يستدرك شاغلاً صغيراً فاته. ولمّا يصير إلى الباب الخارجي يفتحه، ويخرج بنصفه متجهاً بوجهه صوب باب الجيران، فيرى المرأة ما تزال مطلّة بنصفها. فيبادرها سائلاً:

ـ متى رجعتم؟

فتبتسم، كأنما تنتظر سؤاله: «كم مرة ستكرر ما تقول؟ نحن لم نغادر. أنتَ لم تغادر». وبادرته، من ثم:

ـ لماذا فعلت ذلكَ البارحة؟

فزمّ «أ. دهر» عينيه، مردداً: «البارحة؟ البارحة؟».

أية بارحةٍ تقصد المرأة، وقد وصلت السفينة إلى جوار عمارة «أبي كير» هذا الصباح، ولا فرق إن كان الوقتُ ظهيرةً، الآن، أو أكثر؟. ولأن المحاورة بدت فكاهةً في تصوُّر «أ. دهر»، فقد أخذته حالٌ من عبث رقيق:

«فعلتُ ذلك نكاية بي»، وعقد حاجبيه في دعابة ظاهرة، مُردفاً: «نكاية بالمصعد»، وقهقه: «منذ متى اشتغل مصعد ابليس؟».

ولما ألفى المرأة ممعنة تحديقاً فيه، على نحوٍ مستقرىء، أطرق برهة: «أحقاً كنتم هنا البارحة؟»، فأطرقت المرأة بدورها، هامسة:

ـ ينبغي علينا أن نتذكر أننا كنا هنا.

ـ «وماذا يحصل إذا لم نتذكر أننا كنا هنا؟» ساءلها «أ. دهر»، فهمهمت المرأة:

ـ سنكون في وضعٍ حرج.

ـ «سنكون محرجين ممَّن؟» سألها في نفاد صبر، وأردف: «نحن لم نكن

هنا يا جارتي. ما من أحد كان في هذه العمارة».

فانسلت المرأةُ إلى الداخل حين استوى المصعدُ في ردهة الطبقة السادسة، وكأنها أدركت بغريزتها أن زوجها قادم. وكان زوجها، حقاً، هو الذي دلفَ خارجاً من العلبة الحديدية، فحيّا الشابَّ بإيماءة خرساء، وقرع جرس باب بيته ففتحته امرأته التي لم تكن قد ابتعدت خطوات إلى الداخل، بين برهة إغلاقها البابَ وقدوم زوجها. وقد أغلق «أ. دهر» باب شقته، أيضاً، بعد تلك الإيماءة الخرساء من جاره، ماضياً، في حركته المُعادة، إلى الشرفة ليستطلع السفينة الراسية قبال العمارة، فتتبَّعناه، نحن الخمسة ذوي الكثافات المغلقة، متفكّرين - من جديد - في أمر الشبه البيِّن بيننا وبينه.

إنه لا يشبهنا، يقيناً، إذا تفرَّسنا في تفاصيله. ونحن غير معنيين بعقد مقارنات بين حاجبيه المعقودين، اللذين يخفيان عينيه فلا يُرى غيرُ بؤبؤيها السَّميتلَيْن أبداً، وبين ما لنا. ولا يهمنا أن ننعم النظر في أنفه الأفنى، وفمه المزموم، وكتفيه المرفوعين، وما تبقى من أعضاء مُهْمَلَةٍ على جِذْعٍ مُهْمَلٍ. بل نعني، في التشابه، ذلك الإيغال الأعمى في التكرار. أما التشابه بين الآخرين فقد أُحْكِمَ على نَسَقٍ لا تخطئه بصيرة، ولا تتردّد فيه عين. وبقدرةٍ مّا كان لكل شخص توأمه في عمارة «أبي كير» والعمارات المجاورة. وهو توأمٌ وجِدَ هكذا، في برهةٍ ضائعة من وجود الآخر الحقيقي.

وقد أُشْكِلَ الأمر عليهم، قاطبةً، فنسبوا الأمور إلى الأصول مرة، وإلى الأشباه في كَرَّةٍ أخرى، حتى أن الأشباه التي ظلت، طويلاً، صدى لحركة الأصول، أعلنت عصيانها الخفي على الأشكال الحقيقية، فبدت الأمور متداخلة، عبثية، وهذا ما جعل أم صديق «أ. دهر»، الذي يقطن الطبقة الخامسة، في إحدى الشقق الواقعة إلى جهة الجنوب من العمارة، متذمّرة، أبداً، على سبيل المثال، من سلوك ابنها المنكبّ على الرسم بشكل محموم، دون التفات إليها، وهي القادمة لزيارته من الساحل الشمالي البعيد، بينما كان ابنها الحقيقي يبحث عن عمل في بلد أوروبي.

اشتكت مراراً إلى «أ. دهر»: «ألن يتوقف؟ خاطِبْهُ حماك الله»، فينزل

الشاب إلى الطبقة الخامسة، على الدرج، هاتفاً حتى قبل أن تقع عيناه على باب شقة صديقه، في آخر الممر المعتم:

- «إنها أمك يا حمار»، فلا يردّ المنكبّ على الرسم، الذي وسَّع من رقعة الأقمشة البيضاء الخام، فتوزّعت على كل متر، مشدودة إلى إطارات خشبية ذات ركائز، أو متهدّلة، بينما تناثرت مواسير الألوان الصغيرة، وطاسات التربنتين، في الزوايا، حتى جاوزتِ البابَ إلى الممر الخارجي.

لقد حاولنا، نحن الخمسة، أن ننبّه «أ. دهر» إلى أن ما يراه ليس إلاّ شَبَه صديقه، فلم نفلح. صرخنا. خبطنا الممر بأقدامنا. ركلنا التربنتين، ودعكنا مواسير الألوان حتى انبعجت، فلم نفلح.

حاولنا، بحق، أن ننبه «أ. دهر» إلى الشبيه المنحني بجذعه الطويل على القماش المؤطّر، راسماً كلاباً تعضّ الجدار كأنه لحمٌ حيٌّ. غير أنه لو أصغى قليلاً لسمع النباح ذاته، المنبثق من أساسات عمارة «أبي كير». لكن نفاد صبره كان يلهيه، وهو القادم إلى صديقه بلجاجةِ أمِّ صديقه إذ هي تنفث أسفها، كالعادة، على أبناءٍ هاربين من شبكة أمومتها.

وكان إذا اقترب «أ. دهر» من صاحبه، وقد تتبَّعته الأم اللجوج، وتتبّعناه - نحن، التفت إليه المنكبُّ على الرسم التفاتةً خالية من أي تعبير، محدّقاً فيه كأنما في فراغٍ أبعد من جسد «أ. دهر»، فيحاوره الأخير حواراً لا يبدي الرسّام اكتراثاً له، مكتفياً، بين جملة وأخرى من محدِّثه، بضربة نَزِقة من الفرشاة الطويلة على أفق القماش، كأنما يقاطعه دون كلام، بينما يمضي «أ. دهر» في رسالته الرقيقة كمبعوث من أمّ تقف خطوات على مبعدة منه، منتظرة أن تُسفر الوساطة عن ذراعين مفتوحتين من ابنها، بحسب أعماقها المشغولة أبداً على أن هذا الكائن الخليط من لحم، ودم، ونَزَق، وظل، وحماقة، وكآبة، هو ملكها، بل فلذة لا من كبدها، إنما من إشارة على أمومتها أن تبديها أمام الله فيمتثل الابن برقّةِ الغزال - إن كان غزالاً في عينيها - وبطاعة الطفل إن رأت فيه طفلاً إلى أبدِ عظامها.

غير أن المنكبّ على فراغ القماش، المتأهّب لإغواء اللون في اقتدارٍ

واضح، لم يكن يمتثل لبطش الأمومة في الممرّ، ماضياً بوساطة «أ. دهر» إلى انكسارها على رائحة التربنتين.

على هذا النحـو كانت تُشْكِـلُ الأمـور، كما أسلفنا من ذِكْـر التوائم المتشابهة، والأصول والأشباه. لكن مَثَلاً كمَثَل صديق «أ. دهر» لم يكن شيئاً إذا قورن بالذي فعله شبيه الأعرج، القاطِن الطبقةَ الثانيةَ من عمارة «أبي كير». فقد حضر، بغتةً، صبي في الثامنة من عمره، مدعياً أنه إبن الأعرج. قرع باب بيت الرجل ففتحت امرأته، وهي تحاول إبعاد أولادها الستة، المندفعين من الـداخـل يركلُ أحدهمُ الآخرَ. ولبرهةٍ مّا، كلمحةٍ تحمل تأمُّلاً لم يكن وليد لحظته، تفحّصت أعين الناظرين الفضوليةُ الجسَد الصغير، من رأسه إلى ساقي بنطاله، فبادرهم الصبي مبتسماً:

ـ أين أبي؟

ووسط دَهَشِ العائلة من السؤال الذي بدا موجَّهاً إلى غيرهم، خرج الأعرج من المصعد، متقدّماً من الصبي كأنما هو على موعد معه: «حبيبي»، وفتح ذراعيه، ثم احتضنه، متجهاً بعينيه إلى زوجه وأولاده:

ـ «ألا تعرفونه؟»، ومضى به إلى داخل الشقة، بعدما فتحت العائلة ممرّاً لهما بين أجسادها القلقة.

كانت تلك لعبة صغيرة لأحد الأشباه ذلك اليوم، الذي تساقطت فيه خمس قذائف فقط، على ضواحي المدينة. وخمس قذائف لا يؤبه لها، في تاريخ أحْكَمَ على نفسـه رتـاجاً من لحمٍ آدميٍّ، حتى أن الناس بدت مطمئنّةً إلى مسـتقبلها، فخرجت من الملاجىء تتمرّن على التنـفُّس، والتأمّل المرح في أسلاك الكهرباء المقطوعة، والشرفات المنهارة، والذباب الأزرق المنتشر عقب العفن الذي أصاب ما تحويه برادات الدكاكين المغلقة من أثر الانقطاع الطويل للكهرباء.

نعم. مضى شبيهُ الأعرج بالصبيّ إلى الداخل، فلم نتتبّع تفاصيل ما جرى هناك، لأن «أ. دهر» رَكَل، بغتة، إحدى لوحات صديقه المنصوبة على عارضين خشبيين، ليس في الوقت الذي كان شبيه صديقه منكبّاً على الرسم،

وهو يجاهد للقيام بوساطة بين الرسام وبين أمه، بل في وقت آخر لم تكن المدينة فيه على موعد إلاّ مع خمس قذائف، قتلت اثنين، فبدت الناس مطمئنّةً إلى مستقبلها، وقد تعودت أن يجاوز الرقم، في العادة، مائة قتيل، ومائة وثلاثة جرحى. والثـلاثـة المضافون إلى المائة زيادةٌ معهودة دلالة على فكاهة ينبغي التشبث بها. على أية حال، ما ركَلَهُ «أ. دهر» كان رَسْماً يمثّـله هو، وقد تدلَّت من لحمـه العـاري مفاتيح شتى: كبيرة وصغيرة، صدئة وذهبية؛ بينما بدت حدقتاه سائلتين كأنما فُقِئتا. وفي ثورته تلك لم يكن من حوله أحد: نعني صديقه أو شبيه صديقـه، ما خلا صاحب العمارة الشاحب، الذي حدق في الممر، حيث اللوحـات المنصوبـة في فوضى على دعائم، فزمَّ عينيه مستجلياً ذلك الصخبَ في ظل الرواق المعتم، ثم جاوزه إلى ما تناهى إليه من الطبقة الثانية:

ـ «أنت كلب». ذلك ما كانت تقوله المرأة لشبيه زوجها، وكان الشبيه يصرخ:

ـ لا تستحقين أولادي.

نعم. شهدنا ـ نحن الخمسة ذوي الكثافات الملولة ـ ذلك، وشهدنا دخـول الأعرج الحقيقيّ إلى الطبقة الثانية، إثرَ مصادفةٍ رتَّبت خروجَ شبيهه بدقائق. والمصادفة تلك مُبرَمة على نحوٍ صارم، فلا يحصل أن يتقابل الشبيه والأصل في مكان واحد قط. ويحصل، بعامّةٍ، أن يَنكر الشخص الأصل فِعل الشبيه حين يُسْـأل، لذا تتكـرر الإشكـالات بين قاطني العـمارات. غير أن الأعرج، حين دخل ردهة الطبقة الثانية، وألفى عائلته متجمهرة خارج باب الشقة، بعدمـا واكبتْ شبيهَـهُ الخارجَ بنظراتٍ مستغربة، لم يسألها عن وقوفها ذاك، بل مضى داخـلاً وهـو يتـمايل بسبب ساقـه القصيرة. وإذ حاذى ابنَهُ المزعومَ، الواقف وسط أولاده الآخرين، احتضن رأسه، جانبياً، هامساً: «إنهم يحبونك»، كأنما يُطمْئِن نفسَـه لا الصبيَّ. ولما استدارت زوجه صوبه، في عصبيةٍ قلقةٍ، أمسك بيدها رافعاً سبّابته إلى شفتيه: «اسكتي».

«اسكتي». هذا ما قاله ، فأشْكَلَ الأمر علينا، لأنها المرة الأولى التي نعهـد الشخص الأصل يتبنّى أفعال الشبيه، حين أخذ الأعرج على عاتقه،

بطريقة مرسومة، أن يكون ذلك العصبي من صلبه.

نعم. «أنت كلب»، ذلك ما سمعه «أ. دهر» وصاحب العمارة الشاحب، معاً، فنسي الأخير، لبرهة، أن يسأل الشابَ عن بَدَل الشهرين المزعومين، ثم نطق الكلمات ذاتها، للمرأة اللامعلومة:

- متى ستدفع لي؟

فأجابه «أ. دهر» للمرأة اللامعلومة: «أدفع ماذا؟»، ثم رفع صوته في تأكيدٍ مُحْزِنٍ:

- لم نكن هنا. ما من أحد كان هنا.

ولمّا أدرك عقم المحاولة هدأ على مضض: «ألا يمكن تقسيط المبلغ؟» قالها للشاحب الذي فاجأه: «استمعْ»، فأصغى «أ. دهر» إلى النباح يتصاعد من الأساسات، رويداً رويداً، جارفاً صراخ المرأة التي تشتمُ زوجَها في الطبقة الثانية.

لقد أضحى ذلك النباح جزءاً من المكان؛ جزءاً مكمِّلاً للأنين الصادر عن باب المصعد، ولاصطفاق الأبواب من العصبية التي ورَّثتها الحرب للأيدي، وللصراخ - أيضاً - الذي يشْعل الخناجر في أوقاتٍ لا تحتاج الخناجر فيه إلى مِرَانٍ، وللريح إذ تنحدر الدرجات إلى مدخل العمارة، ومن ثم تنزلق على الدرجات المفضية إلى القبو، فتطلق صفيراً خافتاً في النفق الذي يصل عمارة «أبي كير» بالعمارة المجاورة، التي قاد الرجلُ الشاحبُ «أ. دهر» إليها للقاء أهله.

نعم. حاول «أ. دهر» أن يسلك ذلك النفق، مرَّةً، بمفرده، لا متعقِّباً النباحَ الملتصق بجدران النفق كرطوبةٍ ما، بل الصوت الذي سمعه صادراً من وراء باب في آخر الظلام لمّا قرعه صاحب العمارة، حين تجوَّلا معاً، وكان شبيهاً بصوت أبيه. وقد حاذر أن يلمس الجدران بأيٍّ من يديه، مذ استرعى بصره السائل القرمزي النافر كحُبيبات عرق، تحت ضوءِ مصباح اليد الشاحب ببطاريتيه المستعملتين طويلاً. غير أنه لم يقع على الباب ذاته في نهاية الممر.

كنا نعرف أنه لن يهتدي إلى الباب ذاته في الظلام الذي قادهُ مالك

العمارة إليه، بحثاً عن عائلته. وقد اقتضى منه الأمر أن يقرع الجدران كلها، برغم حذره، في البداية، من ملامستها، حتى لا تتلطخ يداه بالدم الصاعد من مكمنٍ لا يدريه إلى المسام الإسمنتية. وبرهة بعد أخرى بات يقرعها باليدين معاً، ثم بالذراعين، من المرفقين إلى الأصابع المفرودة كأجنحة بلا ريش؛ وبصدره بعدئذ، وبقدميه، رافعاً صراخه المختنق: «أبي. أبي» بشفتين انزلقتا عن وجهه الشمعي في ضوء مصباحه الذي ثبَّته تحت حزامه، لصق معدته، وزجاجَتُهُ المضيء إلى أعلى، فبدا أصفرَ، ضائع الملامح بالظلال المرتسمة من ذقنه على فمه، ومن شفتيه على منخريه، ومن عرنين أنفه على منتصف حاجبيه، حتى اختلطت القَسَمات، وبانت الأخاديد الرقيقة أكثر عمقاً، متَّصلة، كأنما هي جزء عابث من ظلام النفق الكثيف.

كدنا نقول له، بكثافاتنا، إن المسألة أهْوَن من أساهُ الباذخ في صراخه ذاك، ولا يحتاج الأمر إلى قرع على الجدار بثقل أعضائه في ذلك الجسد الناحل. فالحكاية هي أن يدفع الجدارَ دفعاً خفيفاً، لا أكثر. وقد أشرفنا أن نهمس: «إدفعْ. إدفعِ الجدارَ». والجدار تحت يديه اللتين تنزلقان على الدم. «إدفعْ» نقولها صارخين فلا يصله صراخنا. «إدفعْ» ونضرب بأقدامنا أرضَ النفق، فينبعث النباح الكئيب من كل مكان. وإذ نتعب من ذلك نترك الأمر لتدبير «أ. دهر» الحائر في حركاته. غير أن تقديرنا لا يطول، فإذا بـ «أ. دهر» يدفع جدارين متقابلين، في النفق، وقد تكشَّف الشرقي منهما - بانهياره - على الميناء الذي انوجد، فجاءة، قبالة عمارة «أبي كير». وكان في المستطاع، من الثغرة تلك، رؤية حيزوم السفينة الحديدي، بلونه الأخضر المسودّ في المياه، وسماع حوارات المحاربين على السطح الذي لا يُرى. أما الجدار الغربي فانكشف - بانهياره أيضاً - على مدىً يشبه اللحم العاري: أرضٌ انبسطت كألياف عضلية، وآثارُ خطواتٍ حمراء من دمٍ، وموجٌ على مبعدة أمتار يترجرج في مكانه مثل صدر يتنفس عميقاً. وبرهة بعد برهة توافد أناس مهمومون من وراء أكمات ارتفعت - هنا وهناك - على أشكال رئات وأكباد ضخمة. وكانوا، في تقدّمهم من «أ. دهر» يشكلون حلقات متنافرة، دون أن ينظروا إليه، ثم

يجلسون القرفصاء على الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دموياً)، منهمكين في قرع الأرض الوردية اللون كلحم طازجٍ بالأنامل، كأنما يتخاطبون، بينما ألقى شفق ما بظلالٍ شفيفة من نثارٍ ذهبيّ على المكان.

في هدوء وقف «أ. دهره» يتأمل تلك الأنامل في قرعها الرتيب على المكان الرّخو، واضعاً يديه في جيبي بنطاله، ثم استدار بوجه خالٍ من أي تعبير صوب الثغرة التي تقدّم منها، هامّاً بالرجوع، فألفى مالك العمارة الشاحب واقفاً في مدخل الجدار المركوم، ببزته البيضاء ذاتها، وكتفيه المرفوعين على نحو مُتْعَب.

إنه مكان لا يليق بهدوءٍ كهذا الذي يلفّ الاثنين، بل يلف أعماقهما، وهما يسمعان الطنين الغريب لأنفاس الجالسين على الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دموياً)، كأنما تتقاطع في رئاتهم أصواتُ آلات تدار باليد. غير أنهما أمعنا النظرَ أحدُهما في الآخر، وابتسما ابتسامة العارفِ بالذي جذبَ كلاً منهما إلى ثغرة الجدار. بعد ذلك تقدّما حتى كاد مقدّم حذاء الشاب يلمس حذاء الرجل الشاحب، فتوقفا.

- «إذن..» قالها الشاحب، فرد «أ. دهره»:

- نعم.

ثم نظرا، مَعاً، إلى الجمع الجالس حلقاتٍ متنافرة على الرمل الدموي، مُهَمْهِمَيْن:

- نعم. إنهم في هذه الجهة.

ثم عادا فابتسما الابتسامة ذاتها، ناظريْن إلى الحلقات البشرية في المدى المضاء بشفق مَا، يلقي بظلاله الذهبية الموحشة على المكان. ومن دون أن يلتفت مالك العمارة إلى «أ. دهره» الواقف على شبر منه، مستديراً إليه بظهره، تمتم:

- قبلتُ.

فإستدار إليه الشاب بعنقه فقط:

- قبلت ماذا؟

فلم يرفع الرجل الشاحب عينيه عن مستوى كتف الشاب، محدقاً في الحلقات الأبعد لبشر جالسين على الرمل الدموي:

- بدل أجرة البيت. قصدي أن تقسِّط الشهرين..

فازورّ الشاب عنه بوجهه بعدما كان ملتفتاً إليه بعنقه فقط، ناظراً بدوره إلى الحلقات البشرية المتناثرة:

- ظننتُ أننا اتّفقنا على ذلك.

وتقدم، بغتةً، إلى أمام، كمن يتجول في حديقة بيته، وأشار بيده اليسرى إلى الجالسين، بحركة متدرِّجة من يمينه إلى شماله: «هؤلاء..»، ثم أخفض ذراعه ليضع يده في جيب بنطاله:

- من سيأخذ منهم بدل استئجار المكان؟

فأجابه الشاحب من خلفه، في إستغراب:

- أيأخذون منهم بدل استئجار هنا؟

فانتفض «أ. دهره» ملتفتاً إليه، بادي الجهد في تخفيف صرخة تكاد تخرج ملء فمه:

- ولماذا تأخذ بدل إستئجار على شقق عمارتك؟

ولأول مرة صعد الرجل الشاحب ببصره من كتف «أ. دهره» إلى وجهه، بعينين تتلمسان يقيناً مّا:

- كيف تساوي بين عمارتي وبين هذا المكان؟

إذ ذاك رفع الشاب حاجب عينه اليسرى في سخرية ظاهرة: «أعمارتك أجمل؟»، فرد الشاحب: «لا» في استنكار، مضيفاً:

- «ما هذه المقارنة؟ هؤلاء موتى، وأنتم أحياء»، مشيراً بيده اليمنى صوب جهة النفق الشمالية، حيث عمارته، وهو يعني قاطنيها بالطبع. وحدّق في الشاب: «أنتم. أنتم» مكرّراً الكلمة، كأنما يأسف على تأجير الشقق لهم، فاحتدم «أ. دهره»:

- «أهذه شقق؟ هذه أحذية». وتقدم من الرجل:

- أنت بلا أصل مثل مصعدك المعطل دائماً. أنت بلا أصل مثل الكهرباء المتقطعة في عماراتك. أنت ابن قحبة.

فتجمد الرجل الشاحب من المباغتة الصارخة لشتائم الشاب، ثم هَدَّلَ كتفيه، وأطرق:

ـ «إسمعْ. انت مؤدّب. أعرفك مؤدّباً»، وأرسل عينيه إلى عينَي «أ. دهر» : « لماذا تشتمني؟»، رافعاً يده اليسرى مقاطعاً كلاماً لم يقله الشاب: « اشتمْني. لا بأس»، واغضى ثانيةً: « صدري رحب»، قالها في هدوء متكلّف برشح تملّقاً: « لماذا أنت محتدّ؟». فأغضى « أ. دهر» دون أن يبارحه اغتلاءُ أعماقه، والتفت من جديد إلى الحلقات البشرية التي نهضت في تسلسل هندسيّ. قائلاً:

ـ لم تكن هنا. أنت تعرف. شهران وعمارتك خالية. أنت تعرف. عمارتك لا تستأهل السكن على كل حال.

وعض على طرف شفته السفلى:

ـ أين كنتَ أنت؟ مختبئاً في قبر؟. ألم تر الشارع الشرقي، الذي يمرّ بالمسجد هناك؟

وابتسم مشفقاً على أنقاض الأبنية التي أشار إليها، وقد مسحتها غارات الطيران في أواخر أيام تلك الحرب الذهبية: « طارت. طارت» قالها « أ. دهر» مخفّضاً نبرة صوته:

ـ «شهران وعمارتك خالية. شهران والشارع هذا خالٍ، والشارع ذاك، والمسجد الذي طار، والمئذنة التي هوت فوق مدفع الهاون، على السطح». وضحك: « كان الصدى قوياً قوياً على سطح المسجد لمّا يطلقون القذيفة من هناك».

كان على «أ. دهر» ان يتراجع إلى عمر شفته حين يصعد محاربو المحَلّة بمدفع الهاون إلى سطح المسجد. فالقذيفة، التي تنطلق بدويٍّ يملأ قفلَ بابه بالرنين، تجلبُ، على نحوٍ مدروس، قذيفة من جهة المدينة الشرقية. هكذا. قذيفة بقذيفة، وقتيل بقتيل. وإذ تتدخل جهات ثالثة، من أمم كثيرة دخلت المدينة بمواثيق اتفق عليها الخاسرون قبل الرابحين، بمدافعها، كأنها تمسك إلى الأبد بزمام المصير المشتعل، كان على قتلى كثيرين أن ينتسبوا إلى هذه الجهة

مرة، أو إلى تلك الجهة كَرّةً أخرى، بحسب ما يترجّح من كفتي الميزان. أيْ، تحديداً، ما من غَلَبة إلّا للموت. أما إنتصار الأحياء فمؤجّل بنعمة الإرث الهائل من غدٍ مهزومٍ سَيَلي غَدَه المهزوم، في تعاقب هندسي، حتى يومكم هذا، أو ذاك.

نعم. قال « أ. دهر» للرجل الشاحب: « كان الصدى قوياً»، فوافقه مالك العمارة بهزّة من رأسه، ونطق متأففاً: « ما من شيء يُغري إلّا بالموت». فردّد الشاب كلمة «الموت» رافعاً حاجبيه:

ـ « ألست سعيداً؟»، قالها، فأجابه الشاحب:

ـ سعيد بِمَ؟ لا صحةَ. لا نساء.

فردّد الشاب كلمة «نساء» في مرح: « نساء. آه. الا ينفع مالُك؟»، وغمزَ صاحبَ العمارة، فأغضى الشاحب في أسى لا يخلو من إفتعال، هامساً: « تباً للمال». فاستدرك «أ. دهر» أمراً يدغدغ مرارته: « ولماذا تسألني بدل ايجار الشهرين، إذاً؟».

حين سأل الشابُ سؤاله ذاك انتفض الشاحبُ المصاب بالسّكّري:

ـ لأنني لم أمت بعد. أنا لم أمت.

فطأطأ « أ. دهر» ضجراً من المحاورة، ثم التفت إلى الحلقات البشرية في مدى الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دموياً)، فإذا به يشبهنا ـ نحن الخمسة اللامرئيين ـ في تلك اللحظة، بثيابه الفضفاضة المتهدّلة على جسده الناحل، وهو يلتفتُ ضجران من أن يرى؛ ضجران من محاورة الشاحب، ومن أعماقه، معاً. ضجران من وجوده في المستوى ذاته الذي يصل البحرَ ـ إذْ تفتّق عنه الصباح، بغتةً، قبالَ عمارة «أبي كير» ـ باليابسة الدموية، حيث الحلقات المتقاربة هياكل أناس جالسين، لا ينتظرون شيئاً، ولا يُقْدِمون على شيء، حتى بدت جملة صاحب العمارة « هؤلاء موتى» أقربَ إلى حصر الوصف.

كانوا موتى. كانوا موتى المصادفات. فإن سأل أحدُنا الآخر: « مَنْ موتى المصادفات؟» ـ وهو سؤال لسنا حريّيْنْ بطرحه إلّا افتراضاً ـ لَرَفَعَ كتفيه مُشفِقاً من مغزى السؤال الساخر في ظاهر، فالكل يموت مصادفةً: بسكتة

قلبية. بطلقة. برفسة حمار. سقوط من شُرفة، بمؤامرة من الأقربين. بيأس ينمِّيه الشخصُ ذاته كلبلاب يتسلق السياج. لكن هؤلاء موتى مصادفات بفارق صغير عن المصادفات الأخرى. وهم، بعامّة، من قتلى القصف، الذين لم يتنكّروا في الموت، في بُرهات اشتعال المدينة كجحيم يهيّئ ذاته على نحوٍ يليق باسمه.

كثيرون لجأوا إلى ما يقيهم ذلكَ الومضَ المُصاحبَ بِنثارٍ حديديٍّ قاتل. كثيرون توجّسوا الصمتَ الذي يتقدمُ القصفَ فاحتاطوا. كثيرون شمُّوا صباحات المدينة فَضَلّلوا المرتَ المُفْتَضَحَ في تعقُّبه الغافلين.

كان الموت كغيره من المحاربين الذين احتاطوا لكل شيء، فبدوا مدجَّجين ـ في هذا الطرف أو في ذاك، وفي الاستراحات القصيرة أيضاً ـ بأسلحة تتفاوت بين قنابلَ يدوية تصيب جَمْعاً، ومسدسات تصيب أفراداً، وبنادق آلية للجمع بين المفرد والعديد، وربما ـ في بعض الأحيان ـ بآلات ذات صوتٍ مكتوم، لا تريد إجفالَ المارّة، أو النائمين، في تهذيب ولياقة يفيضان بكَرَمِها. نعم. هكذا احتاط الموت، بدوره، لمَا يؤهِّله نقيضاً للترف الحيِّ الذي يفتقدُهُ الضائع.

.. وما الذي تحوجُهُ المدينةَ هذه غير التشويق؟ بدأت حربها بكلام عن خوف الأقوياء من الضعفاء، وبخوف الشرقيين من الانتساب إلى شرقهم. ثم امتد الأمر إلى أن يقطع المقيمون في شرقي المدينة الأعضاء التناسليَّة لمواطنيهم المقيمين في غربيِّها، إذا اشتبهوا فيهم، على نحوٍ اعتباطيّ. وتطوّر التشويق المُعَدُّ بطريقة حسابية، يوماً بعد آخر، إلى الخطفِ على الهوية، بحسب اللفظ الأعجمي، أو العربي، للأسماء. ولمّا وفُوا الفكاهات الصغيرة هذه حقَّها عمدوا إلى قصفٍ عشوائي ـ من تلك الجهة أولاً، فجارتُها هذه الجهة تالياً ـ على كل مكان، حتى المسابح الشعبية في الجهتين، والمقابر، والحدائق الخالية، والشطوط الصخرية التي لا يؤمُّها إلّا الصيادون، وكذلك ثكنات الجيش قبل أن ينقسم بعضه على بعض، وبعد إنقسامه. وطاول القصف، من الجهتين، أيضاً، الأسواق المكشوفة لبيع الخضار، في ترتيبٍ كَمَنٌ ينصب فخّاً لفأر:

يحجِمون عن إطلاق القذائف يوماً، فتهرع الناس لشراء الخضار، فينهمر المطر الناريّ، بغتةً، فتطير العربات الخشبية، وتختلط الأقدام المبتورة بالخسّ وبالفجل، أما الأحذية الممزّقة فتبقى رهنَ مصوّري الصحافة المنكوبين بازدياد أشغالهم، حتى أن بعضهم يختفي في هذه الجهة من المدينة، على أثر تصوير متراس مهجور. ويختفي البعض الأخر في تلك الجهة، بسبب تصوير عمود كهرباء ممزّق.

وتطورت أساليب التشويق، من ثَمّ، فتدخلت الدولة ـ باستخباراتها المدنية والعسكرية، قبل خروج الدولة على القانون، وخروج القانون على الدولة، شُرَطيّاً شُرَطيّاً ـ على خطوط المتحاربين المدروسة، نَسْفاً في شرق المدينة ونَسْفاً في غربها؛ تأليباً لهذا على ذاك بطلقة من هذه الجهة أو تلك، وخطفاً هنا أو هناك، ليبلغ الهياجُ مرتبةَ الشيطانية.

أكلوا الدولة فأكلتهم الدولة. واختلط الأكل، والقضم، والعضّ الخفيف، والخشن، وترتيب الخوازيق، بعدئذ، حتى بدا الكلُّ متجانساً في لعبته، مع غَلَبة خفيفة لهذا الطرف أحياناً، وغَلَبة خفيفة لذاك الطرف في أحيان أخرى، وخسارة دائمة ـ بالطبع ـ للأرواح المتجولة في الجهتين، على شكل لحم وإسمنت ومياه (قذائف كثيرة أصابت البحر وفق إحداثياتٍ مُحْكَمَة).

غير أن التشويق المرسوم في تصاعده لم يتوقف عند هذا الحد، فانقسمت المدينة شطرين: شرقها ضد غربها. نعم. ارتفعت المتاريس الرملية الهائلة في الجانبين المتقابلين، ومَن أعيته الحيلة في إقامة متراس، بأسرع ما يمكن، لَغَمَ عمارةً فأسقطها لِسَدِّ الرؤية على قنّاصة هذه الجهة، أو قنّاصة تلك الجهة. وتَبَلْبَل التشويق، من ثَمّ، فاختلطت هندسته، فإذا بالشطر الواحد من المدينة يرتسم على شكل وسطٍ تجاريّ، وضواحٍ بحسب طوائف ذلك الشطر. وإذا الوسطُ ينقسم شوارعَ شوارعَ، والشوارعُ إلى أزقّةٍ وزواريب، والزواريبُ إلى عمارات، والعماراتُ طوابقَ وشققاً متجاورة، ينظر قاطنوها بعضهم إلى بعض في غضب، يتحدّى الواحد منهم هويةَ الآخر الحزبية المرتسمة على جبينه.

وتشظّى الواقع، بعدئذ، فخرج الكلُّ على الكل: الحديدُ على العمارات، والمواسير على الأرصفة، وأسلاك الكهرباء على الريح، والمقابر على الحدائق، والرغيف على الجوعى، والماء على المضخّات، والشكل الأنيق على جوهره الأنيق. أما الشعارات، التي انبثقت على أطراف المتاريس المتجدّدة كل عام، فلا تسل عنها: إنشقاقات أودتْ بنصفها، أو بكلِّها. ووقفت الأحزاب، ذات الرئة الواحدة، متقابلة كأزرار السترة العسكرية، بسلاح إلى أمام، وسلاح إلى وراء. وتدرَّجت الطّروحات من قومية مغالية إلى ما ييسِّرُه الله؛ ومن أممية مغالية إلى ما ييسِّرُه القوميُّ، أو ما ييسِّرُه الله؛ ومن إقليمية إلى ما تيسِّرُه قوات الأمم المتحدة؛ ومن طائفيّةٍ ناهضةٍ، تواً، إلى ما تيسِّرُه الإشتراكية؛ ومن اللغة إلى الفراغ الصامت؛ ومن الكلمة الواحدة إلى الحرف؛ ومن قارىء الحرف إلى الأمّيّ.

وتدرَّجت الأسلحة، بالطبع، في أثناء ما كان يسري من هذا كلّه، متواقتةً شعاراً خفيفاً بسلاح خفيف، وشعاراً وسطاً بسلاح وسط، وشعاراً ثقيلاً بسلاح ثقيل، صعوداً أو نزولاً بحسب الأحوال الإقليمية، والدولية، كما زعم المفكرون في الأقبية التي لا يطاولها القصفُ المتجدِّد أخاً عن أخٍ، وأختاً عن أختٍ. ثم اكتسى الهواء فوق شطري العاصمة صفيراً تُعْرَفُ هُويته به: هذا هواء «غراد» (إذا اختضَّ الهواء، وتخلخلَ وتَفَارَقَ، والتحمَ على فحيح مرعب. وصاروخ «غراد» هو الأثقل بحسب ما يتجادلون). هذا هواء «هاون» (إذا طاول الصدى المترجرجُ مداخل العمارات، وتسلَّق الأدراجَ إلى عظام الأحياء المتكوّمين في ممرّات شققهم).

نعم. كان «أ. دهره» يشتم كلما عكَّر جلوسَه في ممر بيته صاروخ «غراد»، أو قذيفة «هاون»، في الأيام التي سبقت الانقطاع الكبير للكهرباء، حتى انهيار عمارة «أبي كيره». كان يشتم التلفاز الموضوع في ركن الممر الشمالي، قرب باب الحمام، بينما يستند على ذراعه، وقد قطع الممرَّ بجلدعه عَرْضاً، ثانياً ركبتيه إلى جهة صدره. وعروض التلفاز ذاك تتدرَّج، في تدبير ثقيل، بين مسلسلات محلية غارقة في أخلاق لا تخاطب أحداً قط، وبين مسلسلات أجنبية

تُعاد الحلقة الواحدة منها عشرين مرة سهواً، دون اعتذار أحد قط. أما ما تبقّى من وقتٍ للعرض، على الشاشة الصغيرة، فكان حُكْراً على مذيعات تظهرن بعد خبرٍ عن مقتل مائة، بكامل حليّهنّ، ثم يبدّلن تسريحات شعورهن أثر استبدال الواحدة بالأخرى، لبرهة، ريثما يُذاعُ خبر مقتل مائة آخرين، بإنفجار سيارة ملغومة، أو بنسف عمارة يُقْصَدُ منه تهديد دولة لا سفارة لها في البلد هذا.

«كلهم موتى»، قالها «أ. دهره ساخراً، وهو يلتفت إلى الحلقات البشرية المتكوّمة على الرمل الدموي، شرقاً، وأردف: «كلنا موتى»، في الآن الذي كان الرجل الشاحب يهمُّ فيه بمغادرة النفق، إثر ترديده لكلمة «لم أمت بعد»، فتوقف صاحب العمارة متطلعاً إلى الشاب، وقد ضيَّق ما بين جفونه كمن يتشوَّفُ خيالاً بعيداً:

- أريد إيجار الشهرين حتى لو كنتَ ميتاً.

فتمتم «أ. دهره»: «سأدفع لك عن أربعة أشهر»، وهو يتلمس مكاناً قرب أنقاض الجدار، ثم جلس على الأرض، مطوِّقاً ركبتيه المطويتين بذراعيه، في لا مبالاة صارخة. وتمتم ثانيةً: «سأدفع لك عن سنة، سأدفع لك عن بقية موتك، وعن موت زوجك أيضاً».

كنا ندرك، نحن الخمسة اللامرئيين، ما الذي رمى إليه «أ. دهره بذِكْرِ زوج صاحب العمارة، التي شككت طويلاً في رجولة الشاحب (هذا ما أذاعته على نحوٍ أكيد، فردّده الكل إلا الذين يقطنون عمارته، خشية رفْع بَدَلات الايجار). وقد إختطفتها قذيفة، ذات يوم، قطعة قطعة، أمام غرفة نومها، في الـدُّسكرة التي تقطنها مع زوجها، والخادمِ السمراء القادمة من شرق بعيد، أسفل الهضبة المشرفة على الساحل جنوباً. وكان الشاحب، إذ ذاك، يساعد الخادم في تقطيع عجين الخبز الخاص بمرضى السكّري، في المطبخ المزوَّد بفرن لا تملكه العامة.

نعم. طارت زوجُ مالك العمارة عضواً عضواً، فيما استلقى، هو، فوق المرأة السمراء، إثر انفجار القذيفة، فغطاهما بعض الطحين، وبعض الغبار. وقد بقيا طويلاً على النحو ذاك، مستلقيْن أحدهما فوق الآخر، بعد دفن القتيلة

بأيام، وكان يصرخ: «موتي. موتي»، ناظراً إلى شبح امرأته الذي يتخطّر قرب السرير، في غرفة النوم ذاتها، التي سرقتها القذيفةُ منها، كأنما ينتقم لفحولته وهو يواقعُ الخادمَ، أكثرَ شحوباً بفعل التعب، والعَرَق الملتمع على بشرته المُعْتمة. وكان شبح القتيلة يبادله، في مروره، ابتسامةَ الشك ذاتها في فحولته، وهو يعرجُ، لأن جامعي أشلاءَها المرتبكين نسوا قدمها بين أوراق اللبلاب الجافة، الذي صعد السور الشرقي.

في اللحظة تلك بوغتَ الرجل الشاحب من كلمات الشاب، فأحجم عن مغادرة النفق، عائداً خطواتٍ إلى حيث «أ. دهر» وقد اقتعدَ الأرض المفروشة بحطام الجدار، صارخاً في اختناق:

ـ «لا تشتمها. أعني ما أقول»، رافعاً سبابته إلى فمه مهدّداً، فلم يُعره الشاب أيّ التفاتٍ، باقياً على حالـهِ في تطويق ركبتيه بذراعيه. ولمّا اقترب صاحب العمارة أكثر، غامراً جانب الشاب الأيمن بظله الطويل، إختفى ما كان يتفوّه به، بعد ذلك، في اللغط الموحش الذي ارتفع، قليلاً قليلاً، من صوب الحلقات البشرية الجالسة على الرمل الدموي. ثم قامت الحلقات، فجاءة، متواجهةً، كأنما تتواعد الواحدةُ الأخرى، فقام «أ. دهر» بدوره.

لقد أربكَنا أن ما يتفوّه به موتى المصادفات يستعصي على فهمْنا، وحيّرنا أن الرجل الشاحب والشاب يصغيان إلى المجادلة الصاخبة بين الحلقات البشرية، هناك، ويهزان برأسيهما موافقين، أو يتذمران، ممّا يجعلنا نقترب أكثر من أولئك القتلى، فأدركناهم يتخاصمون في اختيار القضاة.

كانوا على أهبة المرافعة عن ميتاتهم. وكان واحدُهم إذا شَهِدَ الآخرَ ليدعم كلامه خذلَهُ الآخرُ مرافعاً عن نفسه فقط، حتى انقسمت الحلقة الواحدة على كيانها، فتنافرَ المجتمعون، مهدِّدِيْنَ، قبل أن تُعْقد محاكمات أو ما يشبه محاكماتٍ. ثم تواجهوا خبطَ عشواء، رافعاً، كلُّ شخصٍ إلى من يواجهه، في كفّيه، الشظايا التي قتلته، كأنما تجري مقارناتٌ، وحسابُ فروقٍ في الأوزان. وكان الذين أصابهم كثير من ذلك المعدن المُتشَظّي يكوّمون بين أرجلهم ما لا يقدرون على حمله بالأيدي، حتى أن بعضهم حمل الشظايا

الكبيرة بين أسنانه، فبدا مضحكاً، وهو يجاهد، بكل عضلة في وجهة، للاحتفاظ بها معلّقةً. وكان واحدهم، إذا أعيته حجّته، وبراهينه من الشظايا المعدنية، ضرب الرمل بعقب قدمه، فينبثق الدم ساخناً. وهو يشير، بعد ذلك، بأصابعه إلى ما انبثق من السائل الأحمر، داعماً به حججه. فيلتفت «أ. دهر» إلى الرجل الشاحب هامساً: «الحق معه»، فيمتعض صاحب العمارة، على عادته الشاحبة كجلده: «دعه يلحس هذا» ويشير إلى مؤخرته.

كان على موتى المصادفات، أجمعين، أن يتبركوا بمؤخرة صاحب العمارة لكثرة ترديده الكلماتِ الحكيمةَ تلك كلما همس «أ. دهر»: «ألا ترى؟ دمه أكثر سخونة. الحق معه»، مشيراً، بالتسلسل، إلى من يضربون الرمل بأعقابهم العارية فتنطبع حمراءَ فيه، أولاً،ثم يمتلىء الأثر ـ قليلاً قليلاً ـ بالدم.

غير أن صاحب العمارة لم يُطِلْ بقاءه، فاستدار عائداً، عبر النفق الذي بات مضاءً، بعد سقوط جدارين: شرقاً، على المياه والسفينة الراسية قبال عمارة «أبي كبير»؛ وغرباً، على الرمل الدموي، والخصومة غير المُدْرَكَة بين الحلقات البشرية المتشابهة في ميتاتها. أما نحن فلم تكن علينا العودة إلى أيّ مكان إذا ارتضى «أ. دهر» أن يطيل مكوثه هناك. لكننا، بحكم ما أُعطينا من إشرافٍ مفتوح، حتى الضجر، على مصير من نحنُ موكلون به، نعرف الحركة التالية التي سيُقْدم «أ. دهر» عليها:

سينظر الشاب من حوله، زاهداً في الإقدام على أي شيء. وما الذي سيُقدْم عليه، بأية حال، سوى أن يخطو في اتجاه النفق؟ وإذ يخطو، أول خطوة فيه، شمالاً، صوب قبو عمارة «أبي كبير»، سيلتفت، في إهمالٍ، إلى حيث حيزوم السفينة البادي من الثغرة الشرقية. ثم سيمضي، مسرعاً بعض الشيء، حتى القبو، وسيصعد بضع درجات تفضي إلى بهو العمارة. سيضغط، في البهو، على زر المصعد فيألفه معطَّلاً، فيسلم أمره إلى قدميه ترقيان به حتى الطبقة الخامسة التي سيستوقفه فيها صخبٌ غير أليف، وروائحُ خليطٌ من ترْبنْتين وألوانٍ كأنما أُهرقت بكثرة. سيعرُج، غرباً، على الممر الذي ينتهي آخره على باب صديقه الرسام. سيُشْدَهُ بما يرى في الفراغ المُحْكم كنسيج القماش،

إذ ستصدمُ ساقيه تلك الكلاب الهاربة من أعماق اللوحات، وهي تنهش ما اقتطعته من الجدران الشبيهة باللحم. وسيتعثر، خطوة بعد أخرى، بالجثث الصغيرة المتساقطة، بدورها، من مسافة اللون في الرسوم الزيتيه؛ وهي صغيرة بالنسبة المُعَدَّة لها كأحجام على القماش. اما الألوان الباقية، التي تسند الأفق، في ما وراء الأشكال من كلاب وجثث، فستنحلُ - في فراغ الممر المتمدّد، برهة بعد أخرى، كذاكرةٍ داهيةٍ في التلفيق - إلى فقاعات طائرةٍ تنفجر فينبثق من كل فقاعة شهيق، كأنما كانت مغلقة عليه. وفي مدى الشهيق، الذي يبسط فراغاً من شهوة على فراغِ الممرّ، سيخرج شَبَحُ صديقه الرسام من باب الشقة بنصفه، مبتسماً تحت قشرة رقيقة من دمٍ يغطي أكثر جذعه، وبعض وجهه و يديه. وستخرج أمُ صديقه، أيضاً، من وراء الشَّبَحِ، وهي تمدّ نصف جذعها خارج باب الشقة، مبتسمة، بينما تمسك بإحدى يديها فرشاة حمراء، ومواسيرَ ألوانٍ صغيرة مبعوجة من الضغط عليها.

سيُشْـدَهُ «أ. دهـر» قليلاً بالأعضـاء البشرية المتناثرة تحت اللوحات. سيُشْدَهُ بالنباح الأخْرَق الصاعد لا من حناجر الكلاب المرسومة الهاربة، بل الصاعد من أساسات العمارة، في اختناق يمسّ العظمَ قبل الأذنين. سيتفوَّه بكلمات عمياء، وهو يتراجع من ممّر الطبقة الخامسة. سيرفع يديه، بغتةً، يسدُّ بهما أذنيه إذ تتعالى أصوات قذائف تصيب العمارة مباشرة، فتختضُ الأساسات كأنما هي ملأى بسائل مّا.

كنا - نحن الخمسة ذوي الكثافات المفتونة - نسمع ذلك الخضيض في الأساسات كلّما أقبلت ريحٌ أو أدبرت ريح. وقد تسنّى لنا أن نرى ما تحويه الجدران الكتيمة، والأعمدة، حين انهارت العمارة، قبل ظهور «أ. دهر» على سطح السفينـة المتجهـة غربـاً، بأربعـة أيام. نعم. تقـوّض الهيكل فنفرت القضبان الحديدية من كل مكان، متوازيةً أو متقاطعةً كحبال الشّبَاك. ومع القضبان انفجر الدم ساخناً، حيّاً، فأدركْنا أن ما كان يختضُ داخل إسمنت «أبي كير» لم يكن غير هذا السائل الأحمر، المصحوب بنباح بارد ترفعه يدا الغبار إلى شرفات الأبنية المجاورة، وإلى جماجم الأحياء الذين تخلّفوا، من ثمّ، وهم

يسدّون أنوفهم، وأفواههم، خشية شهقات تتغرغر في الحناجر كالسعال. غير أن «أ. دهر»، الذي انهارت عليه العمارة، مثله مثل غيره من قاطنيها، سيظهر بعد أربعة أيام على سطح السفينة الحديدية تلك، ناظراً إلينا في تمدّده تحت ملاءته العسكرية وهو يدخن لُفَافته.

ما همّ. فلنتبعه الآن، حيث تصاب العمارة بقذائف مباشرة، فيضطر «أ. دهـر» إلى سدّ أذنيه من جرّاء الدوي، منحنياً نصف انحناءة. ومن ثم يكمل صعوده إلى الطبقة السادسة، يفتح الباب على عجل ويدخل. يستند إلى الجدار الشرقي للمـمّر بظهره، متنفساً في تَقَطُّعٍ. وينزلق، بعد ذلك، قليلاً قليلاً، حتى يغدو مقرفصاً، آخذاً ركبتيه بذراعيه إلى صدره، وينظر بطرف عينيه إلى التلفاز القابع في الركن، ما بين باب غرفة النوم والحمّام، دون أن يلتفت إليه بوجهه كله.

كان جالساً على النحو ذاته حين انهارت العمارة. وما من سبب كان يدعو إلى البقـاء في الممر، إثر الهدنة المعلومة، والمواثيق الدولية التي تضمن هجرة المحاربين في أمانٍ عن المدينة. نعم. أمانٌ يشمل البحر واليابسة؛ أمانُ كرئة ستتمزّق فيما بعد.

لقـد بقي الأقلّون، في آخر أيام تلك الحرب المديدة، في مواجهة كل شيء، حتى أنفسهم، وهم يعـرفـون المقـدار الـذي جَعَل الحِيْلة، في ذلك الشرق، منسوجة على أتمِّ ما تكون، كسجادة الصلاة المعلَّقة إلى جدار بيتٍ لا صلاة فيه. وقد غادر هؤلاء الأقلّون المدينةَ، على سفن، وفي البرّ، بمواثيق لم يبق منها إلا اسمها. وفي أثناء ذلك الخروج، درج الناسُ على أن ينعموا بأمانٍ مكتـومٍ، قدَّرَهُ فقهاء الأحزاب بأزلٍ، والحالمون باستعادة النظام المُتَخَلْخِل سلطَتَهُ بما لا يزيد عن الضروري لاستعادةِ النظام سُـلْطَتَهُ، ليغربلَ، بيدٍ من زئبق، ما خلّفته الحربُ من إماراتٍ، وتعدّدية، وأساتذةٍ تصدُّروا التعليم بقوة طوائفهم، ودكاكينَ لبيع الأقمشة والخضار، لصقَ الشاطىء المُمْتَدّ - منذ أوّل الخليقة - لاستقبال السيّاح ذوي الأنوف المُنَمَّشة؛ ليغربلَ عربات بيع الأطعمة المقليّة، وباعة الثياب المستعملة، وهم يمدّدون بضاعتهم على جانبي الشارع

التجاري الفخم وسط القسم الغربي من المدينة.

أما الدولة فأعدّت - بعد تقدير ضبّاطها ذلك الأمانَ تقديراً تراتبيّاً - ملفاتِ الأمن العام، والخاص، وما دون الخاصّ وما فوقه. واتصلت بالطارئين على الاحزاب، والحركات، والقوى، وبالمقيمين فيها أيضاً، لتتداركَ أيَّ خَلَلٍ قد يتبقّى بعد رحيل من يرحلون.

نعم. أمانٌ مّا. أمانُ أيامٍ مشعْشِعةٍ يُعِدُّ الكلُّ فيه للكلِّ ولائمَهُ وسيِّافيْهِ، إلّا «أ. دهر» الذي يمعن جلوساً في ممر شقته، كأنما لم تنته الحرب بعد، حتى انهارت عمارة «أبي كير». وقد لمحناها، آنَ سقوطها، تنحني جداراً على جدار، وتتقوّس الأرضيةُ ببلاطها، حاضنة رفوفَ الكتب، وإطاراتِ الأبواب، والأبوابَ، والكراسيْ، وخزانةَ الثياب المفتوحة، وقارورة الغاز، والحذاء الإضافي الملقى في إهمالٍ قرب البراد، والبرادَ وقد اندلق ما فيه من أشياء معلّبة (وهو البرّاد المطفأ أبداً بسبب انقطاع الكهرباء)، وحبلَ النسيل الممدودَ على طول الشرفة، والشرفةَ بحديد سُوْرِها، ومواسير المياه التي نَفَرت من الجدران، وأسلاكَ الكهرباء المقطوعة، وأوعية الطبخ، والصحون القليلة، والكؤوس ذات الحواف المهترئة كأنما قَضَمها الشاربون.

فمْ من رنينٍ وغبارٍ التهمَ «أ. دهر» وأشياءه، فيما ظللنا - نحن الخمسة اللا مرئيين - معلَّقين في الهواء، وقد اخترق جسومَنا حطامُ الطبقات التي تعلو شقة «أ. دهر»، فكنا نرى، من عليائنا ذاك، الكُتَلَ الإسمنتيةَ، والأحياءَ، تتهاوى إلى أسفل، مرتجّةً كممحاةٍ أسْقَطَها طفل. وكان آخر ما تهاوى خزان الماء الكبير. نعم، بدا معلَّقاً، مثلنا، إلى الهواء، بعد سقوط الاسمنت كلّه، ومن ثم نزل، في هدوء، صوب الغبار الذي علا الركام، كتلةً واحدةً، لم تندلق من حوافّه إلّا حفناتٌ ضئيلة من المياه العكرة. وإذ لامسَ الأرضَ انفجرَ، مرخياً على الغبار عباءةً شفيفة ضربتِ الأنقاضَ في رفقٍ، ثم ارتفعت من أثر لهاثٍ مّا، غبراءَ، قبل أن تستوي على الأشياء كلِّها ماءً مَحْضاً، وسِخاً، يتجمّعُ أو يتسرّبُ من شقوق الحجارة.

كان جالساً في ممر شقته حين انهارت العمارة، ضامّاً ركبتيه إلى صدره،

كأنما لم تنته الحرب بمواثيق ساخرة. وها هو جالس، الآن، آخذاً ركبتيه إلى صدره، غير أنه لن يقوم، بعد برهات قليلة من النظر إلى التلفاز المطفأ في الركن، هناك، متجهاً إلى باب المطبخ ليعبره إلى الشرفة، ثم يتكىء بيديه على الحاجز الحديدي الذي يعلو سور الشرفة، ملقياً ببصره إلى أسفل، حيث السفينة الراسية قبال عمارة «أبي كير»، وقد امتد الأفق من ورائها على ماءٍ يتخفّى الشرق في قناعه، فلا بيوتَ، ولا مسجدَ يُشْعِلُ مدفع «الهاون» على سطحه قلقَ الإسمنت، ولا إسمنتَ؛ بَلْ لا بُعْدَ، كأنما ليس وراء السفينة الراسية قبال العمارة من مدىً للفراغ.

كان المحاربون على ما هم عليه فوق سطح السفينة، إذا حصرهم «أ. دهر» ببصره أو لم يحصرهم. وكانوا يدخنون لُفَافاتهم ذاتها، التي لم يأتِ عليها الجمرُ بعد، مذ وصلوا إلى ما يشبه الميناء قبال «أبي كير». ولو قام من مكانه لقمنا معه، لنرى رفيف الهواء المحترق على كل سطح يجاور العمارة:

ومضٌ إثر ومضٍ. دخان إثر دخان. أنينٌ إثر أنين. شرفات بيوت، ومداخل، تتفتح وتنغلق على حديدها وإسمنتها. شجرٌ متهالك يتكىء على شجر فوق الأرصفة. معالمُ تتهيّأ تحت ضربات الرعب، ومعالمُ تنحلُّ عائدةً إلى شكلِها الهُلام. جسومٌ من لحم تسترسل في انقسام أعضائها على أعضائها. أطنانُ حديد نثرتْ ريشَها الجارحَ على الحيّ، في الوقت الذي كان بإمكان «أ. دهر» أن يتأمّل فيه سفينة المحاربين الراسية قبال العمارة، كأنها كانت هناك من سنين لا تُحصى، وقد علا جدرانَها فُطْرٌ مائيّ أخضر، وانبثق عن مسامّ سطحها الصلب ضبابٌ رقيق لم يجاوز عنق الأحذية العسكرية للمحاربين الواقفين هناك، على امتداد السياج الحديدي من جهتَيْ ذلك الهيكل الضخم، وهم يرمقون شرفات عمارة «أبي كير» في ضجرٍ أشبه بضجر من مَلَّ مشهداً.

لكن «أ. دهر» لم يقم من مجلسه في الممر ليرى هذا، بل بقي متأمّلاً جهازَ تلفازه المطفأ، ضامّاً ركبتيه إلى صدره. وإذ تأمّلنا الجهازَ المُطفَأ بدورنا لمحنا، في سراب الشاشة البيضاء العميقة خمسةً على كثافةٍ متماوجةٍ، كأنما يهمّون أن يجلسوا القرفصاء، صفاً واحداً، لصق الحائط الغربي للممَر، في مواجهة «أ.

دهر». فيما كان «أ. دهر» يحدّق في الكثافات الخمسة المرتسمة على الشاشة البلّورية المُطفأة هناك، في أناةٍ، تماماً كما كان ينظر إلينا على سطح السفينة التي توجّهت غرباً. وإذا انتقلنا بأبصارنا إليه ألفيناه منتقلاً ببصره إلينا، مواجهةً، فتلاقت عيوننا في استغراقٍ ساخرٍ. وقد همَّ أن يضحك، وهممنا أن نضحك، في الآن الذي ارتفع فيه صوتُ محرّكاتِ السفينة، مغطيّاً على الوحشةِ المنبثقة من انهيار أساسات «أبي كبير».

الفصل الثاني

قبل أربعين سنة من ميلاد «أ. دهر»، البالغ عقده الثالث، الآن، كان ثمت من يصرخ في احتداد: «خدعني. والله خدعني»، وينهض واقفاً وسط وجوه صامتةٍ في ذلك البيت اللَّبنيّ، وقد تدلى من حزامه قيد من تلك التي توثق بها البغال، مضيفاً: «سأعود به، والله، كالجرو»، وهو يقبض على القيد الحديديّ، في إشارة صارمة إلى حَزْمٍ لا يُرَدُّ. أمّا الصّامتون، وهم جلوس، فلم يتحركوا إلّا الحركة المعهودة حين تتعب الأجسام من قعدتها، فيميل الشخص على رِدْفِهِ هذا، أو ذاك، ويمدّد ساقيه أو يثنيهما. غير أنهم كانوا مضطجعين، فاختلفت الحركة على سجاجيد الصوف الخشنة، المبسوطة من ركن إلى آخر، فيما تناثرت فوقها مخدات الريش، بمخاليفها الحائلة اللون، وقد تقدّم الشاب ذاك، وسط نظرات المضطجعين، من بوّابة السور الغريب، الذي لا يعدو أن يكون أكواماً متراصفة من الخرنوب الجاف، لم تَعْلُ أكثر من متر أمام غرف المنزل المتقاطعة في زاوية حادة. أما عر ذلك السور فكان مفتوحاً، لأنْ لا بابَ له. غير أن النهار الربيعيّ، في ذلك اليوم - بل في عصر ذلك اليوم، تحديداً - رفعَ عتبةً رقيقةً من العشب تصلُ بين دفتيه اللتين تفصلهما ثغرة غير هندسية، وكانت الخطوات قد تركت معالمها على تلك العتبة العُشبية، فخفَّ الأثرُ الأخضرُ حيث تطأ الأقدامُ الأرضَ، في خطّين صغيرين متوازيين، تماماً كالآثار التي تتركها العربات في الأرض الخلاء. أمّا كيف اتّفق أن عابري تلك البوّابة المفتوحة أبداً كانوا يطأون الموضع ذاته، بأقدامهم، فتلك مسألةٌ حسابية صغيرة: عليهم أن ينظروا، آن دخولهم، إلى الجدار الذي تتكىء عليه

المرأة العجوز، في كل نهار مشمس، ضائعة بعظامها الرقيقة تحت ثيابها الفضفاضة، وغطاء رأسها المحاط بعُصابة على استدارة الجمجمة. والعجوز تقعي في الزاوية تلك، أبداً. لا تتكلم قط في المجلس، لكنها تحدّق بعينيها اللتين حالَ لونُ حدقتيهما، فبدتا مستورتين بغشاء أغبر، إلى تلك البوابة، فيضطر الدّاخلُ إلى التوجُّه إليها بقدميه، وببصره، معاً، فيطأ الموضعَ ذاته في العشب القصير. وعلى هذا النحو تحدَّد خطّان في العتبة، كأنها عجلاتُ عربةٍ تعبرُ الخلاء. أمّا العجوز، فعلى قِصَر بصرها تُوهِمُ الداخل بوجوب أن يحظى برضاها الصّامت. وعلى معرفة الداخلين أن لا فرق في رضاها أو سخطها، فقد أوحوا للمجالسين الآخرين أنهم يأخذون نظرات المرأة على مَحْملٍ مّا، كلٌّ منهم بدوره: الداخل يوحي للجالس، والجالس يوحي للداخل، وهكذا. والمرأة العجوز تلك، لم تكن غير أمِّ الرجل الذي قام من مجلسه، صارخاً: «خدعني»، وخرج من بوّابة سور الخرنوب، متحسساً القيدَ الحديدي المتدلّي من حزامه.

قبل اربعين سنة من مولد «أ. دهر» خرج جدّه من جهة أمّه باحثاً عنه، بصراخه ذاك، ولم يكن على احد، قط، أن يحدِّد ماالذي خدع الحفيدُ به جدَّهُ، فكيف بحفيدٍ غير موجودٍ بعدُ! لكن ذلك لم يخطر ببال الجالسين. أيْ: لم يخطر ببالهم أن الجدَّ الشابَّ يعني بصراخهِ حفيدَهُ القادمَ بعد أربعين سنة. ولو أدركوا الأمر على غرابته لتساءلوا: «خَدَعَهُ بماذا؟». ولضحكوا من مهزلةِ الأمر بافتراض وجود الحفيد، أو بعدمِهِ، على أية حال. غير أنهم ارتدوا أقنعتهم الرّصينة في ذلك الموقف، ناظرين بعضهم إلى بعض، وهم يهزون برؤوسهم: «خدَعَهُ. نعم. خدعهُ». وقد أضاف الممعنون منهم في الانحياز إلى موقف الشاب الغاضب كلمة «لا يجوز»، وأردفوها بـ «لا. لا يجوز ذلك»، ثم رفعوا سبّاباتهم عالياً، إلى مستوى وجوههم، وهزّوها ذات اليمين وذات الشمال، هامسين: «لا»، في الحين الذي جاوز فيه جدّ «أ. دهر» (جدّه بعد أربعين سنة) بوّابة سور الخرنوب، ممعناً في تعقُّبه الغامض لحفيده الذي خدعه.

كان الخلاء جميلاً في ماوراء ذلك السور، بل مستسلماً إلى سكينة الربيع

الشاحب، كفصلٍ عليه أن يؤدي مهمته الرقيقة دون انفعال. وهو يبدو شاحباً، خشية أن يفقد توازنه في مشيته على حبلِ الأرض المثلوم: هكذا ترامى المشهد بسهولٍ تموج تحت خفقة الريحِ كما تخفُقُ قلبٍ هائلٍ لا يُرى. أما جدّ «أ. دهر»، فيما بعد، فقد لاح كَحَلَمٍ صغير في المدى، ينبسط قماشه تارة، ويلتف على الصارية تارةً أخرى، إذ تلتفّ عليه عباءته البنّيّة في دورة الريح - وهي كانت تدور من حوله ككلبٍ مرحٍ - فتلتصق بعظامه النافرة قليلاً، ومن ثم تخفق خفقاً وتنتفخ، لتعود، في برهة أخرى، مُنسدلةً على جذع الشاب، الذي لفّ حطّته السميكة على استدارة رأسه، وترك إحدى ذؤاباتها تتدلّى من جهة اذنه اليسرى.

لم يكن على عصر ذلك اليوم أن يكون طويلاً أكثر، برغم خروج جدّ «أ. دهر»، كهائم، لا كَمَنْ يعرف وجهته، وكأنّما هو على قاب فراسخ قليلةٍ من مبتغاه، قبل المغيب. وقد حلّ المغيب، كغيره ممّا قبله وممّا بعده، والشاب ماضٍ تقوده عباءتهُ ويقودها. ومن ثم أعتم المدى لوناً لوناً، فباتت الأخاديدُ، والأثلام، وحدها، أكثر إعتاماً، أما المُنْبَسطاتُ فاستوتْ رماديةً، تغرقُ، قليلاً قليلاً، في البطش المتعاقب للمساء السهران. وكان على شبح الجدّ الشاب، بدوره، أن يُعتِمَ لوناً لوناً، بدءاً بالعباءة البنّيّة وانتهاءً بحطّته البيضاء، المشغولةُ حوافُها بعروق برتقاليةٍ، وشراشيب متنافرة من طول استعمالها، حتى غدا هو والأفق المستسلم لمحاةِ الليلِ الكبيرةِ أزقاً واحداً في دورة ذلك اليوم.

الفصل الثالث

في إحدى هدنات هذا المكان، دون تحديد لتاريخها، تنفَّستْ عمارة «أبي كير» رويداً رويداً. وقد ظهر الرَّجل الأعرج، الساكن في الطبقة الثانية، أولاً (وكان يظهر في طليعة العائدين إلى العمارة أبداً، في كل هدنة تعلنها الإذاعة بين المتحاربين) عندما هدأ القصف العشوائي الأخير. وقاطنو هذه العمارة، وما يجاورها، ينزحون أسرعَ كلما علا هدير قذيفة، لكثرة ما في الحيِّ من ركائز لمدافع «الهاون»، في حُفَر رملية مبثوثة بين فناءات الأبنية، وفوق أسطحتها أيضاً. وهم يعودون بالطريقة السريعة ذاتها التي نزحوا بها، في الهدنات، من مخابيء مجهولة في أحياء أخرى، كأنما ينبثقون من شتيمة تُطْلِقُها الأرض.

كنا - نحن الخمسة اللا مرئيين - نسمع اصطفاق أبواب، ونداءات آباء إلى أبناء، والتفاف الجارات بعضهنَّ على بعض، فلا نصغي إلاّ إلى الحركة العجولة لـ «أ. دهر». و «أ. دهر» لم يكن قد غادر العمارة، برغم ظلامها، وانقطاع مائها، ووحشتها، لكن عودة الناس ألهمتْهُ حركةً عجولة ما كان يبديها حتى في القصف، فإذا به يمضي إلى الشرفة تارةً، ملقياً ببصره إلى أسفل، حيث الفراغ المائي والسفينة الراسية هناك، ويرجع فيهبط إلى الطبقة الخامسة، متفقِّداً شقة صديقه الرسام. ولمّا يجدها صامتةً يعود أدراجه إلى شقته، فيجلس القرفصاء في الممر وظهره إلى الحائط، كعهده بالجلوس آن تسقط القذائف من حول الشرفات التَّعِبَة.

غير أنه حظي بصاحبه، بعد تكرار الصعود والهبوط قبل الظهر بقليل حتى المغيب. فقد لمح، أخيراً، من خصاص الباب الموارَب، دون إغلاق،

ذلك الضوء الشاحبَ الذي اعتاده من شموع تنشُّ نشيشاً، بعد برهة وأخرى، كأنما يخالط الماءُ الشَّحمَ الذائب، فتتمايل ذُبالات اللهب، أو تخْفُتُ زرقاءَ مختنقةً، وما تلبث تعلو صفراءَ ثانيةً، فتَتَكَلَّلُ الظلالُ بالظلال.

ولمّا بلغ «أ. دهر» البابَ عبره دون قرع، فكاد يتعثر بساقَيْ الرسام المتمدد على أرض الغرفة، متكئاً بمرفقه على مقعد لصق الجدار. وكان يبدو في تمدده كمَن دخل تَوّاً، واختار أول ركن صادفه لاستراحته، لذلك بدا أقرب إلى الباب منه إلى أي ركن من فناء الغرفة، حتى أن الشمعة التي أضاءها كانت تعلو رفّاً واطئاً من رفوف مكتبته. والشموع في بيته مثل الشموع في أي بيت آخر، يجري تثبيتها في كل مكان، فتضاء بحسب حاجة العابر من ركن إلى آخر في العتمة. وأوَّلها يكون قرب الباب عادة، فوق أي شيء عالٍ، أمكتبةً كان أم كرسياً، قارورةَ غاز أم تلفازاً. وقد تخطى الرسام ذلك إلى تثبيت الشموع فوق كوم كتب لم تجد محلاً لها فوق الرفوف الخشبية، فتدلَّ عليها قَطْرٌ ذائب، من كل لون، متخثِّراً رقيقاً، في خيوط تنتهي برؤوس مستديرة كرؤوس أعواد الكبريت. وإذ تدارك «أ. دهر» أن يصدم الساقين لم ينظر إلى صاحبهما، بل إلى شرفات العمارة المقابلة، جنوباً، من الباب الزجاجي العريض في آخر شقة صديقه، ذات الغرفة الواحدة المقسَّمة بخزانة كبيرة للثياب في منتصفها، فغَدت غرفتين: للجلوس وللنوم.

نعم. همس «أ. دهر» مبتسماً:

- عاد السجناء.

والتفت، بعد كلماته - في وقفته تلك - إلى صاحبه الذي رفع وجهه إليه، مبتسماً بدوره، وقد انعقَفَ شعره من خلف، من جراء التصاق رأسه بالحائط. وقبل أن يعقِّبَ المتمدِّد على جملة «أ. دهر» أضاف الأخير، مستدركاً: «يسألون عنك»، وغمز بعينه في الفراغ الشاحب، فتمتم الرسام: «من؟»، فرد «أ. دهر» ساخراً في خِفَّة:

- الذين رسمتهم.

فجاراه صاحبه المبتسم: «لم أرسم حتى خصيتيّ، منذ وقت طويل».

فتقدم «أ. دهر» إلى وسط الغرفة، ناظراً ثانيةً إلى شرفات العمارة

المقابلة، قائلاً:

ـ «إذن، هُمْ الذين سألوا عنك»، وألوى بعنقه صوب صديقه المتمدّد، غامزاً من جديد: «الذين لم ترسمهم، وكذلك خصيتاك». فقهقه الرسام، وقد أحاط خصيتيه بيديه يقيهما من ضربة وهمية: «أظنني ضيّعتهما».

فوافقه «أ. دهر»: «ولماذا الظن؟ لقد ضيّعتهما منذ زمن»، وأشار بيده، ذات الأصابع المفرودة، في استطراد غير متجانس:

ـ رحمها يتسع. عاد السجناء.

كان عهدهما إذ ينظران إلى تلك العمارة أن يصفا قاطنيها بالسجناء، مقهقهينْ حتى التمايل على شرفة الرسام، وهما يلمحان الستائر الخشبية ذات الشرائح المتوازية عَرْضَاً تُسْدَل في عصبية واضحة، هنا وهناك، على الأبواب وعلى النوافذ المطلّة من تلك العمارة على «أبي كير».

كنا ـ نحن الخمسة اللا مرئيين ـ نلمح، بأنفسنا، إضافات مضحكة على المشهد، فكلّما خرج قاطن من عمارة «أبي كير» إلى شرفة مواجهة لتلك العمارة، عمد قاطنو الشقة المواجهة إلى إغلاق النوافذ والأبواب، بل يخرج أطفال تلك العمارة ألْسنتهم لقاطني عمارة «أبي كير» في ترفُّعٍ غير مُبرَّر.

لقد كان الفرق واضحاً بين العمارتين في تصميمهما، وفي الستائر المعدنية لـ «أبي كير» والخشبية المبتكرة للعمارة المقابلة. أما أصص النبات والزّهر، التي كانت تزين حوافّ شرفات تلك العمارة، فلم يكن لها ما يعادلها على شرفات «أبي كير». وكانو ـ نعني سكان العمارة المقابلة ـ يتفننون في اقتناء نبات سريع النمو، في استطالةٍ، كأنما يسدلون حجاباً بين العمارتين. لكن قاطني «أبي كير» كانوا يجارون جيرانهم على نحوٍ ساخر، فيكثرون من تعليق ملابسهم الداخلية، وجواربهم، على حبال تمتد بين جدران الشرفات، أمغسولة كانت أم غير مغسولة، في تعاقب دائم. وكان الذين ينشرون الثياب تلك، نساءً ورجالاً، يتأمّلون كل قطعة ينشرونها، دائرين من حولها كمن يتأمل ثوب عرس، وهم يلقون بنظرات هازئة إلى العمارة المقابلة، دون تحديد، إذْ لن يخطىء حَدْسُهم في أن هناك من يراقبهم من وراء الستائر المُسْدَلة في غيظ.

ـ قال «أ. دهر»: «رحمها يتّسع».

فردّ صاحبه المتمدّد: «لا رحم لها»، وسحب ساقيه الممدّدتين، متراجعاً عن الحائط بظهره، فاستوى قاعداً: «انظر»، وأشار إلى لوحة شاحبة فوق العارض الخشبي: «لم يبق غير النافذة». ثم أشعل لُفافة سحبها من علبة ملقاة تحت فخذه: «ترجع هذه العمارة القحبة من لوحتي إلى مكانها، دائماً، إلاّ هذه النافذة!».

فوافقه «أ. دهر» كعارف:

ـ إنها نافذة الشقة اليمنى في الطبقة الثالثة. رأيتها من قبل.

ولم يكن ممكناً، بالطبع، رؤية الطبقة الثالثة في العمارة المقابلة من موقع «أ. دهر» وسط الغرفة الشاحبة، إلاّ إذا تقدّم إلى الشرفة، وألقى ببصره إلى أسفل. غير أنه كان قد رآها، من قبل، مراراً. وهو يستطيع أن يستلهم المنظر، من موقعه، دون أن يراه: شقة لا نافذة لها، من جهتها المطلة شمالاً على عمارة «أبي كير»، لأن النافذة ظلّت مثبّتة إلى قماش اللوحة، بينما اختفت الجدران، والشرفات، والظلال، والأصص، والنباتات.

كان صديق «أ. دهر» يعيد رسم العمارة كلما اختفت من لوحته، وظهرت في المكان الجنوبي المقابل، بدءاً من موقع النافذة وما يحيط بها من أطوال ومسافات. وكان، أيضاً، كلما أنجز رسمَ العمارة انخفضت من مكانها، لكنها تعود فتنزح عن اللوحة، بتدبير هادىء، فلا يبقى على القماش المؤطر، ذي الفراغ الأبيض المطلي، إلاّ النافذة تلك، معلّقةً إلى البعيد البعيد.

وللمرة الأولى، في فطنةٍ ظلت غائبة دون تبرير، سأل «أ. دهر» صاحبه:

ـ من يسكنها؟

والتفت إلى القاعد: «من يسكن هذه الشقة القحبة؟»، وهو يعني بإشاراته تلك الشقة التي تأبى نافذتُها مغادرة اللوحة، فضحك الرسام: «لو سمعك غيري لصدّق سؤالك». وغمز بعينه في الضياء المنسحب إلى قَدْرٍ هزيل وسط الشموع الهزيلة، فسأله «أ. دهر»، في اهمال: «أتعرف؟». غير أن الآخر استمر في ضحكه، وغمزه بالعينين معاً، في طريقة تتصنّع طفولة فكاهية:

ـ لا ترفع صوتك أكثر. سيسمعونك.

وصرخ، بغتةً، في قعدته، ودخان اللفافة يخترق شاربيه الأشقرين: «ابنكم هنا»، كأنما يتوجه بصراخه إلى تلك العمارة التي لا يرى إلّا طبقة واحدة منها، من مجلسه المنخفض. فالتفت إليه «أ. دهر» متأملاً، بابتسامة شاحبة كالمكان ذاته:

ـ ابن مَنْ هنا؟

فرد صاحبه: «ابنُهم. أنتَ».

كان ذلك في مساء يوم شملته هدنةٌ ما، دون تحديد لتاريخ، أمّا صباحُهُ فقد جرت وقائعه على نحوٍ مَا يجري في الهدنات الأخرى. وهو ما يشبه، في بعضه، الصخبَ الذي يعرو عمارة «أبي كير» حين يعود قاطنوها النازحون عنها إليها. ولربما عمد أناس منهم إلى تفقّد جيرانهم كما فعل «أ. دهر» في تفقُّدِهِ لصديقه الرسام، مثلاً. لكن بعض الوقائع الأخرى يمضي في شكل لا يشبه هذا، كأنْ يجد أحدهم منزلَه مخسوفاً، وجاره مقتولاً. ثم يرى، بغتةً، رجلاً قصير القامة، أو طويلها، يتفقّد العمارة، وسط حرس مدجَّجين، ملقياً بتحيات مبهمة من حوله، وقد تصنَّع الألم، عجولاً في حركته، يوشوشُ البعض ممّن يرافقونه، كأنما يترجمون الخرابَ إلى لغته. ويعود فيختفي بغتةً، أيضاً، كما ظهر.

وكان عَهْدنا، في أيام هدنات كثيرة، أن تسترسل تلك المرأة، ذات الحَوَل الخفيف في عينها اليسرى، إذ تزور «أ. دهر»، في وصف واحد من هؤلاء، يقتحم الشارعَ الذي تقطنه برجال يبدون أقلّ فظاظة من حرس الآخرين، مرتدين ثياباً مدنية لا عسكرية، فيحيّيها أوّلَ من يُحيّي، أو هكذا تعتقد، إذا دخل الشارع بسيارته الرثة (وهي رثّة بقصد التمويه) من الجهة الجنوبية، بينما ترافقه سيارات فارهة. والمرأة لا تتوقف عن وصف ذلك الرجل ذي الشاربين الأفقيين كخطٍّ مُسَطَّرٍ، مهما اعترض «أ. دهر» حديثها بأخبار تثير الفضول لو رُويت لشخص آخر:

ـ «كان يتبعني. أنا لم أره، لكنني أحسسته يتبعني حتى شقتي»، يقول الشاب، فترفع الحولاء عينيها إلى مدى شرفة «أ. دهر» من غرفة الجلوس في شقته:

ـ «أتستطيع أن ترى الشارع من هنا؟ لا. هذا هو ارتفاع شقّتنا عن الأرض تقريباً»، وتلتفت إلى الجالس الضجران أمامها، مضيفةً:

ـ «لا تستطيع أن ترى الشارع، أليس كذلك؟. أنا لا أستطيع أيضاً، من غرفة الجلوس في بيتنا، لكن لم يَفُتْني دخوله إلى الحيِّ مرة واحدة»، وتستدرك: «إلّا مرة واحدة». فيحاول «أ. دهر» جذبها بجملة جديدة، حين تأخذ المرأة نَفَساً، قائلاً:

ـ هو الذي يشعل أعماق العمارة بنباح الكلاب؛ هو الذي قادها كل تلك المسافة.

فتعلِّق ذاتُ الحَوَل الخفيف: «جميل»، ثم تكمل: «إلّا مرة واحدة. إبني ألهتني بصراخها، فلم أنتبه». فاعترض «أ. دهر» حديثها: «ما الجمال في ذلك؟ حَشْدَ كلابَ الأرض في أعماق العمارة، فما الجمال في ذلك؟».

غير أنها جاوزت إحتداده الخافت: «جميل. أقول ابنتي هي التي ألهتني».

فردَّد الشاب كلمتها: «جميل. نعم جميل. نباح جميل. يا لجَمالك». ودفعها بيديه على الكَنَبة فاستلقت متكئة على مرفقها، ضاحكة من قصده الواضح:

ـ «أنت تُسْكتني، أليس كذلك؟» فلم يجب الشاب المزمع على نزع بنطاله، في هدوء مشبع برائحة ثأرٍ جسديٍّ.

كنا ـ نحن الخمسة اللا مرئيين ـ لا نعير اهتماماً إلى ذلك الأمر الذي حصل في حضورنا مراراً، وكان مُشبعاً بفضولٍ خائبٍ، وبنزوعٍ واضحٍ إلى الإنكسار، كأنما يتعب هؤلاء ـ ذوو الأشكال الهندسية ـ من انتصاراتهم التي يتحدثون عنها، فيرغبون في التخلي عن بعضها، من آن إلى آخر. ونحن ـ بالطبع ـ لم نلمس حدوث انتصار، أو وقوع ما يوجبُ التدليلَ على انتصارٍ إلّا في كلام «أ. دهر»، دون أن نرجِّحَ مقدار الفكاهة على الجدّ فيه.

«ما حاجتنا إلى انتصارٍ في راهننا؟»، كان يقول للحولاء المبتسمة في إعجابٍ بما يقوله هو، يتبدَّل ـ بعد برهة ـ إلى إعجاب بما تقوله هي. ويضيف: «نحن منتصرون في الماضي كلّه، فلماذا الجشَع؟». وكان تأكيدها على كلامه هو أن تتكىء بمرفقيها على فخذيها، مستندة بذقنها على يديها المضمومتين، في تحديقٍ زائغٍ، متفكِّرة في تعقيبٍ لا تقع عليه، فتسترسل مُتَمِّمةً كلاماً انقطعت

عنه من قبل:

ـ ابنتي لا تقرع الباب. أبوها صكّ لها مفتاحاً.

هذا ما سمعناه في أوقات ماضية. أما الآن، أي في البرهة التي يحدثها الشاب عن انتصارات تتدحرج كالكُرة على سُلَّم الحاضر، هبوطاً من مستقبل مفتوح على الرنين، صوب ماضٍ كالهوّة، ليِّنٍ، عميقٍ، متماوجٍ، يتّسع لما يمكن أن يلقي فيه مَنْ يشاء بأثاث بيته، وبعظام كلبه، وبأحذية امرأته وأقلام طفله، بصورِهِ الحائلة اللون؛ بأقمارٍ يحفظها في جيبه؛ بأفقٍ وأُصُصٍ من وردٍ ذابلٍ؛ بكتب لا يقرأها.

كان ذلك يجري في بيتها عادةً، أيْ تلك الاستفاضة في الحديث عن انتصاراتٍ يعقبه همس المرأة: «ابنتي لا تقرع الباب». والأمر بسيط على أية حال. فالحولاء، إذ تكون في شقة «أ. دهر» تقاطعه، أبداً، بأخبار الرجل ذي الشاربين المستقيمين، الداخل إلى شارع بيتهم بحَرسه. وإذ تكون معه في شقّتها فإنها تلهج بالمفتاح الذي في حوزة ابنتها، كأنما ترى فيه تجنيداً من الأب لابنته في استقصاء البيت إذا غاب. والأب كان غائباً، ذلك الأسبوع الذي كلّم «أ. دهر» المرأةَ عن انتصاراتٍ قد تنسحب، بمفعول رجعيٍّ، من الماضي الكريم على المستقبل الكريم.

وكانا، في ستة أيام تبدأ من العصر حتى منتصف الليل، يتبادلان إشارات صلبة ـ وهما جالسان وجهاً إلى وجه ـ بالأيدي التي تتلمّس الأيدي، وبالشفاه التي تتلمّس الشفاه، وبالمداعبات المُخْتَلَسة، فالإبنة بالمرصاد، أو هكذا توهّما. ولربّما عمداً، بين غياب الفتاة الصغيرة عن الشقة، من آن لآخر، إلى ما أسلفنا من ذِكره: ينزع بنطاله في أيّ ركنٍ مستور، في توتر مشبع برائحة ثأرٍ جَسَديٍّ، ينتهي إلى ما ينتهي إليه الحيُّ أبداً.

نعم. قالت له: «أنت تُسْكتني، أليس كذلك؟»، في تلك المرة التي كانا في شقته هو، ودَفَعها بيديه دفْعاً خفيفاً على الكنبة فاستلقت، كأنها تنتظر الحركة الذكورية من أصابعه الطويلة من نحوْلها. لكنها لم تتوقّف، حتى في الأمد المُحْكَم بجسارةِ الجسديْن، الطافي على حدائقَ من لهاثها:

ـ إبنتي ألهتني. رأيته داخلاً..

فتمتم «أ. دهر»: «هكذا. هكذا» في اختناق، وهو يرتطم بها فيترجرج الشحم القليل من حول سُرّتها، فتمضي صارخة:

ـ ابنتي ألهتني. فتحت البابَ بمفتاحها دالفةً، فجاءةً، وهي متوترة: ماتت جدّتها. إيه. كانت تعني بكلامها صديقتها في الشقة التي تقع أسفل شقتنا.

كانت الحولاء تصل الكلمة بالكلمة، متجانسةً، في فحيحٍ تتفصّم فيه حنجرتها عن جذعها المتواطىء مع فخذي «أ. دهر»؛ بينما يهدأ الشاب قليلاً قليلاً، وقد علا جبينه، وملتقى حاجبيه، رَشَاشٌ من عَرَقٍ تتصل حبيباته في دِعة، فتشكّل مجرىً على استقامةِ أنفه. وفي اللحظة التالية، حين كان الشاب ينهض متثاقلاً عنها، كانت هي تكمل ما انقطع، ويدها تمسح ملتقى الفخذين بمحارم ورقية:

ـ «تصوّر. جدّتُها ماتت في إحدى الغرف بينما أخذتِ الفتاةُ ابنتي إلى غرفة ثانية، وهي تنزع سروالها، قائلة: انظري». وقامت واقفة: «كانت ابنتي مذعورة حين دخلتْ فهدَّأتُها، وأنا أشرح الأمر على أنه عاديٌّ، فصديقتها دخلت، بذلك الدم الذي سال على سروالها، طور البلوغ». ورفعتْ يديها معاً إلى صدرها فانسلّ ثوبها على العري الذي تفجّر قبل قليل:

ـ «ابنتي في الثالثة عشرة ولم تبلُغْ بعد على نحو ما جرى لصديقتها التي في سنّها». وانحنت تلمّ منديلاً ورقياً عن الأرض: «أنا بلغتُ في الثالثة عشرة»، ثم استقامت ناظرة إلى «أ. دهر» الذي استدار متجهاً إلى الحمّام، فتبعته. وبرغم أن الشاب أغلق الباب المفضي إلى المغسلة من خلفه، إلا أنها لم تبارح العتبة، صارخةً حتى يطغى صوتُها على صوتِ الماء المنبثق في قوة من زاوية مَا في الحمّام: «أنا أيضاً...». فأتاها صوتُه ضعيفاً، مُنْشغلاً باغتساله: «ماذا؟»، فكرّرت: «في الثالثة عشرة تبقّع سروالي بالدم».

كان في مستطاعنا ـ نحن الخمسة اللا مرئيين ـ أن نلمس لا مبالاةً واضحة على وجه «أ. دهر» حين ردّ «ماذا؟» من قبيل المجاملة. ولمّا خرج من الحمّام جاوزَ الحولاءَ الواقفة لصق الباب، متجهاً في الممر القصير إلى غرفة الجلوس، ثم استلقى ماداً ساقيه في ارتخاء قبل أن تصله كلماتها التالية:

ـ «ارتباك ابنتي ألهاني، فإذا به في الباب». واستدارت مقبلة صوب «أ.

دهر»:

- فجاءة صار الرجل في الباب. كنتُ أشرح لابنتي أمرَ صديقتها فإذا بالرجل في الباب، دون جرس.

ألقت المرأة كلماتها تلك في إكبارٍ للأمر يمازجه اعتدادٌ أنوثيّ: «ياي. لم أصدق»، واستدركت: «الصدقَ أنني توقعتُ ذلك. لا أعرف كيف. لكنني توقعتُ ذلك». وجثتْ على الأرض قرب ساقيْ «أ. دهر» الصامت:

- لم أستطع إلّا أن أقول تفضّل، فدخل محيّياً من تحت شاربيه المستقيمين.

وأطلقتْ همسةً نَهِمَةً «أووه»، ثم تلمَّست بسبّابتي يديها شفة الشاب العليا، كأنما ترسم فوقها شاربين: «هكذا». وأنزلت يدها على مهل حتى لامست بطنه، فضغطت عليه في رحمةٍ: «أتغار؟».

لم يُجهد «أ. دهر» نفسه في أيّ ردٍّ سوى أن استدار بوجهه إليها، وهو لمّا يزل في استلقائه على كرسيّه الوثير، ذي المساند العريضة العالية، وغمزها دون أن يعني شيئاً بغَمْزِه، فكرّرتْ: «أتغار؟»، وهي تمسك بتلابيب قميصه، متوعِّدةً في مرحٍ، فرفع الشاب يديه المرتخيتين إلى يدها، فوق صدره، وضغط عليها:

- ممن أغار؟ منه؟ من زوجك؟ أنت لستِ لأحد، فممّن أغار؟.

وفي برهة قليلة علا وجهها تساؤل: «أحقاً لستُ لأحد؟»، وقبّلت ذقنه، مردفةً: «ألست لك؟»، فلم يجبها «أ. دهر» في تلك اللحظة التي كانت عيناه تتبعان حركة فخذها اليمنى في جثوِّها، وهي تصطدم بالمنضدة الصغيرة لصق كرسيه، فتندلق من فوقها كأس عصير البرتقال.

لقد تتبّعَ الحركةَ مذ جَثَتْ ذاتُ الحَوَل الخفيف قرب ساقيه، وصارت تتقدّم على ركبتيها من صدره، رويداً رويداً. وكاد أن يحذّرها من ركبة رجلها اليمنى الذاهبةِ، خطأً، في اتجاه المنضدة، لكنه آثر الاسترسال في تأمل المشهدِ يكتملُ بالكأس المُهْرَقة.

قال لها منذ دخولها شقته: «أنت تحبين العصير، ولدي علبة من مسحوق البرتقال الرائع»، ثم حضّرَ كأساً من ذلك الدقيق الأصفر، المخفوق بالماء، ووضعها على المنضدة. غير أن الحولاء لم تشرب منها إلّا رشفة واحدة، ثم

نسيتها في غمرة التمهيد الطويل عن دخول الزعيم الشاب ذي الشاربين المستقيمين إلى شقتها.

لن نتدخل - نحن الخمسة اللا مرئيين - في السياق الذي أفضى بـ «أ. دهر» إلى عدم تحذير المرأة وهي تدلق الكأس، إذ كان عهدنا به يكره عصير البرتقال لما يسبّبه من حموضة في معدته. لكنه بدا أكثر انشراحاً لما ابتعدت المرأة عنه، مجفلةً من سقوط الكأس، وهي تشتم: «أخت القحبة» متوجهةً بكلامها إلى المنضدة، فسحب «أ. دهر» ساقيه الممدّدتين، مخفّفاً:

- لا عليك. المنضدة متعودة على ذلك.

وكان واضحاً أن الحولاء أخذت الأمر على محملٍ خفيف، بحقٍّ، فعادت تكمل ما لن ينتهي:

- تفضَّلْ. قلتُ له تفضَّلْ. فدخل مبتسماً من تحت شاربيه المستقيمين.

وسددت سبّابتيها في اتجاه شفة «أ. دهر» العليا، لتكرّر رسم صورة الشاربين، فأشاح الشاب بوجهه قليلاً، في ضجرٍ، فتراجعتْ إلى الوراء وهي لم تزل جاثية، وتأمّلته نصف معتذرة:

- «أنت تُسْكتني، أليس كذلك؟ معك حق، لقد أطَلْتُ». والتفتتْ صوب الكأس المُهرَقة: «أنا سأنظف البساط». ثم تابعت على نحوٍ مفاجئ، ومألوف:

- أشرتُ أن يجلس على الأريكة، فآثر الجلوس على الكرسي قبالي، ثم أخرج علبة تبغه فمدّها إليّ، فاعتذرتُ.

وأطرقتْ متمتمة: «أتعرف لماذا اعتذرتُ عن تناول اللُّفافة منه؟»، فمطّ «أ. دهر» شفته السفلى، فتراجعت الحولاء إلى الخلف أكثر، حتى غدت جالسةً على البساط، وهي ترفع يدها اليمنى إلى مستوى عينيها المُطرقتين:

- خفتُ أن ترتعش أصابعي.

رفع الشاب حاجبيه للتدليل على استغرابه، بطريقةٍ واضحةٍ في مجاملتها، لكنها لم تكترث لحاجبيه المرفوعين، إذ أغمضت عينيها نصف إغماضة:

- هكذا تأمّلني من خلف الدخان، فتداركتُ ارتباكي سائلة إن كان يريد شراباً، فهزّ رأسه نافياً، فألححت إن كان يهمه أمر حلوى صنعتُها أنا فتغافل

عن غَرْضي، سائلاً عن ابنتي التي لم تبارح مكانها قرب المكتبة، بعدما شرحت لي أمر صديقتها، ففوجئتُ.

وحدَّقتْ في «أ. دهر» تستنطقه: «ابنتي؟ ألم يكن ليفاجئك سؤال كهذا؟». والتفتت إلى الجهة اليمنى حيث هي جالسة، بينما ظلت عيناها على الشاب:

ـ هكذا. اكتفيت بالتطلع هكذا صوب ابنتي، فانحنى بنصف جذعه من على الكرسي، متطلّعاً بدوره إليها.

وسكتتْ منصرفةً إلى إدخال يدها تحت ثوبها، بين الساقين، مستخرجة محرمة ورقية مبتلة: «ما فائدة هذا الصمغ؟ ها؟». وقرّبتِ المحرمةَ من وجهه، مكملة: «من دونه أفضل. كل شيء من دونه أفضل. صمغ....». وأخرجت لسانها تتصنّعُ التقزُّز:

ـ «ع ع ع. نسلٌ. زيادة نسل. حيوانات تكبر لنسميها بأسماء آدمية. وما الفارق؟ يسمّون الحيوانات بأسماء آدمية أيضاً. غير أنني فوجئت. والله فوجئت»، ولكزتْ ساقه: «بدا على ابنتي أنها تعرفه. ابنتي التي لم يأتها الحيض».

ثم رفعت يديها معاً، مفردة أصابعها العشرة: «عشرة». وضمت من العشر سبعاً، متمتمة: «وهذه ثلاثة.. ثلاث عشرة سنة. نعم. أنا بلغت في الثالثة عشرة، لكن لا معنى لذلك. كنا نلعب أحياناً هذه اللعبة المعهودة بين الصغار من الجنسين، أمّا أن..»، وضربت صدرها بيدها ضربةً خفيفة، فارتجّ ثدياها المتحرّران من حمّالتها، التي كان من الممكن رؤيتها هناك، قرب ساق الكنبة، متكوّمة في خفرٍ بالنقوش البيضاء المُخرّمة على المكْمَنَيْن اللذين يخفيان، عادةً، حَلَمةً هنا وحلمةً هناك، دون تمويهٍ كثير، حتى لا يُخْدَشَ كبرياؤهما إذا انْتَصَبتا جميلتين، وهو ما اتّفق «أ. دهر» معها عليه:

ـ «جميلتان حلمتاك»، فتتلمّسهما المرأة ذات الحول الخفيف، الذي يبدو جميلاً في بعض الأثناء: «أعتقد ذلك»، تتمتم معقّبةً، وتفركهما فتنفتحان تحت بصر الشاب الذي لا يعجبه كثيراً إطراؤها هي لنفسها، فيعاتبها:

ـ يضيع جمالها كلّما قلتِ إنها جميلتان. ألا تكتفين بإطراء الرجال؟

فترد الحولاء متفكّهة:

ـ احب أن أُطري نفسي. أنا لا أكتفي بمديح شخص واحد.

فيغمزها «أ. دهر» متفكّهاً بدوره:

ـ «شخص واحد؟ وزوجك، ألا يطريها؟»، ويرفع يده اليسرى فارداً منها إصبعين: «صرنا اثنين». فتمد الحولاء يدها إلى يده، مطبقة على إصبعيه في قسوة: «واحد. واحد فقط». فيوافقها «أ. دهر» وهو يراها مختصرة إصبعيه: «صار واحداً». فترخي الحولاء يدها، غامزةً، كأنها تردّ على غمزته السابقة:

ـ زوجي لم يقُلْها. أخفيتها عنه حتى زواجنا، ولا أدري إن كان لاحظها بعد ذلك.

وقامت من مجلسها على البساط لتقتَعِدَ كرسياً قريباً، وهي تفرك ركبتيها المتصلّبتينْ قليلاً من جلستها تلك، مردفةً: «لست وحدي من يقول هذا. صديقاتي كلّهن يلاحظن غفلةَ أزواجهن عن الحَلَمات»، وترسم إشارة تنمُّ عن اختزالِ مسافةٍ: «من هنا إلى هنا»، أي من فمها إلى فرجها: «ينحدرون من هنا ـ دون المرور بأيِّ مكان آخر ـ إلى هنا». فيمسك الشاب بيدها النازلة إلى أسفل جذعها، في إشارتها تلك، هامساً: «ومن هنا إلى هناك»، صاعداً بها إلى فمها. ثم يقوم وقد واجهها بنصفه الأسفل: «إصعدي أنت أيضاً من هنا إلى هنا» مشيراً، بالتتالي، من أسفل بطنه إلى فمه.

كنا ـ نحن الخمسة ذوي الكثافات اللّينة كمسند كرسي «أ. دهر» ـ نشهد حركة الشاب تلك وقد بلغ اللا إكتراث منا مبلغه. ولسنا ندري إن كانت كلمة «اللا إكتراث» تليق بأحوالنا، وهي، عادةً، حالٌ من شأنِ هؤلاء المنسيّين في افعالهم المُدوَّنةِ على غير وجهها. لكن لا بأس من ذِكْر الحكاية، ونحن نعرف ما ستشهده الساعة الأخرى من الوقت بين الشاب والحولاء، إذْ سنعود إلى سرد ما ينبغي أن نسرده:

ـ حدّقَ في ابنتي مبتسماً، من مجلسه على الكرسي، ثم غمزها، فأشاحت ابنتي بعينيها عنه إليَّ، كأنها تتهرّب من أمر يعرفانه، فحرتُ. والله حِرْتُ قليلاً. لكنه فاجأني أكثر، إذ سألني السماح لابنتي بالتردّد على بيته، لتُراجعا ـ هي وابنته ـ دروسَهما، إذا لم يكن من مانعٍ. ولقد احسست أن جفن عيني اليمنى يرفُّ

من طلبه الهيِّن هذا، فأعدتُ النظر إلى ابنتي أتوسَّلها القبول، فأغضت من خجلها، فأبديت له قبولي نيابة عنها، ففاجأني قائماً من فوره: «بيتي مفتوح لك». قالها وخرج بطريقته العجولة كما دخل، دون أن ينسى المرور براحة يده على شعر ابنتي مداعباً.

ثم توقّفت لبرهة، مستعيدة كلماتٍ سبق أن نطقت بها: «حرثٌ. والله حرثٌ قليلاً». فسألتُ ابنتي إن كانت التقته من قبل، فأومأتْ إيجاباً. ولمّا سألتها: كيف؟ قالت إن صديقتها هي صديقة ابنة الرجل، وقد زارتاها، إحدى المرات معاً، فأطرى قامتها. ومضتْ متعجبة: «قامتها؟ ألم يلاحظ صوتها مثلاً؟».

فتململ «أ. دهر» في قعدته معقّباً: «والله إنه يشتهي ابنتك. لقد نضجت»، وأشار بيديه إلى صدره مكوّراً راحتيه على شكل ثديين صغيرين: «ألا ترينهما؟». وانحنى على الحولاء يجسُّ فخذيها: «في السنة القادمة ستكون فخذ ابنتك أكثر امتلاءً من فخذك». فضربته المرأة بيدها على ظاهر يده، في عتبٍ لا يؤبه له: «أظنك تشتهيها، أنتَ، لا هو»، فردّ الشاب: «ولِمَ لا؟»، رافعاً كتفيه في مزاحٍ لا يخلو باطنه من تأكيد. إذ ذاك قفزت الحولاء من كرسيّها لتصير في حجر «أ. دهر» ممسكة برقبته: «أيها اللعين»، وانهمرت عليه عضاً خفيفاً من كتفه، وصدره، وعضديه، بينما تلوّى الشاب بين ألمٍ ودغدغةٍ مَرِحةٍ، في العراك غير المُرْتقَب ذاك، نافخاً من حنجرته الضاحكة المختنقة: «أنا أمزح. والله أنا أمزح». فأفلتتْهُ دون أن تقوم عن فخذيه، سائلة:

ـ لماذا تظن أنه يشتهيها؟

فردّ «أ. دهر» وهو يقي صدره بيديه، خوف مداهمة جديدة من الحولاء بعضّاتها:

ـ ولماذا تسردين هذه الحكاية كلها، إذا كان في الأمر غير ما أقول؟

فسكنت المرأة تماماً، وهي تتأمله، وتشرد عنه، في البرهة ذاتها، كأنها تقْرِنُ ما تعرفه بالذي يقوله الجالسُ تحت ردفيها الممتلئين.

نعم. نستطيع أن نتمِّم، نحن الخمسة اللامرئيين، دورةَ تلك المرأة حول كلامها، ككرة صُوْفٍ يُستلُّ خيطُها فتدور متصاغرةً حول مركزها، وكذا

هي تتصاغر إجابتُها فتختصِرُ على نحوٍ ليس في طبعها:

ـ في أول قصف عشوائي قُتِلتْ زوجه مع أحد مرافقيه، على باب المدرسة، وهما ينتظران انصراف ابنته مع المنصرفات. ومن يومها يحيطها بأكبر قدْر من صديقاتها. ولمّا زارتها ابنتي مع صديقتها، لأول مرة، كان هو في البيت. وما لبث أن استدعى صديقة ابنتي ليتدبّر لها شيئاً من المطبخ، فذهبت الفتاة على مضض، كأنها تمضي تحت تهديد. وقد أطالا المكوث لتعود تلك الصغيرة إلى غرفة ابنته منقبضة جداً.

وقامت عن حجر الشاب لتعود إلى مجلسها على الكرسي، مكملةً:

ـ قالت ابنتي إن صديقتها تكاد تبكي كلّما ذهبت إلى بيت الرجل، ولمّا سألْتُها لماذا تذهبُ إنْ هي لا تحب ذلك، ردّت الأخرى: أهلي يجبرونني.

كان حديث المرأة الحولاء متشعباً ـ برغم محاولتها اختزالَهُ ـ حول خدماتٍ يقدمها الرجل إلى أهل الفتاة، في وقتٍ تقاسمَ الأقوياء ـ وحدهم ـ فيه خبزَهُ وبنزينه، إضافة إلى الشقق الفارغة التي هجرها من هجرها، فيمكّنون من سُكْناها من يتشفّع لهم الشفعاء المحظوظون. وقد باغتها «أ. دهر» بسؤاله:

ـ اتحتاجين شيئاً منه؟

فردت ممتعضةً: «هو؟ لستُ في حاجة إلى خدمات ربِّه حتى».

ولما استرسل سائلاً من جديد:

ـ «ولِمَ ترسلين ابنتك إلى بيته؟»، ردّتْ في استهجان:

ـ وما العيب في ذلك؟

فرفع الشاب كتفيه إشارة لا مبالاة:

ـ لا عيب. والله لا عيب. لكنك تخضّين أحشائي بسيرته.

فضربته المرأة، بغتةً، بقبضة مضمومة على إحدى رضفتيه: «أتغار؟».

فقام «أ. دهر» متثاقلاً يهم بالإنصراف، ودار حول نفسه نصف دورة، متمعناً في أشياء صغيرة من حوله، وعلى الجدران، ومن ثم عاد جالساً، كأنما ذكّرَهُ استطلاعه الصغير أنه في شقته هو. غير أنه لم يُخْفِ ما انتابه في وقوفه ذاك، تحت بصر المرأة المشغولة بانتهاك أعماقه، وأعماق شقته معاً، فتمتم:

ـ أنتِ تضجرينني.

فجاوزت الحولاء كلماته الفظّة، مسترسلة من حيث لم تبدأ ولم تنتهِ: «وما العيب في ذلك، قل لي؟»، فمدّ «أ. دهر» ساقيه أمامه، قائلاً: «التحقي بها أنتِ أيضاً». فردت: «سألتحق بها. ألنتَ تغار؟». إذ ذاك رفع الشاب راحة يده إلى أنفه يسدُّ بها كَرْكَرَةً حرِّيفةً تمهِّد للعِطاس عادةً، لكنه لم يعطس، بينما اغرورقت عيناه من أثر ذلك. ولمّا همّت الحولاء أن تعيد عليه السؤال ثانيةً، حين لم تسمع منه جواباً، أوقفها بإشارة من يده الأخرى، وهزّ رأسه كأنما ينفض عنه شيئاً علق به:

ـ «لماذا هذا كله؟ أنتِ، وابنتك، ومعبودك ذو الشاربين المستقيمين، وحرسُه، وسيارته العتيقة، وابنه، وصديقات ابنته، وزوجك؟»، وحدق فيها متحدِّياً: «وزوجك؟».

فقامت المرأة واقفة، مطوّقة خصرها براحتيها: «كل هذا نكاية بك». فرسم الشاب بعينيه ـ بل بحاجبيه ـ دَهَشاً خالياً من الدَّهش: «نكاية بي؟ ألنا مهم إلى هذا الحدّ؟».

كنا ـ نحن الخمسة اللا مرئيين ـ نلمح على وجه «أ. دهر»، في تلك اللحظات، شروداً كالذي كان يتحدث عنه إلى صديقه الرسام: «الشرود يباغت الناس فجاءةً»، ويرفع يديه على نحوٍ فيهما سؤال: «هو هكذا. الشرود شرود. غير أنني استطيع استحضار شرودي في أية لحظة». ويندفع مؤكداً: «والله لو كنت بين عشرين شخصاً يتحدثون إليّ، مباشرة، وأردت أن أشرد عمّا يقولون لشردتُ». ويُرْدِفُ بعد توقّف يستجلي فيه إصغاء صديقه: «ماذا عليك أن تفعل في موقف تتمنّى على الآخرين أن يختفوا فيه؟ أن يختفوا من أمام بصرك ومن سمعك؛ أن تعود كما أنت، وحيداً مكتفياً بك، تسأل نفسك وتجيب، حتى لو بَدَوْتَ مضحكاً، ساذجاً، أمّياً». وينفعل: «يا أخي لا أريد هذا الامتحان في المحاورات. إنهم يتدرّبون على التمكن من سماع ما يقولون بصوتٍ عالٍ، وأنتَ الوسيط. لذا أشردُ. لا أريد أن أكون وسيطاً. أنا لا أتآمر مع الصوت».

وتعجبُهُ جملته: «لا أتآمر مع الصوت»، فيحدّق جذلاً في صاحبه: «أتستطيع ان ترسمها؟»، فيرد الرسام: «أرسم ماذا؟»، فيتمتم «أ. دهر»:

«أتآمر مع الصوت. ارسم مؤامرة طرفاها أنتَ والصوت».

نعم. كان شروده المباغت في حضور الحولاء الواقفة صورةً عمّا يستحضره لنفسه من شرود. فقد لكزه الرسام ذات مرّة، وهو يشرح لـ «أ. دهر» اللونَ الحائلَ في الإطار الخشبي للنافذة التي تبقى وحدها، على قماش لوحته، حين تختفي العمارة المقابلة التي يتناوب على رسمها كلما اختفت، فالتفتَ مُجفلاً: «ماذا؟»، فسأله صديقه: «لقد شردتَ، ها؟ اخترعت شرودك بنفسك؟!» وابتسم مضيفاً: «ماذا تفعل لتشردَ؟».

فردّ «أ. دهر»: «أحوِّل نفسي إلى سحابة».

نعم. لم يكن ذلك ادّعاءً ذا نكهة كالمَزح في كلام المتمكِّنين. فنحن الخمسة اللا مرئيين أشْكِلَ علينا، مراراً، ذلك الإنفلاتُ الغريب للشاب من صورته، وهو يغدو ـ رويداً رويداً ـ سحابةً تلتفُّ وتنعقد. وكان يعرونا ما يعروه، كأنما نتآلف، في اقتدارٍ لا ندري أهوَ القائمُ به، أم نحن. وكان الأمر ليِّناً. هكذا يجب وصفُه: ليِّناً، متمدِّداً، تستعيرُ ذرَّة الشَّكل تكويرَها من الوقت.

نعم. جهاتٌ تتداخل. ظلام خفيف وضياء خفيف يتدهْانِ معاً، تحت مظلّات من جوهرٍ باردٍ، تنغلق وتنفتح بلمسٍ من اليد الخفية للسماء المحتجبة خلفها، كأنما تؤكد المرايا العظيمة للمرايا العظيمة أن في اقتدارها رسم الصورة الواحدة على نحوٍ مختلف، بحسب فراغها الذي يلي الكثافة.

والكثافةُ!؟. ما الذي يمكننا أن نضيف إليها أكثر من هذا المُشْكِلِ الذي هو مُشْكِلٌ محض؟. لا بأس. الكثافة مُشْكِلٌ، لذلك يُسْعِر الفراغُ خلافاته، في المركز، حيث يهيمن «أ. دهر» بشروده، وقد صُيِّر نفسه سحابة تتدرّج من تكويرٍ ذي ظلالٍ إلى استواءٍ ماكرٍ، ومن باردٍ إلى باردٍ ينفخ بعضه على بعضٍ بلهاثِ المشيئةِ الفاترِ، فيتجاورُ الحَبَبُ المائيُّ ليتَّصلَ و يَثْقُلَ، فينحدر وسط نميمة الهواء، من الأعلى الساخرِ في إعلان ذاته إلى الأسفل المفطوم على حيلةٍ باطنه. وإذ تتغلغل القطرات إلى ظلام التراب، حيث تشي الجذورُ بالمياه، تنقسم القطرة الواحدةُ أمزجةً أمزجةً، وتتنافر الأمزجة بعد ذلك وتتنابذ، لتأخذ كلُّ رطوبة هناك حظَّها في الظلام المدقّق ـ كالريح ـ في

الخلجات الحيّة لِمَا سيشقّق قشرة التراب بأنامل من شهوةٍ، ويحتفل النُّور بقيوده النّباتية.

نعم. قد نسردُ إستفاضةً من قوام الممكنات، في الأسفل البِطران المتحلِّل من تراب بطران، يلهي بسخائه تارةً وبسُخْته تارةً، فتتلوَّن السطوح المرئية لفكرةِ الأرض (والأرض فكرة، كما تزعم المرأة ذات الحول الخفيف) بالزَّفير المميتِ أو المُحْيي. لكننا سنبقى في الأشملِ المُسْتعار من حال «أ. دهر»، وهو يصعدُ من الظلام بخاراً ـ بعدما انحدرَ إليه قَطْراً ـ رقيقاً يغزل الفراغَ النُّورانيَّ غَزْلاً أليفاً، فتنعقد السحابةُ التي انحلَّتْ ـ من قبلُ ـ كَرَّةً ثانيةً، على هذا الشّكل أو ذاك، ليِّنةً، قديرةً في تكتّمها على المكان الذي ستخُصُّه بغَزْلها الرُّطب.

نعم. هو سحابة. كذا يقرِّرُ فيكونُ. وما على صديقه الرسام، والحال على ما يراها، إلاّ أن يجاري «أ. دهر» على مُزَاحٍ، فيهمهم بدوره:

ـ «وأنا أريد أن أشرَدَ». ويضحك ضارباً ركبتيه بقبضته: «غير انني لا أحبّ السحب». ويتخذ وضعاً كمن يتفكّر: «فلأحوِّل نفسي إلى فراغ». ويكاد يستلقي على ظهره من مَرَحِه المُداهم: «فراااغ»، رافعاً ذراعيه الطويلتين كمشحوذ يُقْنع طفلاً لم يقتنع، فيسرف في حَرَكات خَرْقاء، نافخاً من تحت شاربيه:

ـ لا جاذبية. لا شُكل. لا هبوب. لا غواية. لا لون. لا قماش. لا عَتَلة لرفع الأرض. لا أفق. لا فرشاة. لا لهو. لا يقين. لا لهاث. لا هندسة.

ويغمزُ بعينه متفكّهاً: «لا هندسة فراغية. لا جبر. لا فيزياء. لا جديد. لا قديم. لا ضلالة. لا حَقّ. لا نحي. لا بشارة. لا ترف. لا عدس».

وينهض صارخاً: «عدس. عدس»، متقدماً صوب الباب الزجاجي في الجهة الجنوبية من شقته، وهو يحدّق في العمارة المقابلة، معتكرَ المزاج، فجاءةً، وهو يكمل: «لا عدس. لا كلاب. لا شرفات. لا طينَ في ثياب النوم. لا ألَق. لا فرج. لا منيّ. لا حزب. لا عائلة. لا نهاية. لا سرّ. لا انقطاع. لا نافذة».

ويستدير عائداً إلى اللوحة المثبتة فوق عارضين خشبيين، فيضربها بقبضته، فتتارجح، فيمسك بها «أ. دهر»، وهو الجالس، خشية السقوط.

لكن الرسام يظل مسترسلاً: «هذه النافذة غير موجودة في الفراغ». وتحاوده روحه المرحة فيهمس، ناظراً إلى الشاب الواجم قليلاً: «هذه النافذة غير موجودة، وأنا غير موجود في الفراغ. الغد غير موجود. الفراغ فراغ: نبيٌّ يبشّر بديمومة القهقهة». ويلكزه بقدمه لكزة خفيفة: «قَهْقَهْ. قَهْقَهْ، وسترى الفراغ بعينيك. إنه كهذه النافذة»، مشيراً إلى النافذة التي تبقى في اللوحة حين تختفي العمارة، ثم ينحني ملتقطاً لُفافةً يقدّمها إليه «أ. دهر» في استلقائه، ويظل منحنياً حتى يشعلها الشاب له بشمعة لم يبق إلاّ عقبها، فيعود ـ بعد ذلك ـ مستقيماً، طويلاً جداً، ذاهباً بنصفه في فراغٍ مَا يستطيع «أ. دهر» استشفافه من مكانه لصق أرض الشقة، وهو ينظر إلى الأعلى المُغْرق في بُعْده؛ الأعلى الضائع تحت سقف الغرفة لولا جمرةُ لُفافة الرسام، الذي يتقدم، بغتةً، صوب شمعة فوق كُتب مركومة، تعكس لألأةً واهيةً على مرآة مُلْصَقة إلى الخزانة التي تقسِّم الشقة قسمين، فيطفئها بنفخة. فيرتفع ـ مع الانحسار المباغت لكثير من الظلال ـ صوت «أ. دهر»:

ـ لماذا أطفأتها؟

فيرد صديقه: «وما الفارق؟ أغمِضْ عينيك تَرَ المشهد. افتحْهما تَرَه». وينفخ دخان لُفافته، فتتدوّر الحلقاتُ حول لهب شمعةٍ لا يُرى إلاّ انعكاسه، خلف جهاز التسجيل القائم على طاولة واطئة. ويتقدم صوب المكتبة فيقرفص، مستنداً بظهره إلى الرفوف:

ـ «اللوحة هناك. والعمارة هناك. وأنت هنا. وأنا هنا»، كأنما يحدِّد بالإشارات مسافة كل موقعٍ من الآخر. ويستدرك: «لا. أنا لستُ هنا. أنا في الفراغ»، مُرْفقاً صوته بضحكة مكتومة: «الفراااغ كلّه هنا، وأنا في المركز». ويتحسّس بيده قدمَ «أ. دهر» فيهزّها: «وما الذي ساحسّه إذا كنتُ في الفراغ؟». ويجيبُ دون تردّد: «لن أحسّ إلاّ الفراغ». ويرفع كتفيه في تساؤل «من يدري؟ ربما استطعت ـ آنئذٍ ـ أن أدخل العمارة المقابلة من النافذة التي على قماش اللوحة. هنا». ثم يقوم ناقراً بإصبعه على النافذة الموسومة: «هنا. من هنا. من هذا الفَرَج سأدخل العمارة». وترتفع قهقهته من جديد، ملتفتاً إلى «أ. دهر»:

ـ إطمئنْ. سأمرُّ بأهلك مُسْرعاً حتى لا أُحرجهم.

فيتململ الشاب الجالس، وقد رَكَن بظهره إلى الحائط، وضمَّ ساقيه إلى صدره، سائلاً:

ـ وبِمَ تُحرجهم؟

فيردُّ الرسام: «بأخبارِك». ويصمتُ قليلاً، منتظراً تعقيباً من «أ. دهر»، أو طلباً للشرح، كأن يسأله: «وماذا عن أخباري؟»، مثلاً. غير أن الشاب المستند بظهره إلى الحائط لم يُبْدِ أيَّ اهتمام. فكرّر الرسام قوله ليستثيره: «أخبارك. أخبارك. لو عرفوا أنك لا تعرف أنهم يقطنون إلى جوارك..»، فحدَّق فيه «أ. دهر» مبتسماً بدوره:

ـ الأفضل، إذاً، أن تمضي إلى الشقق الأخرى، في العمارة، مسرعاً.

لكن صديقه لم يبارح جوَّ مساءلاته: «ألا يعنيك ـ فعلاً ـ أن أتوقَّف عندهم قليلاً؟». فهز «أ. دهر» رأسه نافياً: «لا. لا يهمني». فاحتدم الرسام احتداماً خفيفاً: «سأتوقف عندهم، إذاً»، فرد الشاب: «تناول العشاء، أيضاً، إذا شئت». إذ ذاك استدار الرسام، الذي كان واقفاً في مواجهة لوحته، صوب «أ. دهر» بكل قامته، هامساً في عتب: «لماذا لا تساعدني في الدخول إلى تلك العمارة؟». فاستثار السؤالُ الشابَّ الجالسَ، فنهض متثاقلاً، ضجراً. وإذا استوى واقفاً بقامته المتوسطة أشار إلى اللوحة: «كيف تريدني أن أساعدك؟. هات حذاءك. سأعطيكهُ حين تدخل من النافذة. هيا، ادخل». وأمسك بساعدِ الرسام متمتماً: «ادخل يا أخي. أم تريدني أن أناولك معطفك؟». ثم رفع وجهه إلى وجه صديقه الذاهب في الفراغ العالي كضبابٍ يتدلى من سقف الغرفة، وأردف: «أنا على استعداد أن أناولك أيَّ شيء تريد. ادخلْ من النافذة أولاً، وسأمدُّ إليك بحبلٍ، وبشمعة أيضاً». وتوقَّف مستدركاً: «أتريد ملابسَ داخلية؟ ربما ارتأيتَ أن تظلَّ هناك»، وهزَّ ساعدَ الرسام: «هيا. ادخلْ من هذا الفَرْج»، ونَضْنَضَ بلسانه على نحوٍ شهوانيٍّ، فشدَّ الرسامُ ساعدَه من يدِ مُحدِّثه، في حركة لا تنمُّ عن استياء؛ بل عن محاولة تقدُّمٍ في اتجاه النافذة المرسومة على قماش اللوحة، متمتماً:

ـ سأدخل العمارة. ساعدني.

فأرخى «أ. دهر» قبضته عن ساعد صديقه، متمتماً بدورهِ في صرامة:

ـ أتريد أن تدخلها الآن، حقّاً؟

فبدا الرسام، في تلك البرهة، متردّداً بكلّه، وهو يحدِّق في لوحته، ثم تدارَكَ حالَهُ، مرتدياً قناعَ اعتدادٍ لا يُخفي التردُّد الظاهر على قسماته:

ـ «سأدخل. نعم. سأجاوزُ أهلك»، والتفت: «لا أمزح». بعد ذلك استعادَ مواجهتَهُ للوحة كأنما يخاطبها: «لا أمزح. سأدخل من هذه النافذة. وسأُسلِّم. لست أدري. ربما قلتُ مرحباً، أو ظللتُ صامتاً في عبوري من شقة أهلك إلى الباب، ومن ثم إلى أيّة ردهة في الطبقة الثالثة، وكل ما يلي ذلك سيكون رهنَ ما أريد». وأرخى شفته السفلى، التي بدا طرفٌ منها في نور شمعةٍ آتٍ من مكان مّا:

ـ «تستطيع أن تراني من هذه الشرفة»، مشيراً إلى شرفة شقته هو: «من هنا. وكلّما ظهرتُ على شرفة في شقق العمارة المقابلة سألوِّح لك».

فباغتهُ «أ. دهر» في تفكّهٍ مكتوم: «وما الذي ستفعله هناك، صاعداً هابطاً؟».

فرد صديقه، في تأكيد: «سأرسم عمارتنا شقةً شقةً، حتى أعرفَ الجهةَ التي ستميل إليها حين تنهار».

فحدَّق فيه الشابُّ سائلاً: «وما الذي يهمك في ذلك؟ لن تكون هنا».

غير أن الرسام جاوز الأسى الواضح في نبرةِ صوت صديقه، مستطرداً: «يهمني أن أحدّد مكانك بين الأنقاض». والتفتَ للمرة المائة إلى «أ. دهر» وهو يرفع إحدى كتفيه: «وكذلك لوحتي».

فسأله الشابُّ ممتعضاً: «وما الذي يهمك من هذه اللوحة حين ينهار كل شيء؟»، فأجابه الرسام: «الفراغ. الفراغ». ورفعَ صوته على نحوٍ مباغتٍ، كأنما ينصت إلى تجويفٍ مّا في الحروف: «الفراااغ»، مردفاً بعد سكونٍ هيِّنٍ:

ـ ألا ترى؟ كل ما حول النافذة فراغٌ محض.

والتفت ليمسكَ بساعد «أ. دهر»: «ألا ترى؟ النافذة إشارة للتَّدليل على الفراغ الذي يحيط بها». فأفلت الشابُّ ساعدَه من يد صديقه، التي بدتْ أصابعها خشنةً بعضَ الشيء في إطباقها على اللحم والعظم معاً، هامساً:

- «حيّرتني. أتريد النافذةَ أم الفراغ؟»، وأشار بيده إلى اللوحة: «ادخلْ من النافذة، ووفّرْ علينا هذا الحكي».

فردَّ الرسام ضاحكاً: «لقد دخلتُ يا أحمق. أنا أخاطبك من هناك».

فهزَّ «أ. دهر» رأسه ساخراً: «نعم. تخاطبني من هناك»، وقام متجهاً إلى الباب الزجاجي المفضي إلى الشرفة: «سألوح لك»، وهو ينظر إلى الخلف: «ألستَ هناك؟»، وقهقه: «سألوّح لك من شرفة شقتك». ثم اتخذ وضعاً جاداً في تعبيره: «على أية شرفة أنت من العمارة المقابلة؟ الأولى؟ الثالثة؟ على السطح؟». وردَّدَ: «على السطح؟ جميل أنْ تكون على السطح. سأضطر إلى تظليل عينيَّ بيديَّ لأراك» واستدرك: «أنا آسفٌ. الوقت ليل. أضيء وجهَكَ بعود كبريت لأراك»، مضيفاً في سخرية: «لست في حاجة إلى ذلك حتى. وميض القذائف سينيرك كملاكٍ، وستكون الأول من نوعك. نعم. ملاكٌ منير. ملاكٌ مُضاءٌ بقذيفة، والشيطان ذاته سيغار منك».

لم يعلّق الرسامُ، الذي انعطف قليلاً ليقف خلف لوحته التي حجبت نصفه، في مواجهة «أ. دهر»، مسترسلاً في الظلام الخفيف: «كل هذه السنين. كل.. أقصد عمرَ هذه الأرض. أقصد أننا - طوال السنين المعلومة في نشأة الإنسان - نحاول الإتفاق على أنَّ ما من أحدٍ يفهم الآخر»، وتوقف ليضيف: «ما من أحد يفهم الآخر، وهذا سرُّ الهدنة بين شخص وشخص».

وابتسم ابتسامة رضى: «تلك نعمة ألاّ يفهم الإنسانُ الإنسانَ. لكن يأتي أحمقٌ ما ليقول إن الآدميَّ يفهم الآدميَّ، ويقدِّم براهين على واقع النساء في المجتمع، فينفجر الخلاف الدمويّ».

فسأله «أ. دهر» على طريقته: «أيقدِّم البراهينَ على واقع النساء؟ أنت تنسى واقع المصعد في عمارتنا».

فردَّ الرسام: «هذه ليست مزحة. المصعد سبب الحرب». وابتعد قليلاً عن لوحته: «كان هذا الذي تعرفه.. هذا القائد الذي يحمل قبّعته أبداً في يده، حتى لا يبدِّد تصفيفة شعره، يصعد إلى العمارة يومياً. أنا لا أعرف من يزور، لكنه يحضر يومياً. وإذا غاب حضر مرافقوه. لا أعرف لماذا، بيد أنهم يتناوبون على الحضور، وهذه ليست مشكلة. فليحضروا. الكلّ يردّد:

فليحضروا. والصدقَ أنّ ما من أحد أبدى اعتراضاً».

فضحك «أ. دهر» معترضاً: «من أين تظنُّني جئتُ لتسردَ عليَّ هذا؟».

فاسترسل الرسام: «إنني أذكّرك. لا. أنت تتذكّر بالطبع أن مجيئه كان بسبب مشكلة، إذ ليس لأحد أن يستقلَّ المصعد حتى خروجه من العمارة. فكان القاطنون يصعدون الأدراج الى شققهم، هُمْ، وأولادهم، وآباؤهم، وأحفادهم، أجمعين. أنت تذكُرُ ذلك؟ لا بأس. أإمتعضتَ أنتَ من الأمر؟ لا. لم نمتعض. ثمت خوف على حياته، والحذر ضرورة. بيد أن مرافقيه الذين كانوا يحضرون في غيابه إلى العمارة جَرَوا على التقليد ذاك، فمنعوا الناس من سلوك المصعد. تتذكَّرُ ذلك؟ قلنا لا بأس، لكن البعض من القاطنينَ لم يَرُقْهُم الأمر..».

فقاطعه «أ. دهر»: «وأنا لم يَرُقني الأمر».

فضحك الرسام: «لكنك لم تفجِّر المصعد. أنت عصبي، والعصبي يرتبك دائماً».

فتمتم «أ. دهر»: «أتظنُّني جباناً؟».

فأردف الرسام: «لا علاقة للارتباك بالجبن». وأضاف: «الارتباك بحث عن يقين، والجبنُ قناعةٌ ثابتةٌ بالنجاة. أما المتهوّرون مثلك..»، وردّدَ: «مثلك..»، فقاطعه «أ. دهر» من جديد، لمرّةٍ لا يعلم عددها: «لستُ متهوّراً».

فتملّص صديقه الرسام من الإجابة: «أحدهم فجرَّ المصعد. لا أنتَ». وإذ همَّ الشابُّ باعتراضٍ مَا لم يكن مقتنعاً هو نفسه به، أشار صديقه عليه بحركة من يديه معاً: «لا بأس. طار المصعد. وماذا بعد؟ بُمْ. بُمْ. بُمْ». وصار يقلّد صوتَ القذائف:

- قصفتْ ستَّ عشرة جهة - قائدُنا هذا - دون تحديد، متهماً الأرضَ والسماءَ بالتآمر على حياته. وها هو، منذ آخر حفلٍ خطابيٍّ، قبل سبع سنين، يقيم في صالة السينما الواقعة فرسخين أسفل العمارة نصف الدائرية.

فتمتم «أ. دهر»، مازحاً: «جميل أن تقيم في صالة سينما». ومضى متسائلاً: «أتظن أن فيها مولّدات تهوية؟».

فحدّق فيه الرسامُ من وراء جمرةِ لُفافته: «الموتى لا يحتاجون إلى مولِّدات تهوية. وهم أقلُّ إلحاحاً منّا على هذه المحاولات المقيتة ليفهم أحدُهم الآخرَ».

فقاطعه «أ. دهر»: «سألتك إن كان القائد يحتاج إلى مولّدات تهوية في قبوه؟».

فرد الرسام ساخراً: «مات. منذ سبع سنوات وهو ميت. وقد شكك، حتى الآن، تسعة عشر حَرَساً من حرّاسه في بقائه حياً فاختفوا».

فعاد الشابُ يسأله كعارف بالأمر، لكنه يتوخّى تأكيداً يدعمُ ما يعرفه: «ومن يدير هذه اللعبة؟»، فضحك الرسام مجيباً: «ما من أحد يديرها. هي تدير نفسها. اتقنتْ ما كانوا سيفعلون، فاسترسَلَتْ من دونهم. فقرّروا، والحال هذه، أن يكونوا خطباءَ وقائعِ اللعبةِ، لا أكثر».

فتداركه «أ. دهر» في مرح: «إنهم خطباءُ اللعبة، أما أنت فخطيب ماذا؟».

لقد عنّ للرسام، في البرهة ذاتها، أن يبادله مَرَحاً بمَرَحٍ، فهمس متصنّعاً الحَذَرَ: «أنا خطيب الفراغ».

فاستدرك «أ. دهر» هامساً: «آه. نسيتَ أنك هناك، في العمارة المقابلة».

فأكمل صديقه الرسام: «نعم أنا هناك. واسمعْ ـ الآن ـ لغط النساء في الشقة التي تجاور شقة أهلك». وتمعّن في عيني «أ. دهر» قائلاً: «أتريد أن تسمع اللغط؟ أستطيع نقلَهُ إليك عبر هذه النافذة»، مشيراً إلى النافذة المرسومة على قماش اللوحة.

فعاجله «أ. دهر» متهكّماً: «لا أريد أيَّ برهان على واقع النساء، فذلك سيفجّر الخلافَ الدمويَّ».

إذ ذاك، وفي حركة عصبية، حكّ الرسامُ جمرةَ لفافته بالجدار كأنّما يطفئها، فهوتْ، كمجرّةٍ صغيرة، ذرّاتٌ من اللهب في الظلام الخفيف، حتى أن «أ. دهر» هتف بصاحبه محذّراً: «إنتبهْ. ستحترق الكتب»، فلم يَحِدِ الرسامُ ببصره عن الذرّات، في سكونه، بل مضى يكمل جملته الماضية: «سأنقل لغط النساء حتى ينفجر الخلاف الدموي مثل هذا اللهب». وتمتم دون أن يتحرك: «على

الخلاف أن يستمر. الخلافُ محاولة للبقاء. الخلافُ حفاظ على النوع، وحفاظ على السر».

فسأله «أ. دهر»: «أيّ سرٍّ؟».

ـ «سِرُّكَ. سِرِّي»، قال الرسام، مضيفاً: «سِرُّهم. سننقرض إذا لم يكن لنا سِرُّنا. والخلافُ تأكيد للسرِّ حتى لا ينكشف».

فعاد الشاب يسائله: «وما سِرُّنا؟».

نعم. لم يكن على الرسام إلاّ أن يبتسم كواثقٍ من معرفته الواثقة، متمتماً من جديد، حتى ليكاد صوته يذوب في ذبالة شمعةٍ تترجرج في مكانٍ مَا:

ـ إستمعْ. أنا أسألك، بدوري، لماذا هذه المحاولات الإنسانية لفهم الآخر؟ لماذا هذا الدأب على خَلْقِ إشكال أبديّ إذا فهم أحدُنا الآخر؟ لماذا هذا الإسراف في أن نجعل من الآخر مسألةً مفهومة؟. من هنا بدأت ظاهرة القتل، وستستمر للحفاظ على أُلفنا ككائنات تعرف كيف تتكتّم، في ألم صامت، على أسرارها.

لكن «أ. دهر» عاد إلى لجاجته في المُساءلة: «أيّ سرٍّ تعني؟»، فانتفض صديقه الرسام مهرولاً من جدار إلى آخر، وهو يُهَمْهِم: «هذا هو سِرُّنا»، مشيراً إلى النافذة المرسومة على قماش اللوحة، ومن ثم يتحوّل عنها إلى شرفة شقته، صارخاً: «تعال. تعال. ذلك هو سِرُّنا»، مشيراً بيديه إلى الطبقة الثالثة في العمارة المقابلة. فَهَمْهَم «أ. دهر» دون أن يبارح مكانه:

ـ كلامٌ مُعَادٌ. النساءُ لسن سِرَّنا.

فالتفت إليه صديقه محشرجاً من تحت شاربيه:

ـ لا أقصد النساء يا أحمق. أقصدُ أهلك.

لكن الشاب حاول صرْفَ الرسام بطريقة تنمُّ عن بَرَمٍ بالموضوع، هامساً بصوت واضح: «فلنبقَ مع نسائك في الشقة التي تجاور شقة أهلي». ثم انفجر صارخاً: «من أين أتيتَ بأهلي؟ لن تهتدي حتى أشباحهم إلى هذه المدينة».

فبدا الرسام واجماً، بالرغم من عدم وضوح ملامحه، ثم أرخى كتفيه كمن لم يفهم أمراً، لكنه جاوزَهُ، وتمتم ضاحكاً:

ـ «فلنبق مع النساء، إذاً، في لغطهن هناك»، واستدرك: «.. في لغطهنّ هنا، لأنني في العمارة المقابلة، الآن، قرب الشقة التي يحتدم فيها النقاش النسوي حول المرحلة الخامسة من تحرُّرهنّ. لكنني لا أستطيع نقل أيّ شيء من ذلك. أتدري لماذا؟»، والتفت إلى «أ. دهر» مكملاً: «لأنها مرحلة تتعلّق بما بعد الموت».

فضحك الشاب سائلاً: «إنهنّ يتبعن الله بالعرائض». وتوقف برهة ليسأل بعدها: «وما المراحل الأربع قبل دخولهنّ الأبديّةَ؟».

فردّ الرسام: «لم أصغِ إليهنّ طويلاً، من قبل، لأنني كنتُ أنشغل بتقصّي القذائف: من أين تنطلق، وأين تنفجر. وكان حظي أنهنّ لا يجتمعن للنقاش إلّا في أيام القصف المدفعي، فلم أحظَ إلّا بجُمَلٍ مثل «هَدْمُ الجسد» ـ «تدمير الجسد» ـ «فضيحة الذكر» ـ «المعنى الأنثوي للحرب». وحين كان ينتهي جدالهن، في هدنات القصف القصيرة، كن يتفرّقن متّفقات على تجهيز شطائر خبز للمحاربين، وتلك مهمةٌ نبيلةٌ على أية حال».

فردّد «أ. دهر»: «نبيلة. النساء مفطومات على النُّبل. وإذا أحبّتك امرأة فأنت نبيل بالتأكيد. أيْ..»، وابتسم دون سخرية: «أيْ إذا..»، فأجابه صديقه الرسام:

ـ تعني إذا لم تُحبّني كنتُ نبيلاً، أيضاً.

فضحك «أ. دهر» مجلجلاً: «أأنت تقرأ أفكاري؟».

فردّ صاحبه: «لا. أنا في العمارة المقابلة، الآن، وارسم عمارتنا شقة شقة، فتتداخل حوارات قاطنيها مع الألوان التي أثبتُ بها الأشكالَ». ورفع يده هامساً: «لا تقاطعني. هذه خبرتي، ولو كنتَ في مكاني لعرفتَ ذلك». ثم أطلق جملة تتحلّ بيقين أليف: «كل عمارة تفضح قاطنيها، بهذه الطريقة أو بخلافها. بل تحدِّد العماراتُ لقاطنيها نبرةَ الصوت نفسه إذا تحاوروا». ولم ينتظر تعليقاً من الشاب على ما يقول، بل استرسلَ: «ساوضح لك. أنا الآن في العمارة المقابلة؛ في الطبقة الخامسة التي تواجه شقّتي، وأنا أراك فيها، قربَ هذه الشمعة، متوجّهاً ببصرك إليّ. غير أنني لستُ معك، بل أرسمك من هناك، وأنتَ تظنّني معك، فما الذي يتبدّى منكَ من موقعي؟ سأشرح لك فانتبهْ»، ثم

دفع لوحته القائمة على العارضين الخشبيين، فتلقّفها «أ. دهر» على نحوٍ تلقائيٍّ خوفَ أن تسقط، فقهقه الرسام صارخاً:

ـ أنت تلقي نظرةً من النافذة عليّ..

فتساءل الشاب: «أتعني النافذة التي في اللوحة؟».

فردّ الرسام: «أهنالك نافذة أخرى في هذه العمارة؟ أنت تلقي نظرةً متلصِّصةً عليّ وعلى ما أرسمه من عمارتنا».

فما كان من «أ. دهر» إلّا أن مسّ اللوحة، هامساً في مَرَحٍ: «سألتقطك من شُبّاك هذا القماش، ولربما التقطتُ العمارةَ المقابلة كلها فأعدتها إلى مكانها هنا» وهو ينقر على لوحة صديقه، فسارع الأخير الى تنبيهه:

ـ لن تشعر بيدك إذا أدخلتها من نافذة اللوحة. ولستُ أدري إذا شعرت بباقي جسدك بعد ذلك.

فسحب «أ. دهر» يده في حَذَرٍ قَلِقٍ، ثم انفجرا، بغتةً، ضاحكَيْنِ معاً.

نعم. كنا نصغي إليهما قليلاً، في ذلك الظلام الخفيف المليء برائحة التربنتين وبالتعب. وكنا نشرد كثيراً ـ نحن الخمسة اللا مرئيين ـ في حين لم يكن لأمثالنا أن يَشردوا. غير أننا كنا نتهيّأ، على نحوِ عذب، للاقتراب من ذلك المجال المحيِّر لشكل «أ. دهر» (وكلُّ شكلٍ مُحيِّر على أية حال). ونحن نستعير كلمة «عذب» منه نفسه، من كثرة ما يردّدها حين تحكُّ الخادمُ، المستأجَرةُ ليوم واحد في الأسبوع، إخمَصيْ قدميه.

نعم. كان يتلوّى، وهو مستلق على بطنه فوق الكنبة، نافخاً: «عذب. عذب.. واااو»، فتتهدّده الخادمُ البدينة في دلالٍ:

ـ «سأتوقف إذا استمررت في الصياح. ماذا سيخطر ببال جيرانك إذا سمعوك؟» وترفع يديها عن قدميه، فيحثّها: «هيا، بالله عليك، وليظنوا ما يريدون»، فتعاود حكَّ إخمصيه، هامسةً:

ـ رآني البعض داخلاً إلى شقتك، فماذا سيظن مع هذا الصراخ والعياط؟

فيبادرها «أ. دهر» هازئاً: «سيظنون أنني أستنجد بهم ليردُّوك عني»، ويمتزج ضحكه بما يحسه من دغدغة، فتضربه الخادم بكفّها ضرباً خفيفاً على

ربْلَتَيْ ساقَيْه، موبخة:

ـ ساقول إنك تختصبني.

كان «أ. دهر» قد ابرَمَ عقداً شفهياً مع الخادم، على أن تتولّى تنظيف شقته ليوم واحد في الأسبوع مقابل أجر. غير أنه استدرجها، حالاً بعد حال، إلى حكّ إخمصيْ قدميه، وقد أعفاها من تنظيف البيت، فتردَّدتْ أول الأمر قائلة:

ـ حرام أن تعطيني هذه النقود مقابل دغدغةٍ سأسديها لك مجاناً، علاوة على تنظيف البيت.

لكنها خضعت، أخيراً، لإلحاحه: «وماذا يزعجك؟ حكُّ قدميْ أسهل من تقصّي الغبار في هذه الزوايا». واستسلما، هو والخادم، إلى مَرَحٍ طفوليٍّ، بعد ذلك. يقهقهان. يتبادلان القَرْص الخفيف على السيقان والخصرَيْن. يتمتمان جُمَلاً غير منظورة الحروف، ومُخْتَبَلة على السمع.

كان شحمها يترجرج من تحت الثوب الأسود الذي درجت على ارتدائه، في موضع البطن تحديداً، وعلى الوركين، إذ تنكبُّ على مداعبة قدميه، وكان هو يلقي بساعديه إلى الخلف، نحو الجدار الشمالي للشقة فتخترقانه، كان ذلك الإسمنت ليس إلاّ هواءً كثيفاً. وإذ تصير يداه إلى الخارج ـ نحني خارج العمارة، من خلل ذلك الحاجز الطري الذي هو جدار محض في غُرَفِ البناء ـ يسحبهما بغتةً، ناظراً إليهما في استغراب، ثم يعود فيلقي ببصره إلى الجدار فيراهُ على أتمّ كثافته. غير أنه يعيد اللعبة، فيستلقي، آن تداعب الخادم إخمصيْ قدميه، مادّاً ذراعيه إلى الوراء، ثانية، حيث الجدار، فتخترقانه، فيسحبهما من جديد.

كانت لعبة اختراق الجدار بذراعيه تستفحل يوماً بعد آخر. وكانت الإجفالة، التي أحسَّها أول مرة، تتراجع، حتى أنه بات يمدُّهما إلى الخلف مبتسماً في انتشاءٍ واضح. وإذا ألقينا نحن الخمسة اللا مرئيين، ذوي الكثافات المتناظرة، نظرة إلى الجهة الأخرى من الجدار رأينا يداً رحيمةً، شفيفة، كأنّما جَمَّعها الهواءُ في اقتداره على الرَّسم، تمتد من الفراغ الشفيف، فتداعبُ يديه، فأدْرَكْنا سِرَّ ذلك الانتشاء.

وقد باغتَ «أ. دهر»، بعد تلك الأثناء بزمنٍ، صديقَهُ الرسامَ:

ـ أثمت يدٌ خلف جدران بيتك، أيضاً؟.

فَعَلا وجْهَ صديقه تساؤلٌ: «يدٌ خلف الجدران؟»، ورفع منكبيه في مرح: «لا أعتقد بوجود يد، لكنني واثق من وجود قَرْج يتلصَّص عليَّ». واتجه بكلّه، في حركة مضحكة صوب أحد الجدران وهو يفكّ أزرار بنطاله، صارخاً: «ها. ها. لقد فاجأتُهُ. ألا ترى؟». فضحك «أ. دهر» متمتماً: «لقد فاجأته بحقّ، فأغمي عليه». ثم عاد إلى سؤاله الأول، ببعض الوجوم، برغم الرُّخاء الذي أضفاه تهريج الرسام على حضوريهما، قائلاً:

ـ «أعني، صدقاً، إن كنتَ تحسُّ يداً مّا خلف الجدران، تماماً كما يحسُّ أحدنا برطوبة الجو»، وتلمَّسَ ظاهر إحدى كفيه بالأخرى، رافعاً بصره إلى صديقه: «رطوبة كالصمغ، حتى أن جلدك يلتصق بعضه ببعض. واليد التي أحسُّها، في الجهة الأخرى من جدار البيت هي هكذا؛ أعني هي كالرطوبة، تحسُّها بميزان خاص»، وضم يديه إلى صدره في توسُّلٍ مسرحيٍّ: «لو قلتُ لك أن ترسم الرطوبة فهل تستطيع؟».

فردَ الرسام وقد انحنى: «مولاي. سارسم ظلال خصيتيك إذا شئت». واستوى واضعاً إصبعه على صدغه كمن يتذكّر، ثم فَرَدَ أساريرَهُ، وانحنى من جديد: «أخطأتُ التعبيرَ مولاي. سارسم أنفاسك إذا شئت، وبحسب سرعتها أو بطْئِها. أما الرطوبة فأمرها سهل جداً. انظرْ»، وتقدم إلى العارضين الخشبيين اللذين يرفع عليهما القماشَ المؤطر آن يرسمُ، فأنزلَ لوحةً كانت هناك، ورفع عليها أخرى لم تزل بيضاء، مؤسَّسَةً بالصِّباغ على القماش لتكون مهيَّأةً للرسم عليها، ثم حدق فيها مليّاً، وابتعد ليشير في اتجاهها بيد ممدودة، بينما انعقدت الأخرى خلف ظهره، منحنياً قليلاً بجذعه، هامساً: «انظرْ» وهو يضيِّق ما بين جفونه، بالحركة المرحة ذاتها التي دَرَج على استخدامها في برهات دعابته، كأنما هو على خشبة مسرح مدرسيٍّ: «انظرْ الى تلك الزاوية. ألا ترى الوبرَ؟. وَبَرٌ فضيٌّ ينفخ عليه أحدٌ مّا من خلف اللوحة. انظرْ». وتقدم إلى «أ. دهر» فأمسك به من منكبه: «انظرْ إلى أسفلَ، حيث يتساقط الوبر الفضيّ؛ انظرْ إلى الشعاع المنكسر على تلك الحلمة»، وصفَّرَ بفمه: «ثديٌ منفلت. لحم ينبض كنجم سكران. لونٌ من لحمٍ. انظرْ»، وضغط الرسام على منكب «أ.

دهر» بيده التي لم يرفعها عنه: «انظرْ إلى الزاوية اليسرى، إلى أسفل، حيث الصوتُ المختلج»، واستدرك، ناظراً إلى وجه الشاب جانبياً: «الصوت ثقيل كاللون. الصوت مشهد. انظرْ إلى النبرة المتدحرجة صوب المفتاح». وحدَّد موقعاً من اللوحة بإصبعه: «المفتاح هنا. إنه مفتاح ذائب يُرى أثره على المنديل الذي نسيه شبيهك هناك، في نافذة الشقة اليمنى من الطبقة الثالثة».

ضحك «أ. دهر» وهو يُفلتُ منكبه من يد صديقه: «لم تعد هنالك من نافذة»، وأشار إلى اللوحة التي أنزلها الرسام، قبل قليل، عن العارضين الخشبيين: «لوحتك سرقتِ النافذةَ من العمارة».

فقاطعه صديقه: «تستطيع أن ترى نصف المنديل متدلياً من جدار الشقة، حيث موضع النافذة تماماً، قبل أن...»، وقهقهة: «قبل أن نسرقها معاً». وتطلع في تحدٍّ إلى «أ. دهر»: «تواطأتَ معي».

فأشار الشاب بجماع يده اليمنى إلى صدره، مستنكراً: «أنا؟ سألتك إن كنتَ تستطيع رسم الرطوبة، وها أنت تحشرني في زاوية ضيقة من خيالك».

فردّ الرسام: «أبعدَ كل هذه المَشاهد تسألني عن الرطوبة؟ ألم ترها مرسومة على أنحاء اللوحة؟ ما هذا البياض؟»، ورفع يديه محتدماً: «هذا البياض هو سرواله».

فسأله «أ. دهر»: «سروال من؟».

- «سروال الرطوبة» ردّ الرسام، مضيفاً: «سروال أمّها واختها».

فانفجر الشاب ضاحكاً وهو يغمغم: «إنه سروال كبير». لكن الرسام لم ينتظر أن ينهي «أ. دهر» بقية ضحكته، فعاجله مبتسماً: «سروال يسعني، ويسعك، ويسعُ شبيهك أيضاً». فأردف «أ. دهر»: «وشبيهك أيضاً. إنه ينسى...»، واسترسل في ضحك خفيف: «ينسى أن يسألك أن ترسمه».

وفي برهةٍ توقفا، معاً، عن متابعة الحوار، محدّقينْ أحدهما في الآخر، كمن يدقّق، بعد كل ذلك الاسترسال، في الذي قالاه اعتباطاً، أو عمداً. وقد كسر الرسام تلك البرهة، بكلامٍ ليس في سياق حالها:

- «شكراً للحياة» قالها، ومدَّ يده إلى شاربه، فسأله «أ. دهر»: «علامَ؟»، فردّ صديقه: «على نعمتها المُحْتَجَبة». وعاودَ النظر إلى الشاب

متصنّعاً ابتسامةً بلهاة، فتصنّع «أ. دهر» مثلها، قائلاً: «كأنك تشكر امرأة على قُبلةٍ لم تحظ بها». فرد الرسام: «ذلك أفضل»، وأردف غامزاً: «الانتظار نعمة لا ينبغي أن تستنفدَها». فمازحه «أ. دهر»:

- «انتظرْ أنت. شبيهُك سينجزُ اللعبةَ كلها، وربما شدَّ ذلك المنديل المتدلي من الحائط، حيث موقع النافذة التي سرقتها»، وأضاف متفكّهاً: «أعني التي سرقناها معاً. لكن لماذا نسي شبيهُك ذلك المنديلَ هناك؟».

فرد الرسام واثقاً: «كالآخرين. كلهم ينسون أجزاء من ثيابهم متدلّيةً من الجدران، كأنّما انغلق عليها إسمنت فجاءةً»، وحدّق في «أ. دهر» مستوضحاً: «ألم تلمح قماشاً متدلّياً من أحد الجدران في شقتك؟ ها؟».

فأغضى الشاب مبتسماً:

- كيف عرفت؟

فجلس الرسام على أرض الغرفة، متكئاً بظهره إلى المكتبة:

- «لقد سحبتَ القماش، أليس كذلك؟»، ولم ينتظر إجابةَ «أ. دهر»، بل استرسل:

- سحبتَ القماش فتنحنح جدُّك.

نعم. كدنا - نحن الخمسة اللا مرئيين - أن نهمس بدورنا: «كيف عرفتَ ذلك؟»، لكننا آثرنا البقاء هناك، خلف الجدل المرئيّ للكائن ولروحه معاً؛ في الجهة الثانية القريبة من كلِّ فعلٍ حادثٍ، يستحيل إلى نَسَقٍ متصوَّرٍ لا يُمْحى قط. نعم. كدنا نهمس: «كيف عرفتَ ذلك؟»، لكن الرسام مضى يشرح، ضاحكاً من تحت شاربيه المرتعشين لطول شُعيراتهما:

- المكانُ، أبداً، هو ذاتُه. نحن لم نغادر. أجدادنا لم يغادروا. نجلس نحن هنا، ويجلسون هُمْ هناك، في الجهة الثانية. لكن، لأنهم أجدادٌ، فإنّما ينسون أن يلُموا حواشيَ ثيابهم الطويلة، لذلك تنزل من الشقوق إلى دواخل غُرَفنا».

ومدّ يده بعلبة التبغ إلى «أ. دهر»: «دخِّنْ. أسمعهُم يدخنون». وقهقهةً مضيفاً: «إنني استعمل الطرف المتدلّي من ثوب جدي لمسح الألوان عن الفرشاة».

وتقدم الرسام بضعة أشبار، ماشياً على ركبتيه، صوب خرقة مرمية قرب

العارضين الخشبيين، وإذ تناولها عاد أدراجه إلى الخلف على ركبتيه أيضاً، وجلس جلسته ذاتها. ثم رفعها بالأصابع المتراكمة على قماشها إلى مستوى عينيه، ونفخ عليها مداعباً فتأرجحت بين أنامله، فالتفت إلى «أ. دهر» الجالس بدوره إلى الحائط، محيطاً ساقيه المضمومتين إلى صدره بيديه، بينما سَكَنَتْ لُفافةٌ في فمه، وانحنى رمادها الطويل:

- «هذا ما تبقّى على حيطاننا» قالها الرسام، ونفخ ثانيةً على الخرقة فتأرجحت، ثم تمتم: «حتى صورتُه استُبدِلَت بصور النساء، واستُبدِلتْ صور النساء بآيات قرآنية، واستُبدِلتْ الآيات القرآنية المؤطَّرة بصور تمثّل أنساب العائلات التي تشبه الحدائق. ثم اختفت أشجار الأنساب لتتدلّى، من الجدران، هذه الأقمشة التي حالَتْ ألوانها».

فتداركَهُ «أ. دهر» سائلاً: «صورةَ مَنْ عنيتَ بقولك: صورته؟».

فرفع الرسام حاجبيه متعجباً: «أعني صاحبنا القابع في صالة السينما منذ سبع سنين».

نعم. دخل ذلك الرجل، الذي درجوا على تسميته «القائد»، مع حرسه إلى صالة السينما المعدة لحفل خطابيٍّ، منذ سبع سنين، ولم يخرج حتى بعد انهيار عمارة «أبي كير». وكان ذلك بعد أول قصف عشوائي متبادل، بالصواريخ، بين شطري المدينة.

نعم. أراد «القائد»، الذي يحمل قبعته أبداً بيده، حتى لا يبدّد تصفيفة شَعره، أن يختبر الشارع في العصف الذي ينبغي أن يتمّ فيه اختبار مَلَكة القيادة، فحضر أوّل من حضر، إلى القبو الواقع فرسخين أسفلَ العمارة الدائرية، بعد اتصالات من كل نمط بالأحزاب، وبالتنظيمات، وبالقيادات والكوادر الفاعلة وغير الفاعلة، وببقية الشعب بحسب وظائفهم، إذ طاف شبّانٌ مرحون قليلاً - بمسدسات ظاهرة من تحت القمصان المرخية، في إهمال مقصود، من فوق البناطيل - على البيوت يُذكّرونهم بموعد الخطاب قبل أيام من إلقائه الذي لم يتم. ثم مروا على الحوانيت شارعاً شارعاً، متمنّين على الباعة أن يحضروا، إسهاماً في واجب بقائهم صفّاً واحداً إلى جانب القرار الشعبي، في الوقت الذي كانت أيديهم، أثناء الكلام المُبالغ في نبراته المؤدّبة، تمتد إلى أية

بضاعة ظاهرة من اللبّان، أو الحلوى المُغلَّفة، أو النُّقُل، أو بعض المعلبات الصغيرة، أو عُلَب التبغ، أو صفائح السمن المحفوظ. وإن تواضعوا كثيراً فإنما يتلقَّفون حبّاتِ برتقالٍ، أو تفاح، ويروحون يمضغونها وهم يحادثون الباعة، الذين يجامل بعضُهم الشبّان فيهتف: «بالعافية»، إشارة إلى ما يأكلونه، أو يتغاضى بعضهم الآخر في استياء لا يبديه كثيراً. أما البعض الثالث، ممن ينتمي بنسب بعيد إلى ذوي نفوذ، أو أقارب ذوي نفوذ، فإنما يبدي امتعاضاً مموَّهاً، كأن يتوجَّه بكلامه إلى أحد الشبان، وهو يتصنَّع الفكاهة:

- هنيئاً. لكن الإكثار مضرٌ بأسنانك.

- فيرد الشابُ، أيُّ شاب، وقد تبلَّغ الرسالة من نبرةِ البائع:

- «أنت كريم يا عم»، ويلتفت إلى زملائه: «يلاّ يا اخوان»، فيخرجون من المحلّ تباعاً.

لكن المحاورات بين أصحاب الحوانيت - مّمن ينتمون مباشرةً إلى النافذين من زعماء الأحياء، والأزقة، وبين هؤلاء الشبان الذين يخطئون، أحياناً، في اختيار الأمكنة - تأخذ أشكالاً طريفة. نعم. يمرخ الباعة المتدلية قمصانهم، بدورهما، فوق مسدسات لا يُقْصَدُ إخفاؤها، بالشبّان صراخاً مَرِحاً، في انفعالٍ ظاهر:

- أهلاً بالاخوان. هل من طلب؟ نحن في الخدمة.

فيستدرك الشبان، عادةً، حواراً كهذا مُشْبَعاً بثقة المُقْتَدِرين، فيبحثون عن عذرٍ مُتصنَّعٍ:

- «عوفيت. قلنا ستسمح لنا - والمسامح كريم - أن نبلّغك خبر الحفل»، وينظر واحدهم إلى الآخر قبل أن يضيفوا:

- «نعني إذا كان لديكم وقت. نعني إذا أحببتم»، ويسترسلون بعد توقف قليل: «لا يهمّ. أنتم حاضرون في قلوبنا حتى لو لم تحضروا الحفل».

فيرد الباعة المقتدرون، هؤلاء: «ولو يا اخوان. أنتم في القلوب أيضاً». ويتصنّعون كَرَماً مباغتاً إذ يرونهم خارجين: «هذا حلالُنا» مشيرين إلى البضائع، ويضيفون: «هي حلال عليكم. لا تستحوا»، فيعرو الشبّان خَفَرٌ بليغ، وهم يتمتمون:

ـ دامت النعمة. كثّرها الله عليك.

نعم. كانت الاتصالات على أشدّها قبل أيام معدودة من ذلك الحفل، حتى أن بعض الشوارع المفضية إلى المبنى الدائري، الذي تقع أسفله صالة السينما الكبيرة، سُدَّت تماماً أمام الآليات، في إجراءٍ أمنيٍّ، فاشتكى من اشتكى على مضض، وبرّر الأمر من برّره على مضض أيضاً، في حين لم يظهر أيُّ موكب لـ «القائد» في أثر الموعد المحدد لمجيئه، عبر تلك الطرقات، لأنه ـ ببساطة ـ كان نزيل المبنى ذاته، دون إثارة انتباه الناطور الفضوليّ حتى. ولمّا امتلأت الصالة بالمدعوين ذوي الشأن، بحسب مراتبهم، تدرُّجاً من المقاعد الأولى إلى المقاعد الخلفية، وغصّت باحات المبنى، خارجاً، بالعامّة المؤيدين والمحازبين، بدا أن أمراً مّا قد اتّخذ مشيئةً صامتةً لم تفصح عن نفسها. وكان أوّل من تشمّم ما ليس في حاجة إلى تَشمُّم هم متمّو المقاعد الأولى، إذ لمحوا جموداً في حركة «القائد» الجالس خلف منصّة الخطابة، هناك، على المسطبة غير العالية، بينا دَرَج هؤلاء على أن يتلقَّفهم، في مناسباتٍ من قبل، بذراعين مفتوحتين، وهو يشير عليهم بالجلوس، واحداً واحداً، بعد العناق.

لم يكن مألوفاً وجود «القائد» وراء المنصّة قبل أن يدخل أحد إلى القاعات التي يتخذها للخطابة، في أطراف المدينة ووسطها، فكيف به وهو أوّل الحضور؟ لكن الفضول الجديد بموقف كهذا بسط جناحيه وذيله، معاً، وريشاً آخر ممّا لا يُرى، على المقاعد وعلى أنفاس الجالسين، وهم ينقّلون أبصارهم بين وجه «القائد» الذي بدا مُطْرِقاً بجفون تكاد تكون مغلقة، وبين وجوه حَرَسه المتحلّقين من حوله، الممعنين نظراً إلى البعيد في رصدٍ واضحٍ لأيةِ حركةٍ قد تبدر في غير محلّها.

وبعد وجوم ثقيل غطى سُترات الجالسين وقمصانهم، وأصاب بعدواه الداخليّن ـ أيضاً ـ فأحجموا عن الابتسام، مكتفين بالإيماء لمَنْ يعرفونهم بالرؤوس قبل أن يجلسوا، تقدّم رجل خفيف الشَّعر، قصيرٌ، آتياً من زاوية تقع خلف ستارة، كأنّما من باب خفيٍّ فوق مسطبة الصالة، ثم وقف إلى شمال «القائد»، وتناول مكبّر الصوت مقرِّباً إيّاه من فمه، وقد انحنى قليلاً حتى لا تلمس سُتْرتُه الرقيقة مقعد الرجل الجالس، ثم همس كلاماً، أو بدا للجالسين

أنه يتحدّث همساً. لكنه نَقَر بإصبعه على تَمْرةِ مكبِّر الصوت، ليتأكد من خِدمَتِه، فلم يسمع تحسيباً للنَّقْر، فأومأ برأسه إلى بدِيْنٍ جالس أمام صندوق ذي أزرار، على يمين المقاعد الأمامية، يستحثّه على تدبير الخلل، فإذا بالنقرات التالية لأصابعه ـ إذ حاول اختبار المُكبِّر ـ تتدحرج ككراتٍ من أول القاعة إلى آخرها، ثم تصطدم بالجدران فترتدّ على شكل ذبذباتٍ سدَّ الكثيرون دونها آذانهم. فأومأ الرجل الخفيف الشعر إلى البدِيْنِ ثانيةً، فإذا بالصوت يستوي معتدلاً. فتنحنحَ، ثم غمغم بكلمة واحدة ليسمعَ صداها، ثم قدَّمَ الحَفْل لمّا تأكد من نبرة صوته هو، وصداه، معاً.

قال: «توضيح الظَّرْف صعب. أنتم أدرى بالأمور، وانتقاصٌ من قَدْرِكم أن يشرح مثلي ما لا يُشرَح. لكن عليّ أن أبسُط الأمور، وأنتم أدرى بعُقَدِها مني. فإذا تجاسرتُ قليلاً على المضي في الشروح إلى حدود لم يعد مسموحٌ بها، فسأتوقف، لأنكم أعْرَفُ بالذي لن أقوله. وبين ما سأقوله وما لن أقوله أترك لكم ـ أيها المقبلون على اختبار المبادىء ـ حرية إكمال فكرتنا التي بنيناها معاً، بيتاً بيتاً، وطلقةً طلقةً، وشهيداً شهيداً.

ثم استوى بعد انحنائه على مُكبِّر الصوت، متّجهاً بكلّه إلى «القائد» الجالس خلف المنصّة، مشيراً بيده إليه: «أيها الأمين على ما لن نقوله هنا، لأنك أوضحت، أنتَ، الأمرَ، من قبل، بإشاراتك الأبوية، اسمحْ لنا بهذا الاسترسال بين يديك». وعاد فانحنى على مُكبِّر الصوت، متوجِّهاً بكلامه إلى الحضور: «لِنَعْترفْ..»، وألقى بنظرة على عرض القاعة وطولها، يستجلي أثرَ كلمته، ثم أكمل: «لنعترفْ أن المسألة تقتضي تعبئة لا سابق لها. لنعترفْ أننا مقبلون، الآن، على نصف ما سنقوله، أمّا البقية فهي رهن معرفتكم. وأنتم هنا، اليوم، لتؤكدوا، صراحةً، ردَّكم الذي لم تقولوه بعد، ضدَّ ما يجري من سكوت على التاريخ». وحدَّق لبرهةٍ في «القائد»، ثم جاوزه: «التاريخ بسيط. التاريخ أمرٌ مفروغ منه، وما علينا إلّا أن نؤكده بردّكم أنتم، أيها المعلّمون المتخرِّجون من مدارسَ حقيقية لا حاجة بنا إلى ذكرها. وكان في ودّي أن أصرخ: أنتم الحقيقة، لكنني، في حضور قائدي، أترك له صياغة الكلمة الحقّة، المأمولة، التي لا ارتهان فيها، ليحدِّد بها الدور العظيم لما هُيِّئتم له، في

هذا المنعطَف. .»، وتطلّع إلى «القائد» يستميحه عُذْراً على خطأٍ لم يقترفه.
«ليس دقيقاً أن أقول: هذا المنعطَف. لا»، وأمسك بمكبِّر الصوتِ بيديه
معاً، كمن يتلقَّف ثمرةً نفيسة: «لا. هذا ليس منعطَفاً. إنه الهوية». وأخرج
من جيب بنطاله الخلفي، على عجل، بطاقة شخصية، ثم رفعها عالياً أمام
الأنظار، صارخاً ملء حنجرته: «هوية مثل هذه»، وبدأ يشير بإحدى أصابعه
إلى الورقة المربّعة، المغلّفة بمطاطٍ شفيف، دون أن يرفع عينيه عن الحضور:
«هنا الإسم. نعم. سيكون للمرحلة اسمٌ صريح»، ونقل إصبعَهُ نزولاً: «وهنا
مكان الميلاد وتاريخه. نعم. سيكون للمرحلة مكانُ ميلاد وتاريخ».

ثم توقف قليلاً، وأطرق ناظراً إلى بطاقته الشخصية التي أمسك بها
بيديه، في مستوى معدته، قرب عنق مكبِّر الصوت، وهدَّجَ في صوته على
نحوٍ مُحْكَم، كمُقْبِلٍ على بكاءٍ مختنق، لا ينمُّ عن حزنٍ ولا عن فرح،
وتمتم: «أما تاريخ إصدار هذه الهوية فهو. .»، ورفع بصره إلى الحضور من
جديد، لينفخَ من منخريه: «تاريخ الإصدار هو اليوم. اليوم. اليوم». وألقى
ببطاقته الشخصية إلى القاعة في احتدام: «لم أعد أريد هذه البطاقة مُذْ امتلكتُ
تاريخَ هذا اليوم، الذي أصدرتموه أنتم بخَتْمِكُم لا بخَتْمِ دائرة الأحوال
الشخصية». ثم استرسل في نوبةِ حماسةٍ فأخرجَ كلَّ ما في جيوبه من نقود
ورقية، ومن أوراق، ومفاتيحَ رنَّتْ في ارتطامها بقاعدة مكبِّر الصوت. ولمّا لم
يعثر على شيء آخر سحبَ بطانات جيوبه فصارت خارجاً كآذان الأرانب،
متمتماً: «هذا آخر ما عندي». واستدرك ففكَّ حزامَهُ الجلدي، وسلَّهُ في تشنُّج
فسُمِعَتْ قرقعته: «حتى هذا لم يعد ضرورياً»، وألقى به على منصّة الخطابة.
بعد ذلك استغرقَهُ هدوءٌ مريح، لا ترقُّب فيه ولا تشنُّج، فبادله الحضور بهدوء
مثله، لكنه ممتزج بفضول قليل، وبضجر أيضاً لم يبلغ بعدُ أن يستبدلَ الصفُّ
الأماميُّ وضعَ سيقانهم اليسرى على اليمنى، بعدما ظلَّت السيقان اليمنى،
طوال خطبة الرجل خفيفِ الشَّعر، هي العاليةُ على اليسرى. ولمّا ألوى الخطيب
بعنقه، في تُؤدة، صوب «القائد» ألوى الحضورُ بأنظارهم - أيضاً - إلى حيث
ينظر، فألفاهُ القريبون من المنصّةِ على حاله، بينما ارتآه البعيدون، في الصفوف
الأخرى، أنه مقبلٌ على تصريح خطيرٍ يبحث عن ألفاظ مُحْكَمة تليق

بظروفه. لكن الرجل الواقف خلف مكبِّر الصوت عاد فتنحنح ليُلفِتَ بصيرةَ
السارحين قبل أبصارهم:

- «إنها فترة تأمُّل» قالها في خشوع، وهمس من أعماق حنجرته: «فلنتأمَّل»،
ورفعَ بصره إلى السقف، متنهِّداً:
- «قد تسألون: مالذي نتأمّله؟ إنه سؤال في محلّه. لكن. .»، ورفع
إصبعاً أدارها على القاعة كلِّها:
- «ليس أنا من يملك الجواب. أنتم تعرفون أنّ مثلي ليس مخوَّلاً بإعطاء
جواب حتى لو مَلَكَهُ، لأنكم أدرى وأقدر»، ورشف بعض الماء من كوب
زجاجيٍّ، ثم أنزله من فمه في بطء، على المنصَّة. وأكمل مُطْرِقاً، بعدما لعق
شفته السُّفلى:
- نحن في حاجة إلى هذا التأمل الذي ذكَرْتُهُ.

نعم. كان صديق «أ. دهر» يذكُرُهُ، بدوره، بشيءٍ مّا من هذا القبيل:
- فلنتأمَّل، معاً، ثوب جدي الذي أمسح بطرفه الأصباغ عن الفرشاة.

ولمّا لم يُبْدِ الشاب اهتماماً، وهو ينفض رماد لفافته على أرض الغرفة،
بادره الرسام:
- «منفضة الرماد قرب ساقك اليسرى»، وأردف ساخراً: «إنها صالحة
للاستعمال».

فابتسم «أ. دهر» متمتماً: «أرض الغرفة صالحة أيضاً»، وفتح ذراعيه
على وسْعهما وهو ينقل ببصره من زاوية إلى أخرى: «هي واسعة». ثم رفع عينيه
إلى الرسام قائلاً: «عليك أن ترسم عينيها»، وعقد ما بين حاجبيه مُحَوِّراً في
نظرته، حتى بدا أحوَلَ، ففهم صديقه الإشارة:
- تعني صاحبتك الحولاء؟

فاسترسل «أ. دهر»: حين تقولُ لي - هي - مثلك، لا تُلْقِ بالرماد على
أرض الغرفة، فإنها تزدادُ حَوَلاً وهي تحدِّق في أيَّة بقعة داكنة من سجّادة بيتها.
ولكثرة هوسها بتوبيخي تعزو إليَّ وجود آثارٍ نكتشف، معاً، أنها آثار شحمٍ أو
مرطِّبات. تقول: هذه. . هذه. . فأتقرّى بيدي الموقع الذي تشير إليه على
السجاد، وأنا أصرخ: هذه شكولاته يا أخت، أو هذه دمغةُ حبرٍ من أقلام

ابنتكِ». واستدركَ: «لماذا أقول: ابنتكِ؟ لا أعرف. ربما لأنني أفاجئها مراراً وهي تضع الأقلام في فمها، حتى حين تُحادثُ أحداً». ثم أشار بسبابته اليسرى إلى موقعٍ من بنطاله، أسفل البطن:

- «مرة قلتُ لها افتحي الأزرار هنا لِتَري رمادَ لُفافتي. أنا لم أعُدْ أنفضها على أرض الغُرَف، بل هنا.. هنا..»، وأمسكت بيدها وشدَدْتُه إلى حيثُ أشرْت، فأرْخَتْهُ. وما كادت أصابعها تلامس الأزرار حتى صرنا، معاً، متدحْرِجيْن على بُقَعِ الرماد، والحلوى، والحبر». فبادره صديقه:

- سأرسمكما في بقعة من الحبر، على سجادة تغطي اللوحة كلَّها. ولربما رسمتُ ابنةَ صاحبتك.

فتمتم «أ. دهر»، وقد ضيّق ما بين عينيه في عتب: «هي ليستْ صاحبتي. أنا المفضّل لديها لتسرُدَ عليَّ بالتفصيل مَنْ تُصاحِب. أنا أمينٌ على أسرارها المشاعة».

لكن الرسام بدا كأنه لا يصغي إلى الشاب، وهو يحدّق في القماش المؤطر على العارضين الخشبيين، قائلاً:

- «سأرسم ابنتها أيضاً. هي في الثالثة عشرة، أليس كذلك؟». ولم ينتظر جواباً من «أ. دهر»، بل أكمل: «سأرسمها وهي تلفُّ السجادة، عاريةً». وتطلّع إلى الشاب سائلاً: «أللفتاة، في الثالثة عشرة، عانةٌ؟»، فردّ «أ. دهر»:

- «سنسألُ الزعيمَ ذا الشاربين المستقيمين. إنه يعرف إذا كانت للفتاة، في الحادية عشرة، عانةٌ. كل صديقات ابنته لا يجاوزنَ الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة. والحولاء..»، ثم توقّف، فحاول الرسام استدراج «أ. دهر» حين فطن إلى نبرة صوته التي بدت حادّةً، دون سبب واضح: «أتعني أن..»، فلم يدعه «أ. دهر» يكمل سؤاله، مجيباً في احتدامٍ خفيف:

- نعم. أعني أنّ..

فخفّف الرسام من انفعال الشاب في خبثٍ وديع:

- ربّما احتاج أهلها إلى خدمات الرجل..

فقاطعه «أ. دهر»: «الحولاء بنت الحولاء - صاحبتي، صاحبةُ الكلّ هذه، قالت إنهم ليسوا في حاجة الى ربِّ الرجل حتى. لكن الذي جرى لا

اعرف تفسيره. إذ كانت تنظر في شزر إلى ابنتها كلما دخلتِ البيتَ مساءً، بينما يتدحرج من خلفها، على الدرج، كلمات مرافق الزعيم ذي الشاربين، الذي يوصلها: تصبحين على خير. أما الفتاة فكانت تدخل واثقةً، متجاهلةً نظرات الحولاء، وتمضي الى غرفتها مباشرة فتوصد البابَ من خلفها»، ورفع «أ. دهر» يديه معاً، كمن يتوسّل، صوبَ صديقه:

- «والله، حصل هذا أمام عيني أكثر من أربع مرات، حين لم يكن والدها في المدينة. وقد سألتُ الحولاءَ عن هذا الغموض الصغير في موقف واحدتهنّ من الأخرى فصرختْ بي: إسْألْها»، وأسبلَ يديه المرفوعتين متمتماً: «صرختْ بي. والله صرختْ حتى ظننت أن الجيران سيطرقون باب البيت. فسكتُّ. أنا لا أحب أن يصرخ أحد في وجهي، وقد أدركَتْ خطأها بعد برهة فجثَتْ أمامي مطوِّقةً ساقيَّ، ثم قبّلتْ فخذي مغرورقة العينين دون أن تتكلّم، ففهمتُ اعتذارَها. ثم قامتْ، على النحو السريع الذي جثتْ به أمامي، عائدةً إلى كرسيِّها. فقرَّرْتُ - حقّاً - ان أسألَ ابنتها عن هذه الصَّلافة في تصرُّفها. ولمّا سألتُ الفتاةَ - في أثناء عبورها الخاطف من غرفتها إلى المطبخ، لتجلبَ قطعةً من فطيرة التفاح وكوبَ عصيرٍ ردّت عليَّ، في الممرِّ الذي استوقفتُها فيه: كُلْ هواءً. والله قالت: كُلْ هواءً. وقد ظننتُ طوال ارتيادي بيتهم أنها مِلْكُ إشارة مِنّي إن قررْتُ أن تهدأ، مثلاً، أو تنفجرَ كفقاعة. وإذ فاجأتني بكلماتها، لم أدرِ ما أفعل من ارتباكي أمام نفْسي، فتصنّعتُ الفكاهةَ، ضاحكاً: سآكلُ الهواءَ. أنا عاشقُ الهواء، وأحبّ الهواء. غَمْ غَمْ غَمْ. وصرتُ أُقَضْقِضُ بفكّيَّ كأنني ألتهم ما حولي من فراغ».

وانفجر «أ. دهر» ضاحكاً، فانفجر الرسام أيضاً، ثم صارا يمثّلان الحركةَ الفكاهية ذاتَها، فيطَقْطِقان بأسنانهما طَقْطَقاتٍ سريعة، بينما كادت عيونهما أن تغرورق من كثرة الضحك: «هكذا» يقول «أ. دهر» وهو يفتح فمه على آخره ويغلقه، فيتبعه الرسام صائحاً: «هكذا»، وهو يفتح فمه، بدوره، ويغلقه، كأنّما يعضّ على هواء خفيّ في فراغ الغرفة، بل يتقدّم على ركبتيه كأنه يطارد شيئاً مّا، حيّاً، يهرب من أسنانه ومن أسنان «أ. دهر» معاً. وقد توقّف الأخير كابحاً هَأْهَأتَهُ المديدة، رويداً رويداً، ليسترسل:

ـ «أكلتُ كل شيء. أكلتُ الهواءَ، والفراغَ، والفتاةَ، وأمَّها، والبيتَ، والشارع»، ثم غمز صاحبه ممازحاً: «وأكلتُ الله». فتمتم الرسام متصنِّعاً الغضبَ:

ـ أأكلتَ الله أيضاً؟

فهز «أ. دهر» رأسه إيجاباً. إذ ذاك تقدم منه صاحبه في توسُّل فكاهي: «وما طَعْمه؟»، فردّ «أ. دهر»:

ـ أتستطيع رسمَ طعمه إن وصفته لك؟

ـ «نعم» أجابه الرسام متوسِّلاً: «سأرسم الطُّعمَ وملائكةَ الطُّعم إذا لزم الأمر. عليك ـ فقط ـ أن تصفه».

فرفع «أ. دهر» وجهه عالياً، ناظراً إلى السقف، في تأمُّلٍ متصنَّع، ثم غطى الجزء الأيسر من وجهه براحة يده إيغالاً منه في حصر فكره:

ـ إنه يشبه صفير الريح على باب مطبخنا الزجاجي.

غير أن الرسام مسَّد على شاربيه سائلاً: «لا طعم لصفير الريح. صِفِ الطُّعم لا الصوت». فابتسم «أ. دهر»:

ـ وصفتُ الطُّعم. فأنا كلما سمعت صفير الريح سال لعابي شهوةً إلى حساء العدس.

فهز الرسام رأسه موافقاً، وهو يشير بيده إلى الشاب كمعلم مدرسة: «تابعْ يا بني. تابعْ وصفك لأنواع الحساء». فاستوقفه «أ. دهر»:

ـ «لا أصف الحساء. أحاول تقريب الأمور إلى المدى الذي يمكِّنك من الرسم، لا أكثر»، واغمض عينيه: «خذْ مثالاً: بِمَ تفكِّر حين ترى بعينيك ومضَ القذيفة وهي تنفجر على السطح المقابل لشقتك؟»، فرد الرسام: «لا أفكر في الغالب، لأنني أكون مشلولاً، وإذا فكرت فلا يخطر ببالي إلاّ أنني سأموت». إذ ذاك فتح «أ. دهر» ذراعيه في مرح صاخب:

ـ وجدتُها. تفكيرك في الموت هو الوصف الأكمل لله؛ هو الطُّعم.

فتخابث الرسام بدوره: «هذا هو ما أكلْتَهُ، إذاً، حين قالت لك الفتاةُ: كُلْ هواءً؟».

ـ «نعم» ردّ «أ. دهر». «نعم. أكلتُ ما لا تستطيعُ رسمَه».

لكن الرسام أعاد طرح سؤاله الفَكِه على «أ. دهر» بنحوٍ مختلف: «لا بأس. استطيع أن أرسمك، وسأحصر بذلك الممكناتِ كلَّها. فما دمت تعرف طعم الله، فسيبدو ذلك واضحاً على ملامحك. وإن كنتَ تحبُّ حساء العدس فسيبدو ذلك على عينيك. وإن كنت تتقن الإصغاء إلى صفير الريح فسأجعل شعرك حقلاً»، وتوقَّف سائلاً: «اتحبِّذ أن يكون شعرك حقل قُنَّبيط، أم يقطين؟». فرد «أ. دهر»:

ـ اجعلْهُ حاكورة رمل متطاير، يغمض الناظرون إليَّ عيونهم.

فتمتم الرسام: «هكذا، إذاً؟»، فاسترسل «أ. دهر» كأنما يجاوز الحوارَ كلَّه:

ـ أنا ربَّيتُ ابنةَ الحولاء. كانت تتبوَّل على نفسها حين عرفتُ أمَّها. وفي كل يوم تقريباً، حتى بلغتِ الحاديةَ عشرة، كنتُ أسرد لها حكاية الورقة. .

ـ «حكاية الورقة؟» ساله الرسام ماطّاً شفته. «نعم» ردّ «أ. دهر»، وأكمل:

ـ أنا اخترعتها عن الموت. كلهم يكذبون على الأطفال فيلقنونهم ما يرونَهُ إلهاً. والأطفال. . «ثم قهقَهَ: «إنهم ثغرات ينفذ منها الجنون إلى العالم، وهم مولعون بالموت الذي يجاهد الكبار في إخفائه عنهم». واستطرد بالقهقهة ذاتها: «ومن يستطيع إخفاء الموت عن الأطفال؟ لديهم طبيعة استقصاء الموت حتى أظن أن الموتَ هو من ابتكارهم. لذلك تعمَّدتُ إلى سرد حكاية الورقة على البنت في سنيِّها تلك، حتى بادرتني ذات يوم سائلةً: وماذا تعني بـ «كنَسْتُها الريح»، وهي جملة كنتُ أنهي بها القصة. . اسمعْ». ونظر إلى صديقه الرسام يستجلي وجهَهُ، فلمّا ألفاهُ رخيّاً غير ضجران، استرسلَ: «الحكاية كلُّها أن ورقةً سقطت من الغصن الذي كانت عليه، فاربدَّتْ وهاجتْ، ثم دارتْ من حول الشجرة تحاول صعود جذعها فلا تستطيع. فلم تجد إلاّ أن تهدِّد الغصنَ الذي كانت عليه، من قبل، صارخةً: خذني إليك، أو أوعزْ إلى صديقاتي الورقات أن تتساقطن حتى تبقى عارياً. ففتح الغصن عينيه المغمضتين في كسل، ، وقال للورقة: لستِ في حاجة إلى دعوة صديقاتك لتلحقن بك. إنهن سينزلن بإرادتهنَّ، دون صخب كالذي تفعلينه. ولربَّما بقيتُ عارياً بعض الوقت، لكن ورقاتٍ أخرى ستسترني. فاستشاطت الورقة الساقطة غضباً،

مهدِّدةً من جديد: سأعصفُ بكَ، وبالشجرة، إذا لم تُعِدْني إلى مكاني. لكن، في تلك اللحظة تحديداً، هبت الريح فكنَسْتْها، مع ورقات صفراء أخرى، إلى مكان بعيد». ولعق «أ. دهر» شفته، مكملاً: «كانت الفتاة تسائلني عن معنى «كنَسْتْها الريح»، فأجبتها: أعني أن الورقة كانت ميتة. فامتعضتْ، موبِّخة: قل لي من البداية إنها كانت ميتة، حتى توفِّر عليّ وعليك صراخَها. فسألتُ: صراخَ مَنْ؟ فردّت: صراخ الورقة. فعدت سائلاً في مرح: أتسمعين صراخها؟، فأجابت: أسمع صراخك الكاذب وأنت تقلِّد ورقة ميتة لا تستطيع أن تبول على نفسها. فعبسْتُ معاتباً: لا ترددي كلمات مثل هذه. ذلك لا يليق بفتاة مثلك، فباغتتني: حلّ عن مؤخرتي»، وتطلَّع إلى صديقه الرسام، الذي بدا مشجِّعاً في إصغائه المبتسم، فأكملَ: «قالت: حلّ عن مؤخرتي». واستدارت لتمضي، فأمسكتُها من عضدها، صارخاً: بل سأتمدَّد على . . فاستوقفني صوت الحولاء، من غرفة الجلوس ـ إذ كنا في غرفة ابنتها ـ صارخة بدورها: أوقِفا خلافَ الدجاج هذا!. فعضضت على أسناني وأنا أنظر إلى وجه الفتاة الذي بدا عليه نوع من الشماتة. ثم هدأتُ من وقْعِ سؤالها المهموس، وسط الصخب المُعْلَن قبل برهة: ستتمدَّد على ماذا؟ فأرخيتُ يدي عن عضدها، وأنا أحسُّ، فجاءةً، بنوافير خفية تنبجس من أحشائي إلى الأعلى، وبدغدغات في الدم، من جهة البطين الأحمق. نعم. هنالك بطين أحمق يخصّ قلوبنا الوهمية». وباغتَ صديقَهُ الرسامَ: «ألا تحسُّ أن لك قلباً وهمياً إلى جوار قلبك المُبَرْمَجِ هذا؟».

فوضع الرسام يده اليسرى على ثديه الأيمن، ثم أنزلها إلى أسفل، ومطَّ شفته كأنما يبلِّغ «أ. دهر» أنه لم يعثر على ذلك القلب، فتمتم الشاب:

ـ أوه. لن تعثر عليه هكذا. أغمض عينيك.

فاستحثه الرسام قائلاً: «لا تهتمّ. سأعثر عليه فيما بعد. لكن قلْ لي ماذا جرى حين أحْسَسْتَ بدغدغات دمك؟»، فرد «أ. دهر»:

ـ كيف سأشرح لك؟ ببساطة، أرَدْتُها. غير أنني أحسَسْتُ بذعر من رغبتي المفاجئة هذه، فيما كانت يدي ترتفع على طول فخذها العارية، تحت ثوبها، حتى لامستْ حوافَ سروالها»، وتوقَّف قبل أن يهمس: «يا إلهي. لم

تنظر إليَّ، بل إلى يدي وهي تمسِّد فخذها، فيرتفع ثوبها رويداً رويداً، كاشفاً عن جلد رقيق تترامى من تحته عروق زرقاء متشعبة، وينتشر عليه زغب يخفّ كلّما اتجهتَ إلى أعلى. وقد توقَّفت، بغتةً، وأنا أخفق خفقاً بجسدي كله، فمشتْ وهي لا تزال تنظر إلى يدي، حتى انسدل ثوبها على فخذها من جديد. ولمّا صارت في باب غرفتها استدارت إليَّ مبتسمة، ثم رفعت صوتها: «ماما» . . فانخلعتْ رئتي، وأنا جاثٍ على ركبتيَّ. لكنها استرسلتْ: «ماما، قولي لـ «أ. دهر» أن يخبرني حكاية أخرى. ضجرتُ من هذه الورقة»، فقستُ وملئي إحساس بنجاةٍ من فضيحة، هامساً بصوت مترجرج خفتُ أن تلاحظه الحولاء: سأسرد لك حكاية اللقلق. وبدوتُ ساذجاً، بعدئذ، طوال جلوسي مع أمها، أوافق على كل ما تقوله، في بلاهة، وابتسمُ في بلاهة، وأشرد بين كل برهة وأخرى متفكِّراً في الذي فعلتُه. يا!!!!». وأطلق «أ. دهر» صرخةً خافتة تنمّ عن مقدار إحساسه بفداحة ما كان سيحصل لو أن الفتاة صاحت، مثلاً: «ماما. إنه تلمَّس فخذي».

نعم. بماذا كان على «أ. دهر» أن يجيب؟ «أسوّي لها ثوبها؟». ربما قال ذلك، لكن ما من ثنية ظهرت على ملاسةِ الثوب حتى يُسَوِّى. وقد يقول: «نفضتُ عن ثوبها غباراً . .»، لكن ما من غبار في الغرفة. ولربما عمدَ إلى تسوية الأمر في تمثيل رهيف، مدَّعياً الدَّهشَ: «فخذك؟ أنا أتحسَّس فخذك؟ يا فخذ الجرادة، دعيني أنظر إليها» وهو يرفع ثوب الفتاة، فتنفجر الأم ضاحكة من حركته. من يدري؟. بيد أن الحكاية كانت مرشَّحة لتأخذ منحى آخر، كأن تصدِّق الحولاء ابنتها فتجْمُدَ من المفاجأة، وهي تهمس: «أنتَ؟»، فيقترب منها «أ. دهر» متصنِّعاً اتِّزاناً لا يُخفي ارتباكَهُ: «يا للمزاح. ابنتك تتدلَّل، والحقُّ عليك»، فلا تجد الحولاء غير أن تنظر إليه في سكون مشبع بالتوبيخ، فيرفع «أ. دهر» يديه وهو يشير بأصابعه إلى صدره: «أتصدِّقينها أم تصدِّقينني؟. فخذها؟ هاها. صُرْصُلك هذا يلزمه نتفٌ».

غير أن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع، وظلت الشهقة التي أطلقها «أ. دهر»، وهو يسرد الحكاية لصديقه الرسام، مجرَّد تدليلٍ على فداحة أمرٍ مُفْتَرَضٍ. وقد مضى مسترسلاً:

ـ بدوتُ كالأبله في حضور الحولاء، حتى أنها ارتابت في حركاتي، فقالت: أتريد كوب شاي؟ فصرختُ: نعم. نعم. مرتين. وقد تمالكتُ نفسي قليلاً وهي تحضر الشاي، بينما كنتُ أشعل اللُّفافة من عقب الأخرى. وإذ ارتشفتُ من السائل الداكن رشفةً أولى هدأت رئتي، فمضيتُ ـ في تهدُّلٍ عمَّ جسدي وفكري معاً ـ أسرد للأم حكاية اللُّقلق: أتعرفين أنهم يطلقون عليه اسم «مالك الحزين»؟. هذا هو جوهر الحكاية، فاسمه لم يكن هكذا. تعرفين. اسمه اللقلق. وقد قرر هذا اللُّقلق أن يبني عشاً ـ ذات يوم ـ فما أعجبه مكان قط. نَصَحَتْه الطيورُ بالشجر ليبني عشّاً بين أغصانها فتعفَّف. نصحته أن يبني قرب الأنهار كما يفعل «أبو قردان» والنُّحام، فاستكبرَ. نصَحتْهُ بأوكار كأوكار العصافير تحت عوارض السقوف، فاحتجَّ: «ألا ترون ضخامتي؟». نَصَحتْهُ بالآكام، أو المنحدرات الجبلية، كما تفعل النسور، فالوى بعنقه لا يريد إصغاءً. فبادرته الطيور: «أين تريد عشَّكَ إذاً؟»، فردَّ في استعلاء: «على غيمةٍ مّا. على الغيم»، فانفضَّتْ عنه متعجِّبةً من أحواله. وقد سعى اللُّقلق من أرض إلى أرض فما كان يصلُها إلاّ في الأيام الدافئة بطبْعِ الطائر الربيعيِّ فيه، لكنه إذ ذاك لم يكن يجد من الغيوم إلاَّ بقايا مُخَلْخَلة، فيرفع منقاره إلى الأعلى مُطَقْطِقاً، ثم يقف على ساق واحدة وقد ألوى عنقه في همٍّ شديد، لذلك يطلقون عليه اسم «مالك الحزين». وحين وصلتُ في القصة الى نهايتها هذه همستِ الحولاءُ: ليتنحرْ ابن القحبة. فأفقتُ من استرسالي سائلاً: مَنْ؟ فردَّت: لقلَقُكَ هذا الحمار.

ورفع «أ. دهر» كتفيه مبتسماً:

ـ «لَقْلَقٌ حمارٌ. لقلق ابن قحبة، لكنه لَقْلَق، فما ذنبي؟ سردتُ الحكايَة لابنة الحولاء مرتين فقط، فقالت: ألا تعرف غير هذه؟ قلتُ: أنا في خدمة مزاجك، وسأخترع أيَّ شيء تريدينه، فابتسمتْ هامسةً: ماالذي ترتديه تحت بنطالك؟ فأجبتُ متعجباً: سروالي الداخلي. قالت: ما لونه؟ قلتُ: . . . . ، قالت: أرنِيْه. فتجاسرتُ: بل أريني أنتِ سروالك، فرفعتْ ثوبها حتى سمعتُ خفقاتِ قلبي من باطن قدمي. ومنذ ذلك الوقت صرنا في كرٍّ وفرٍّ. احتضنُها فتفلتُ نفسها، وأبتعدُ فتتجاسرُ عليَّ. فقلتُ لنفسي: لا بأس. اكبري سنة

اخرى وسنرى. ولمّا كبرت ابنة الحولاء سنةً قطفها ذو الشاربين المستقيمين، الذي يفوق بعمره عمري وعمرها لو جُمعا». وتراخى مستسلماً قليلاً: «حبذا لو لم تقلْ لي الحولاء أن أسأل ابنتها عن صلافة تصرُّفها مع امّها، لكنني سألتها، فقالتْ في برودٍ ساخر: كُلْ هواءً. وقد أكلتُ الحيَّ، والحيُّ الذي يليه، والضاحيةَ، وبعض جهاتِ المدينة، والمدينةَ، والريح، والبَحر، والجبلَ، ووميضَ القذائف بعياراتها المختلفة، والموتَ ذاته». وازدردَ لعابه متمثّلاً كيف يبلَعُ لقمةً: «هكذا بلعتُ الموتَ دون مضغ».

فباغته الرسامُ: «كان أهل الفتاة، قَطْعاً، في حاجة إلى ذي الشاربين».

فاحتدم «أ. دهر»:

ـ «قالت الحولاء إنهم ليسوا في حاجة إلى ربّه». وأطرق كأنه غير مقتنع بالذي يقوله، مضيفاً: «لا أعرف. غابتِ الفتاة ـ ذات يوم ـ عن بيت الرجل بضغطٍ من أمّها، فأرسل ذو الشاربين المستقيمين حَرَسه يستجلون الأمر. ودَرَجتِ الأمورُ بعد ذلك على هذا النحو، كأنما تهدِّد الفتاةُ اباها وأمّها بحَرَسِ ذلك الرجل، فباتا مستسلمين، يوماً بعد يوم، حتى أنني ـ في فترات اجتماعي بالأب والأمّ معاً، كصديق مشترك ـ كنتُ أبدي غيرتي الساخنة من تأخرها في العودة، فيخفِّفان عليَّ في سخريةٍ: «أأنت عشيقها؟ فَلْتَنْسَلِخْ مؤخرة هذه العنكبوت»، فأنكمشُ حتى أغدو كُرةَ صوفٍ صغيرة تحت إحدى الكنبات».

وتوجَّه إلى صديقه: «أتعرف كيف ترسم كُرَةَ صوف في الظلام؟».

فتساءل صديقه: «ولِمَ في الظلام؟»، فردَّ «أ. دهر»:

ـ هكذا يغدو الرسم سهلاً. ضع لوناً على القماش، وقُلْ لي: أترى كُرَةَ الصوف؟ فإذا اجبتُكَ: أين هي؟ رُدَّ: إنها في الظلام.

فابتسم صديقه: «ولِمَ لا؟ أظن أنني ارسم العمارة المقابلة في ظلام اللون»، وغمزَ الشابَّ: «للَّونِ بُعْدانِ، وأنا أتقن الوقوف في الجانب الأخر منه؛ في الجانب المُغلق، لذلك تبقى هذه النافذة وحدها؛ هذه النافذة المشغولة بالحقيقة الظّاهرة للّوْن، فتتلصّصُ العمارة منها علينا. انظرْه»، ومدَّ إصبعه فجاءةً إلى زاوية من النافذة الضائعة في فراغ لوحته: «ألم ترَ احداً يمرّ؟».

فاطرق «أ. دهر» متمتماً في بَرَم:

ـ لا أظنك رأيتَ أحداً من عائلتي؟

فردَّ الرسام: «لا. لا يشبههم». فأبدى الشاب استغرابه:

ـ أتعرف ملامح عائلتي أيضاً؟.

«كلهم يشبهونك» ردَّ صديقه، وأردف: «لا تسألني كيف رأيتهم، لكنني رأيتهم من هذه النافذة»، ثم أشار بإصبعه ـ ثانيةً ـ إلى اللوحة، بينما مدَّ يده الثانية في اتجاه «أ. دهر» يقاطعه على كلام لم يتفوّه الشاب به بعد، مضيفاً: «يشبه صاحبنا القابع في صالة السينما»، وهو يعني من دَرَجوا على تسميته بـ «القائد».

نعم. في فراغ مّا، من مخلف ذلـك الحوار الصغير بين «أ. دهر» وصديقه، كانت الذبذبات التي لا تزول لصوت الخطيب ذي الشَّعر الخفيف ـ التي أطلقها في خطابه تحت العمارة الدائرية، حيث صالة السينما ـ تتدوَّر وترتـجُ، وتتداخل، وتنفصل، وتتوازى شبكيّاً، حتى يأخذ الصوتُ بُعْدَه، وعمقَـهُ، ورنينَهُ، ومَخرَجَهُ، ورائحته، أيضاً، التي لم تكن إلاّ رائحة ثياب «القائد» العسكرية، التي دَرَجَ المهتمّون به على غَسْلِها بماءٍ مغلي خالطتهُ عيدانُ الرَّنْد.

نعم. كنا نحن الخمسة اللا مرئيين نبوِّب الروائحَ فترةً بعد أخرى، كأنّما يجري تدريبنا على ذلك بقوى تُفْتِنُ كثافاتنا ذاتها. وقد بوغتنا ـ أول الأمر ـ بهذه المقدرة التي هي من جوهر الكائن المرئيّ، لكننا طوينا صفحاً عن ذلك، لكثرةِ ما أَلِفْنا من طبائع أخرى بُوغِتْنا بها أيضاً، من قبل. ثم ارتأينا أنها إشكالات عارضةٌ تسبِّبهـا الإقامة بين هؤلاء المرئيين المذعورين. نعم. كان في ذلك التغاضي ما فيه من حجب لِبعض الأسئلة التي لم تكن تليق بأمثالنا ـ نحن العارفين بماضي الحَدَث ومستقبله، غير أن تغاضِيْنا هذا كان يؤجل القلق ولا يمحـوه. وإذ نقـول «القلق» فإنـما نستعير الكلمـة من «أ. دهـر» وشركائه النـاطقين، في مخاطباتهم التي لا مكان للموت فيها، أو للألم. نعم. يموت الواحد منهم فيصمت. وإذ يُصابُ ـ كذلك الأعرج في الطبقة الثانية من عمارة «أبي كير»، حين تطاير نصفه الأسفل كلّه من انفجار القذيفة ـ يبدو مذهولاً، مختنقاً، يبحث بعينين فارغتين، في اللحظات الساخرة من رتابةِ اشتراكِ الكلِّ

في نسيان الموت، عن شَبَهِـهِ الذي جاوزَ فكرةَ الرحيل من العارضِ إلى الجـوهر، ومن الكثيف إلى الشفيف، ومن الشُّكْلِ إلى قيامةِ الفراغ. نعم. كلُّهم يودِّعون بشهقةٍ خفيضةٍ أو طليقةٍ، ذاتِ حروفٍ لا تستقيم معها كلمة من كلمات الكلام.

نعم. استعرنا كلمة «القلق» من الشركاء المرئيين، وهو ما بتنا نستشعره في مجاوزاتنا المقصودة لأسئلة مثل: هل يمـرُّ اللا مرئيون الآخرون، المؤكَّلون مثلنا بالأحياء، بالذي نمـرُّ به من آن إلى آخر، فيكاد بعضُ طبائعنا يتماثل مع طبائع المرئيين؟. ولربما كان هذا السؤال، ذاته، يقودنا إلى سؤال ثانٍ يُشغلنا: أين اللا مرئيون الآخرون؟. كنا حين نعود إلى هناك؛ إلى المدى الأكثر فتنةً بسِعَتِه، ويُقالُ لنا: «عودوا. نسيتم أن تكونوا لا مرئيين» ندرك أن ثمت آخرين ـ هم كثافاتٌ كمثلنا ـ يرشدون العالـمَ المرئـيَّ الى كمالِـهِ الـمُـمْتَنعِ. لكننا، في وجودنا قُربَ من أَوْكلنا به، لم نَرَ أحداً، ولم يتصل بنا أحد.

نعم. أسئلة رقيقة تسرَّبت من شقوقٍ لا نراها، فإذا بنا أمام مستغلقات أشبه بالأربعةِ الأيامِ الضائعة من التقويم بين انهيار عمارة «أبي كير» وظهور «أ. دهر» على السفينة المتَّجهة بالمحاربين غرباً. وقد ارتجَّ يقيننا إذ ألفينا أنفسنا اللا مرئية على جهل بأطوارِ الوقت السابق لتوكيلنا بالطفل ذي الجمجمة الرخوة، ومن بعده بـ «أ. دهر». نعم. ثمت أكيدٌ ضائع، مُغْفَلٌ، لم يُقَيَّضْ لنا أن نحتَسِبَ كثافاتنا فيه. لكننا ممتَنّـون لذلك، فنحن نرى ـ لمرة أولى ـ أن في مُكْنتنا تخـيُّل ماضي كثافاتنا تلك، في حرية تجاوز حدود المعلوم حين يكون أمرٌ مّا حاصـلاً، مُفَصَّلاً، يمكن لأعمى أن يَصِفَـه. وإذ تجاسرنـا على تخيُّلِ اللحظات القليلة التي سبقت التحاقنا بالطفل ذي الجمجمة الرخوة، رأينا أن من السَّهل ـ بحقٍّ ـ تدبيرَ كيانٍ مَرِحٍ لكثافاتنا، في منأى عن أيِّ حضورٍ صارمٍ قد يهتف بنا: «عودوا.. نسيتم ما نسيتموه». وأوغلنا ـ من ثمَّ ـ إلى ما افترضناه غابراً في نشأتنا فازدادَ المـرَحُ خِفَّةً، حتى صرنا ننادي: «أنت.. أنت، قُلْ لنا عودوا، نسيتم أن تكـونـوا لا مرئيين»، فيرجـع صدى صوتنا الواحد مُتَرَقْرِقاً كشعاع من تلك الشعاعات التي يراها المرئيون متراقصة على سطح ماءٍ متراقصٍ.

نعم. حين لمسنـــا أن مدى معــرفتنــا يقتصر على ماضي المــرثيين، وحاضرهم، ومستقبلهم أيضاً، استسلمنا الى يقينٍ مشوَّشٍ قليلاً، وهو أننا ولدنا مع الطفل ذي الجمجمة الرخوة، ما دمنا لا نملك دليلاً على وجودنا قبل ذلك. لكننا بقليلٍ من الحكمة نخالفُ هذا اليقين، دون جزم، لأننا عدنا، بعد موت الطفل، إلى «هناك»، حيث يُفْتَرَضُ أننا كنا قبل المهمة التي تناط بأمثالنا للسهر على المرثيين وأحوالهم. ونتذكُر ـ بالطبع ـ الصوتَ ذاك: «عودوا. .». إنما من الحقّ أيضاً أن نحوز ذكرى من ماضٍ يمكن تَذكُّرُهُ.

وفي غَمْرَةِ اللاّ مُتَّضح هذا قرّرنا أمراً على حماقةٍ، لا نعرف أأقدمَ أمثالنا عليه أم لا، وهو نَقْضُ المهمَّة، والعودة حتى قبل أن يموت من أُوْكِلنا به. وبالفعل انفضضنا عن «أ. دهر» وهو يشرح لصديقه الرسام، في أسف: «هربت المرأة التي رسمتها لي من داخل اللوحة». نقولُ انفضضنا في هدوء، عابرين الردهة المعتمة حتى باب المصعد المواجه للشرق، ونزلنا الدُّرج خمس طبقاتٍ فصرنا إلى مدخل العمارة، ومن ثم خرجنا إلى الشارع العريض قليلاً، متنفّسين الصعداءَ على عادة هؤلاء المرثيين إذ ينجون من القصف أو من الأسئلة. والتفتنا يميناً وشمالاً لنتخيَّرَ وجهةً مّا نسلكها فتشابهت الجهتان على امتداد الشارع الموازي للعمارة من الشمال إلى الجنوب: براميل هناك، وبراميل تقابلها هنا. نعم. كان الشارع مغلقاً من جهتيه، بدءاً من عمارة «أبي كيره» وانتهاءً بساحة صغيرة جنوباً، تتوسَّطها بضع شجرات تفتّتَ من حولها سياج حديدي رقيق، مطلي بلون أخضر. ولم يكن في الشارع غير ثلاثة صِبْيَةٍ ورجل بدِيْن: صبيّان قرب العمار، والرجل وصبيّ آخر قرب الساحة. وكان البديْن يلوِّح من مكانه الجنوبي في اتجاه الشمال، صارخاً: «لماذا تضرب أخاك يا كلب؟»، فيردُّ الأكبر فيهما: «أخي يعبث ببندقيته فيلقّمها يا أبي، وأنا أسأله أن . .» فيضيع صوته في صراخ البدين ثانيةً: «والله سأتبوّل على بندقيتيكما، أو أرسلكما إلى البيت إذا تخاصمتما». وكان واضحاً أنّهما إبناه، إضافة إلى الثالث الذي يشاطره حاجزَ البراميل قرب الساحة ذات الشجرات المغبرة. والأربعة ـ بحقّ ـ يبدو متحسِّبين، بأسلحتهم الرشاشة، وبذخيرتهم المتدلّية في الجُعَب العسكرية على خصورهم، إلاّ صغيرهم الواقف إلى جانب أبيه البدين، الذي

لم يجد ـ كما يبدو ـ بنطالاً عسكرياً، فأبقى قميصه المُموَّه متدلياً على بنطاله الأزرق، الملطَّخ ببقع من الزيت المتسرب من مفاصل سلاحه، وهو يحتضنه بذراعيه تارةً، أو يجلس وقد مدَّدَ الرشاش القصير على فخذيه لعدم مقدرته على حمله طويلاً. وكان واضحاً أنه يستعرض أمام أبيه قدراً هائلاً من اليقظة التي بدت مضحكة جداً، كأنه يجتاز امتحان بقائه خفيراً على الحاجز، أو أن يرحل إذا لم يَرْضَ البدين عن يقظته وتحسُّبه. فكان يقوم ـ فجاءةً ـ بينما يرتطم إخمص رشاشه بالأرض من الثقل، ويتلفّتُ من حوله هامساً: «صوت دبابة يا أبي»، فيتطلَّع إليه البدين ممتعضاً: «دبّابة؟ هذه دودة رأسك يا حمار». لكن الصبي النحيل كماسورة رشاشه، ذا الرأس الكبير والعينين السوداوين، لا يبدي حساسية من ذلك الهزء، بل يمضي في لعبته البسيطة، متصنِّعاً إصغاءً كإصغاء الأرنب: «هنالك من يضع عبوّةً أمام دكان الحلاّق في الشارع الخلفي يا أبي»، فيطرق البدين من تَبَرّمه بلعبة ابنه المُفتَضَحَةِ: «ولماذا أمام دكان الحلاّق يا حمار؟»، فيرد الصبيّ فاتحاً عينيه على وسْعِهما: «لم يخفِّض السّعر للمحاربين، مدَّعياً أن شعورهم وسخة». فقاطعه البدين متخلّصاً من ثرثرة ابنه: «اذهب والقِ نظرةً، إذاً». وأردف ـ في حين كان الصبي يسند رشاشه إلى السياج الحديدي المُعْوَجّ: «لا ترجع قبل ساعة. إلقِ نظرةً على الشارع الذي يلي شارع الدكان، والشارع الذي بعد ذلك الشارع، حتى تصل إلى البحر. تبوَّل هناك وارجعْ». فركض الصبيُّ دائراً من حول السياج المحيط بالشجرات المُغْبَرَّة حتى جذورها، نصف دورة، ليصير إلى ملتقى الشارع الخلفي، في نهايته، بالشارع الذي أغلقته عائلته ببراميل الرمل، ثم اتّخذ وضعاً مُرَاقِباً لصق جدار أول بيتٍ هناك يطلُّ على الجهة الغربية، واختفى ـ بعد ذلك ـ كشبح ـ في المُنحنى.

نعم. جاوزنا الرَّجلَ البديْن وبراميله، والشجرات المُغْبرَّة حتى جذورها، جنوباً، مارِّيْن ببضع عمارات على الجانبين بدتْ مهجورة بالزجاج المُحطَّم على حدود أرصفتها، إلاّ من محاربين قِلَّةٍ في كلّ مدخل، بدوا أقربَ بألوان ثيابهم إلى الظلال، صامتين، يصغون إلى صفير الحديد في الهواء، وهو يبلِّغُ ـ كساعٍ غاضب ـ رسالةَ الموتِ المقروءةَ إلى المرثيين. غير أننا لم نمضِ طويلاً في الشارع لنبلغ نهايته، إذ اختصرتْهُ عمارةٌ سقطت بكامل هيكلها من

الرصيف الجنوبي على الرصيف الشرقي، فاتّكأت على عمارة منخفضة في الجهة الأخرى، حتى بدا منفذٌ يمكن عبوره من تحتها. لكن هيبة الهيكل الإسمنتيّ، في انحنائه المُحْتَقِن ذاك، كان كافياً أن يدفع الخطى بعيداً لتَعْبُرَ من أيّما جهةٍ إلّا من تحت ذلك القوس. ولا ندري لماذا عُدْنا أدراجنا قليلاً إلى حيث زقاق متفرّع ـ غرباً ـ لنمضي منه إلى وجهتنا، فيما كان لنا ـ كلامرئيين لم يدرُجُوا على التحسّب لعمارة منهارة أو واقفة ـ أن نعبر النفق الذي شكّلَهُ جذعُ العمارة المتقوّس، في سقوطها، مع الشارع العريض.

لقد عُدْنا أدراجنا لنتفادى العبور من هناك، متّجهين غرباً إلى المستديرة التي يعلوها جسرٌ عالٍ بقوائم إسمنتية ضخمة، غلّتْها صور موتى كثيرين، وإشارات بين الصور وفوقها، بألوان من الدِّهان سالتْ خيوطاً خيوطاً حتى جذور تلك القوائم. وكان الرمل والإسفلت المتقلِّع من قذائف لم تخطىء المكان لسنين، يوماً بعد يوم، مُنتثرَيْنِ على كل شبر، وكذلك بضعة آثار مّما تركَتْهُ أحذيةٌ مهرولةٌ بغنائم من البيوتِ المهجورة، التي يغادرها أصحابها إلى أمكنةٍ أكثر أماناً، في نوبات القصفِ المُتبادلِ بين شطري المدينة.

وإذ جاوزْنا المكانَ ذاك، مسافةً غيرَ قليلة، غرباً بالطّبع، بات الخرابُ أقلّ كثافة، وظهر ـ كلّما أوغلنا ـ أفرادٌ مرئيون، فرادى، متناثرون، ما لبثوا أن صاروا جماعاتٍ صاخبةً، رائحةً غاديةً، بأسلحتها ومن دون أسلحتها، فجاوزْناهم أيضاً، وسط ممّراتٍ ضيقةٍ من متاجر من صفيحٍ بدا بناؤها مُرْتجلاً، سريعاً، في سباقٍ خفيٍّ لإدراك مِلْكيّةٍ مفقودة، فإذا بنا أمام صخور متفاوتة الارتفاع، تتدرّج بأحجامها نزولاً حتى حدود الرمل الذي يتصل ـ بعد خطوات قليلة ـ بمياه البحر.

نعم. وقفنا نحن الخمسة اللا مرئيين، ذوي الكثافات الرطبة، أمام البحر ذاته الذي سيلقي «أ. دهر» فيه بمفاتيح بيته، وبمفاتيح أخرى، في فجر يومٍ مّا، حين يغادر المدينة مع محاربين آخرين على سطح سفينة لا أُبّهةَ فيها. ولن نستعيد الآن، بالطبع، أسئلتنا المعهودة ونحن أمام ذلك الشُّطَطِ الأزرق، حول الأربعة الأيام الضائعة بين سقوط عمارة «أبي كير» ـ بعد زمن من تاريخ وقوفنا هنا ـ وبين ظهور الشاب على سطح السفينة، ناظراً في الظلام إلينا

مباشرةً، متوهّجَ العينين بجمرِ لُفَافته التي يأتي عليها نَفَساً بعد نَفَس.

نعم. نحن أمام البحر ذاته، المُشْتَغِلِ بأنواله الزبدية على نَسْجٍ صَخَبٍ ذي رذاذٍ متألّق. لكن ما يستوقفنا، نحن الخمسة اللامرئيين ـ وقلّما يستوقفنا شيء ـ هو ذلك الحشد العظيم من الكراسي الشاغرة، في صفوف أنيقة تواجه البحر، على امتداد الشاطىء المتعرّج من مَطْرَحنا حتى أقاصي ما يمكن رؤيته، جنوباً، بعَيْنَيْ كشّاف على صارية. نعم. صفوف من الكراسي لها لونٌ مزيجٌ من الزبد والرمال معاً. وكان واضحاً أنها مهيّأة لصنف آخر، غير هؤلاء المتنزّهين على الشاطىء، هرباً من القيامة المُسْتَعِرَة في الشوراع البعيدة قليلاً، إذْ مضوا يجاوزون تلك الكراسي دون اكتراث. لكننا ـ مع المغيب الصارم الذي كنّس المتاجرَ الصفيحية، والنازحينَ من الدّور إلى العراء الرمليّ، ألِفْنا أشباحاً، من لون الكراسي ذاتها، تتهادى على مهلٍ من جهة الشرقِ، أفواجاً أفواجاً، ليتّخذ كلُّ شبحٍ مقعده، في هدوء صارم كالمغيب نفسه، مواجهاً البحرَ. ولم يكن صعباً اكتشاف أن هنالك أشباحاً من هؤلاء حديثة العهد بالمجيء إلى الشاطىء، لأنها استقدمت كراسيُها معها، تجرُّها جرّاً. وما كان ليفوتنا من معنى المشهد أنهم قتلى المصادفات، أولئك القاطنون في المدى القريب بين أساسات عمارة «أبي كير» والعمارة التي تواجهها جنوباً، حيث هَمَّ «أ. دهر» مرةً أن يصرخ بالرجل الشاحب، الذي يطالبه بأجرة شقّته: «نسيتَ هؤلاء. خُذْ منهم أجرة مكوثهم هنا»، لكنه هذّب لهجته: «أيأخذون منهم بَدَلات استئجار؟»، موجّهاً سؤاله الساخر إلى الشاحب، فردَّ الأخير: «هؤلاء موتى وأنتم أحياء» في إشارة إلى مطالبة «أ. دهر» بالدَّفع.

نعم. أشباح مصادفات جديدة تلتحق بالقدامى، لتضمَّ كراسيَّها إلى الكراسي الأخرى. أمّا الخطى فهي ذاتها، بآثارها الدموية التي بدت ظاهرة في الرّمل أوّلَ الشفق، ثم امتزجتْ بظلام الغَسق. وقد نسينا أمرَنا الذي قُدْنا أنفُسَنا من أجله إلى هذا الفراغ المائيّ، إذ غطّى الليل ما غطّاه، تاركاً لأشْكالٍ قليلة ـ مِنْ مِثْلِ الأشباح الجالسين على الكراسي تحديداً ـ أن تتبدّى أكثر خيلاءً بسكونها، حيّةً دون نأمةٍ أو نَفَس، كثيفةً بالعَدَم المنتظِرِ في هياكلها الرّصينة.

نعم. تقدَّمْنا نحن الخمسة، ذوي الكثافات المؤرّقة، من الصفوف

تلك، و جَعَلْنا ننظر إلى حيث ينظرون من البحر، فلم نَحْظَ من الظلام المنبسط على المياه إلاّ بما يشبه جسم سفينة، بعيداً، ثابتاً، ضخماً. وقد تلاشى ذلك الجسم مع قدوم الفجر، فقام القاعدون عن كراسيِّهم، ثم ولّوا ـ في هدوء صارم، أيضاً ـ من حيث جاءوا. غير أنهم كانوا يلمُّون آثار الخطى التي تركتْها أقدامُهم في الرمل، كَمَنْ يلتقط أصدافاً مُنْتَثِرةً، حتى عاد الرملُ ـ حين اختفوا ـ مستوياً نقيَّ الصفحة. فذكَّرْنا كثافاتِنا ـ آنذاك ـ أنّنا أزمعنا أن نغادر هؤلاء المرئيين، من أيِّها اتّجاهٍ، لكننا بوغتنا بالمدى العاري الذي لا يفضي إلاّ إلى المرئيين من حولنا. فحاولنا أن نتذكَّر كيف كانت تتمُّ عودتنا إلى «هناك»؛ إلى المكان الذي يصرخ الصّارخُ بنا منه: «عودوا. . »، فما استقامَ لنا تشكيل مشهد يدل على مكان نعبره، أو سبيلٍ نسلكه، أو جبال نتسلَّقها، أو فراغٍ نَنْشَدُّ إليه فيصِلنا بمقامٍ عُلْويٍّ.

نعم. لم يكن أمامنا، نحن الخمسة اللا مرئيين، غير إدراج احتمالٍ واحد في المُمْكن، بعد التمحيص الكبير، وهو أن الصوت الذي كان يأمرنا بالعودة هاتفاً «نسيتم أن تكونوا لا مرئيين» لم يكن إلاّ صوتنا نحن، مُنْبَعِثاً من كُنْه أننا لا نعرف أين نمضي إذا مات من نحن موكَّلون به من المرئيين، فعدنا أدراجنا، كالأشباح تلك، دون فضولٍ أو دَهَشٍ، من المعابر ذاتها التي سلكناها مبتعدين عن عمارة «أبي كير»، في اتجاهها. وإذ بلغناها صعدنا الدرج إلى الطبقة الخامسة، متَّجهين يميناً صوب شقة الرسام، لمعرفتنا أن «أ. دهر» ما كان لينام في شقته هو، بعدما حصد القصف ما رأينا من أشباحٍ جُددٍ، آتين بكراسيِّهم إلى الشاطىء، فإذا هما ـ الرسّام والشاب ـ جالسان على أرض الشقة بكامل ثيابهما، وبينهما صحف مُفْتَرَشة فوقها بصل وكبدٌ نِيْءٌ، وبعضُ شرابٍ. وكانا يتخاطبان بعيون حمراء من السَّهر، لكنَّها مَرِحةٌ في اتّساعها:

ـ «لم يتعب من ثرثرته، ابن الثعلب» قالها الرسام، وقَهْقَهَ حتى اغرورقت عيناه؛ بينما بدا «أ. دهر» مبتسماً، يراقب انفعال صديقه، ثم سأله حين توقَّف عن الضحك:

ـ أحضرتَ خطابه؟

فرد الرسام: «ليتني حضرته. أخبرني أصدقائي بالرعب الذي أحسّوا به

وهو يشير إلى «القائد» الجالس قربه، بين حين وآخر، أو ينحني عليه مستشيراً»، وانفجر ضاحكاً من جديد، مردِّداً: «يستشيره»، فَعَلَتْ قهقهةُ «أ. دهر» بدوره، مردِّداً: «يستشيره. ولِمَ لا؟ إستشارةُ الميتِ أفضل من إستشارة الحيِّ الضجران». فقاطعه الرسام، وهو ما يزال على ضحكه، ممتلىء الفم بلقمةٍ مطحونة: «قائد ضجران؟ أنت تهذي»، فرد الشاب: «ألا يدعو إلى الضجر هؤلاء القادمونَ متثائبين، حتى لو كان القائد ميتاً؟».

نعم. حين غادرنا ـ نحن الخمسة اللا مرئيين «أ. دهره كان يشرح لصديقه كيف هربت المرأة التي رسمها له من داخل اللوحة، وإذ عدنا مع الفجر أَلفناه محاججاً صاحبه، في مَرَحٍ صاخب، حول سبع سنين استغرقتها خطبة الرجل ذي الشعر الخفيف، في صالة السينما.

نعم. كانت ذبذبات صوت الخطيب عالقة بالهواء الثقيل فوق المدينة، وداخل شوارعها وبيوتها، فلم تصعد إلى الأعالي، على عكس الأصوات الأخرى التي تُخَفْخِفُ، بعد صعودها الأثيريّ، في طبقةٍ مّا من الفراغ: «إنها فترة تأمُّلٍ»، هذا ما يمكن التقاطه إذا أصغى المُصغي، جالساً في زاوية مّا من بيته، حيث التقاطع الكثيف للذّبذبات، عادةً، بين جداري في التقائهما. وإنْ أراد المُصغي ذاته أنْ يَقْرِنَ ذلك الصوتَ بصورةِ صاحب الصوتِ فالأمرُ هيِّن.

نعم. الخطيب نحيلٌ قليلاً، وخفيف الشَّعر، ذو حاجبين مستقيمين، فوق عينين يُكْثِرُ من التَّضْييق بين جفونهما كتدليلٍ على حَصْرِ أفكاره. أما الباقي فهو على النحو التالي، لسبع سنين، يتخلَّل كل يومٍ فيها وجبات طعام سريعة، في الصالة ذاتها، ثم يعود الرجل ـ بعدها ـ إلى اعتلاء المنصَّة. نعم. البقية على النحو التالي: «نحن في حاجةٍ إلى هذا التأمُّلِ الذي ذكَرْتُهُ»، ويلوي عنقه في اتجاه «القائد» المُطْرق على كرسيِّه، مضيفاً، وقد ابتعد صوته عن المكبر فبدا ضعيفاً إلاّ للقريبين، في الصّف الأمامي: «أنت الذي علَّمتنا ذلك»، متوجهاً بكلامه إلى الغارق في زيّه العسكري، وفي صمته أيضاً. ودون أن يرفع عينيه عنه، يرفع يده اليسرى إلى الحاضرين: «لن ينتقِصَ هذا الحكيم من قَدْرِكم ليقول ما الذي ينبغي أن تتأمَّلوه»، وارتدَّ بعنقه ـ سريعاً ـ صوب مُكبِّر

الصوت، كأنّما يداهم وجوه القاعدين: «تأمّلوا ما تشاؤون، لكنْ ليكن تأمّلاً حقيقياً، منزّهاً عن الصغائر، تضعون نصْبَهُ أن الحقيقة ستقال، مرة واحدة وإلى الأبد، بفعل الضرورة التي لا تُرَدُّ للمرحلة». وشدَّد على ترديد كلمة «المرحلة»، مبتسماً كمن يذكّر الآخرَ ببديهيّةٍ مّا: «المرحلة تنسج ضرورتها، ومن ضروراتها أنتم».

وتوقّف الخطيب خفيف الشُعر مصغياً إلى وقع كلامه، فما سمع رَجْعاً، فالتفت إلى «القائد» من جديد، صارخاً: «إنني أبلغهم، باسمك يا قائدي، كم تأمَّلْتَ ماضيهم، ليتأمّلوا ـ هم ـ راهنَهم، فيعينوك على أن تكونوا ـ معاً ـ ضرورةَ المرحلةِ: هُمْ لكَ وأنتَ لهم». فعلا تصفيقٌ خفيف، فازداد الخطيبُ احتداماً: «جميعكم تتقنون الآن لغة قائدي. لقد أباحها لكم سطراً سطراً، وجملةً جملةً، ومخارجَ حروفٍ أيضاً، لكن هذ التأمّل...»، وتوقّف مستغيثاً بالجالس الخارق في كرسيه: «هذا التأمّل الذي احتكم عليه، باسم قائدي، هو المطلوب».

نعم. لثلاث سنين لم يتزحزح الخطيب، ذو الشْعر الذي ازدادَ خِفّةً كمعاني خطابه، أمام حضورٍ بات يأتي مدفوعاً بفضوله مرّةً، وبهربه من ساعات القصف إلى مكانٍ آمن مرّةً أخرى، دون أن تثني بعضهم حتى الرائحة التي حاولت جُثّةُ «القائد» ـ بفعل إصرارٍ داخليّ ـ إخفاءَها، لكنها انبعثت، قليلاً قليلاً، من تحت ياقته أولاً، ومن كُمَّيْ قميصه المفتوحين عند معصميه ثانياً، ومن رِدْنَيْ بنطاله ثالثاً.

نعم. كان ذلك في الأسبوعين الأولين إذ أنزلوه ـ ميتاً ـ من العمارة إلى صالة السينما، دون إعلان ذلك قط، بعدما تم تحضير الحفل الخطابيّ لأيام سُدَّتْ خلالها طُرقات، وفُتِحَتْ طرقاتٌ إلى العمارة الدائرية، بحسب ما تقتضيه الحيطة والحذر. وقد تمكّن الخطيب، في اليوم الأول، أن يبرّر تأجيل إلقاء «القائد» لكلمته، بدعوته الحاضرين إلى التأمّل، وأذِنَ للحضور ـ بعد ذلك ـ باسم «القائد» ذاته أن ينصرفوا، على أن يحضروا في الغد.

وانقضى الغد، وما بعد الغد، على النحو المرسوم لجثّة ينبغي تأجيل

خطبتها سبع سنين، حتى تندثر فيتأجّل فضول المدينة كلّها، بناسها، وبيوتها، وشوارعها المغلقة حيْطةً، أو المفتوحة إهمالاً. نعم. لم يتزحزح الخطيب عن مداوراته حول التأمّل إلاّ بعد ثلاث سنين، فارتدى ـ للمرة الأولى ـ دون أن يغادر الصالة قط، ثوباً عسكرياً، وهو الذي دَرَجَ على ارتداء ثياب مدنيّةٍ بدا الإهمال واضحاً عليها بسبب مشاغل الرجل على الأرجح، وبخاصّةٍ ما ظهرَ من فُتحةِ قميصه عند الصدر، كأنما تساقطَ زرٌّ أو زرّان هناك؛ وكذلك من رُكْبتَيْ بنطاله المنتفختين، كأنما لا يجد وقتاً لتبديله فينام وهو يرتديه.

نعم. ظهر الخطيب ذو الشْعر الخفيف في ثوب عسكري، ممسكاً بقبّعةٍ في يده، كما يفعل «القائد» الغارق بعظامه في الكرسيّ، فابتدرَ الحضورَ القليل: «كان لا بد من ذلك. لقد اضطرّوني...»، وأشار بيده إلى ثيابه من الأعلى إلى الأسفل: «وعليّ أن أكون في الموقع الذي أُملي عليه شروطكم». ورفع يديه معاً، مقاطعاً أناساً لم يقاطعوه: «شروطكم، وحدها، هي التي ستجعل المرحلة متوازنة بعد اختلالها». وانحنى: «سأنحني لكم، أنتم، أيها الذين سينقذون المستقبل». ونظر بطرف عينه إلى «القائد» في كرسيّه وثيابه اللّذيْن علاهما غبار خفيف، مضيفاً: «لقد قال لي»، وهزّ رأسه يميناً في اتجاه الجثة، دون ذِكْر أيّ لقب: «قال لي مرّة: أنقذني من المستقبل»، وتصنّع الدّهش: «كيف أنقذهُ من مستقبلٍ يصنعُهُ ـ هو ـ بنا؟». ثم ألوى شفتيه: «إنْ لم يكن واثقاً منّا فلماذا حاول صُنْعَ ذلك المستقبل؟». وسكت برهةً، مُشخصياً القاعدين: «واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. تسعة. إثنا عشر.. لا بأس. فليختفِ الآخرون وراء المقاعد»، مشيراً إلى الفراغ البعيد في عمق الصالة الرطبة، التي أنارتها مصابيح ضعيفة بفعل مولّد الكهرباء الضعيف: «لأنني سأقول ما ينبغي قوله عن المستقبل». ورشف من كأس أمامه جرعةَ ماء، مضيفاً: «أستطيع إطلاق سراح المستقبل ليؤكّد لكم كَمْ هو فخورٌ بإقامته معنا»، ثم رشف جرعةً ثانية من الكأس: «كلُّهم فخورون بالإقامة بيننا: المهاجرون من الجهة الشرقية للمدينة. المخدوعون. الشرفاء. المخنّون. مصمّمو الأزياء التي باتوا يشككون

في عراقتها. المستنيرون. الأرض، والسماء، والشواطىء غير المدنّسة، والغروب...». ولعق شفته العليا مبتسماً: «عليّ أن أقول لكم شيئاً عن الغروب» ملتفتاً في شماتة لا تُخفى إلى «القائد»، مشيراً بأصابع يده اليمنى كلّها إليه: «لم يقل لنا شيئاً عن الغروب. كان حريصاً على النهار وحده»، والوى وجهه، في بطء، صوب القاعدين، متسائلاً: «المغيب مسألة أخرى كالمستقبل. وأنا أضمن لكم - بضميري وقناعتي معاً - أن تأكلوه»، وكوّر يديه كأنما يحيط بهما كعكةً دائرية، ثم فتح فمه مُقْبلاً على نهشها: «هكذا سنقضم المغيب المُحَلّى بعُصارة النهار. أمّا بقية شعاعات الشمس ففي استطاعتنا أن نلحسها»، ومرّ بلسانه، الممدود خارج فمه، على الهواء، من يمين الصالة إلى يسارها، ثم قرّب مُكبّر الصوت من شفتيه فالصقه بهما، وتجشّأ: «اسمعتم؟»، ومدّ المكبّر صوب القاعدين في الصالة: «تجشّأوا». واستدار بالمكبّر ذاته، متصلّب الجسد، إلى «القائد» الذي ظل بعض شَعره عالقاً بعظم جمجمته المُغْبرة، هامساً: «تجشّأْ أنتَ أيضاً». ثم اقترب بالآلة التي في يده من «القائد» أكثر، فلامس بها أسنانه العارية، صارخاً: «تجشّأْ. تجشّأ»، وتراجع إلى الخلف ممعناً النظر، بقوة، في الجثة التي لم يفارقها الحَرَس منذ أول يوم لنزولها إلى صالة السينما.

نعم. في ثلاث سنين أخرى لم يَحِدِ الخطيبُ كثيراً عن ترديد كلمتيْ «المستقبل» و«الغروب»، مع إشارات بيديه، أو برأسه، إلى «القائد» دون ذِكْرِ لقبه قط، حتى اللحظة التي صرخ فيها بالجالس: «تجشّأ»، وكان ذلك في أواخر السنة السابعة من الحفل الذي لم يُلْقِ غيرُ خفيف الشَّعر بخطابٍ فيه. وفي اللحظة تلك دفع الخطيبُ كرسيَّ «القائد» بقدمه، فسُمِعَتْ طقطقةُ عظام، وتدحرجتْ جمجمةٌ، وكفٌّ بسُلامِيّاتٍ متماسكةٍ، مضمومة على قبعة عسكرية. أما بقية الهيكل العظمي فظلّت داخل تجاويف الثوب الذي لم يبلَ كثيراً. إذ ذاك نهضت الحفنة المتناثرة من الناس عن مقاعدها، في الصالة، مذهولةً، وهي القادمة بفضولها المَرِح. وعمّ، لبرهةٍ عمياء، هدوءٌ يعضّ بأسنانه

على الضوء الشاحب بين الكراسي، وعلى الجدران الطّويلة. وكأنما استدرك الخطيب ذو الشعر الخفيف جسامةَ حركته تلك، ففتح ذراعيه وفمه معاً، لكن طلقةً من الخلف اخترقت بَصَلَتَهُ السيسبائية، تحديداً، وخرجت من تحت لسانه الورديّ المرتعش، فاتّكأ بجذعه على منصّة الخطابة، وانزلق قليلاً قليلاً حتى غدا جاثياً وراءها لا يُرى.

بعد ذلك عمد الحرّاس، ذوو الوجوه الصارمة، إلى لَمْلَمَةِ «القائد» وتثبيته على الكرسي من جديد. ولمّا بانت الجثة في وضع مقبول، لم ينسوا أن يُعلّقوا إلى سُلاميّات يده اليمنى قبعته. وعادوا فاتخذوا وضعاً على نصف دائرة من خلف الهيكل الغارق في كرسيّه، باقين على الحال تلك حتى انهيار عمارة «أبي كير»، وما بعد انهيار عمارة «أبي كير»، وظهور «أ. دهر» على سطح السفينة المتجهة غرباً بالمحاربين.

نعم. كان علينا أن نقهقه أيضاً، نحن الخمسة اللاامرئيين، من حال «أ. دهر» وصديقه الرسام، وهما ماضيان - في الصباح ذاك، الذي عدنا فيه إلى العمارة بعد رحيلٍ قصير - إلى ثرثرتهما العذبة بوجهين مؤرَّقَيْنِ:

- «هذه لك»، ويرفع «أ. دهر» شراباً أبيض إلى فمه، فيرد صاحبه: «وهذه لك» متجرّعاً كمثله شراباً أبيض أيضاً، ويزدردان الكبد النيّء والنعناع الأخضر. لكن «أ. دهر» لا ينسى أن يذكّر صديقه، لمرة ثالثة أو رابعة، بالمرأة التي هربت من داخل اللوحة التي وهبها له الرسام، فساءله الأخير، في نبرة جادة، ماسحاً ببعض أصابعه على شاربيه الأشقرين: «أين علّقتها؟»، فرد «أ. دهر»:

- «على الجدار الشمالي لغرفة الجلوس، أولاً، لكن الضوء الداخل من الباب الزجاجي كان يزغلِلُ العين إذا انعكس على زجاجها، فنقلْتُها إلى الجدار الغربي، أسفل جلد الكَنْغر المعلّق، تماماً»، وقسّم حبّة بصل، دافعاً بلبّها المُزّلِق إلى فمه: «كانت المرأة تتجسّم يوماً بعد يوم، حتى صارت نافرةً بجسمها الأخضر خارج الزجاج الذي تكسّر في واجهة اللوحة». وهمس وسط مَضْغِهِ

للقميه : «لماذا رسمتها خضراء؟».

فردّ الرسام : «حتى تسألني لماذا هي خضراء؟». فابتسم «أ. دهر» متسائلاً من جديد :

ـ فلنفترض أنني لم أسألك.

فأجابه صديقه : «إذاً ستكون امرأة خضراء محضة، دون أن يسأل أحد عن ذلك». وانفجرا ضاحكين بعدوى داخلية متوافقة. وقد حاول «أ. دهر» بعد ذلك، لدقائق، أن يوقف صاحبه عن القهقه فلم يستطع، فكان ينزلق هو الآخر مقهقهاً، وهما يردّدان : «خضراء. خضراء».

وإذ هدأ أكمل الشاب للرسام ما كان يحاول قوله أثناء قهقهة الأخير:

ـ «لم أجفلْها، ولم أبدِ حتى دَهَشاً. تركتها تنزلق من داخل اللوحة على مهل، وقد علق بثوبها المُظَلَّل بعض النبات الذي رَسَمْتَهُ، وفاح منها ضوعٌ رطبٌ». ووضع كفه على الأرض، ضاغطاً بها البساطَ الرقيق فوق الاسمنت : «هكذا غاصت قدمُها الحافية في الكَنَبة، ثم أنزَلْتُها حتى صارت واقفة قبالي، فلم أجد بدّاً من التحديق فيها كما باتتْ تحدّق، هي، فيَّ. ثم اتّجهت صوب الباب، باقيةً على حالها من النظر إليَّ، وولّت خارجةً». وزمَّ شفتيه في أسف : «كنتُ أبله في تصنُّع ذلك الهدوء. لقد ضيَّعتُ موقفاً مثيراً كان يمكن الزجُّ بنفسي فيه لو امسكتُ بها مثلاً». وتوقف ملوِّحاً بيده في فراغ كلماته : «لا. لم يكن ضرورياً أن امسك بها، بل أستوقفها في أدب»، وهزَّ يده على النحو السابق كأنما يعترض، بنفسه، على ما يقوله هو: «لا أعرف، بالضبط، أيُّ أدبٍ كان عليَّ أن أتصنّعه حين أستوقفها، وبِمَ أناديها؟»، محدِّقاً في الرسام : «ألها إسم؟»، ولم ينتظر جواباً من صديقه، بل أردف : «لا أعتقد أنها كانت ستهتمُّ حتى لو ناديتها باسمها». ورفع كأسه بالشراب الأبيض إلى شفتيه فتجرّعه كلَّه، ثم سعل من الحرقة التي أحسّها في بلعومه، وتنحنح مستردّاً صوته : «أنت هيّأتَها للهرب»، وأشار إلى صديقه غامزاً : «أنت هيّأتها للهرب. كنتُ أرى، بأعماقي، تواطؤاً بينك وبين اللون».

فقهقه صديقه صارخاً : «توقعتُ ذلك. قلت لنفسي إنك ستفسّر هرب المرأة على أنه تواطؤ بيني وبين اللون». وجلس على ركبتيه كمن يتوسَّل إلى الآخر، لكنه بقي مستمراً في هأهأته : «لو استوقفتَ المرأة، يا أحمق لاحتلّت جسدك».

فاتّخذ «أ. دهر» هيئةً مُعاتبةً، برغم أنفاس الدُعابة المتبادلة بينهما :

ـ ولماذا رسمتَ لوحة كهذه يا خرتيت؟

ـ «إنه الامتحان، وقد قبلتَهُ» قال الرسام، وحاول أن يفسّر قليلاً وهو يقضم عِرْقاً من النعناع : «قبلتُ أن تمتحنني اللوحةُ، فامتحنتُها بكَ». فمط «أ. دهر» شفته، متسائلاً :

ـ وكيف امتحنْتَها بي؟

فردَ صديقه : «عرفتُ أنك لن تجفل حين تنزل المرأة»، فقاطعه «أ. دهر» :

ـ وماذا لو جفلتُ فهربتُ، أو كسرتُ اللوحة؟

فردَ الرسام : «كنتُ سادرك، حينئذٍ، أنني لا أعرف كيف ارتكبُ حماقةً». واستلقيا على ظهريهما، بفمين مفتوحين بدا في ظلامهما طعام ممضوغ، من الضحك الذي فاجأهما من جديد. ولما سكتا بادرَ «أ. دهر» صديقَهُ مُستدرِكاً أمراً فاته :

ـ ماذا عنيتَ بقولك إن المرأة كانت ستحتلُّ جسدي لو استوقفتُها؟

فرفع الرسام يده، طالباً من الشاب ـ بغتةً ـ أن يصغي : «ألا تسمع؟»، ثم كرَّر الكلمة، ملتفتاً باذنيه وعينيه صوب الباب الزجاجي المطلّ، جنوباً، على العمارة المجاورة : «أسمعتَ؟»، فأمال «أ. دهر» عنقَه، مثل صاحبه، محاولاً الاصغاء، لكنه رفع كتفيه هامساً :

ـ أنا لا أسمع شيئاً. ما الذي تسمعه أنت؟

ـ «ثمت. . » ونهض الرسام : «ثمت شيء ما يجري» قال. وتقدم إلى الباب الزجاجي المفتوح فعبَرهُ إلى الشرفة، ونظر منها إلى الشارع، شمالاً ويميناً، ثم عاد رافعاً كتفيه كتعبير عن خيبته.

نعم. كنا نحن الخمسة اللامرئيين نستشعر أمراً مّا، كالرسام، وسط

أصوات القذائف التي أحالت ذلك الصباح إلى كشّافٍ خائفٍ للزمن. وكان فَكِهاً، بالطبع، أن يُقْدِمَ صديق «أ. دهر» على إصغاءٍ مُسْتَطْلِعٍ يغربل الدَّويَّ الأخرق للحديد عن سواه، حتى أن «أ. دهر» نفسه لم يقل للرسام، مثلاً: «أثمت صوت مختلف وسط هذا العويل؟»، ولم يضحك ساخراً: «وما الذي تسمعه يا أحمق، غير قهقهة المرأة الهاربة من لوحتك إلى مجرى المصعد؟».

نعم. أصغى «أ. دهر» بعدوى إصغاء صديقه، لكنه، حين لم يسمع شيئاً، عاد مُقهقهاً برغم حركات الرسام وهو يُسْكِتُهُ، متمتماً: «العمارة المقابلة تحاور عمارتنا». فتطلّع إليه الرسام معاتباً أول الأمر، ثم انجرفَ مع مَرَحِ «أ. دهر» فضحك بدوره، قائلاً: «بل أسمع الثياب المنشورة على حبال الغسيل يخاطب بعضها البعض، بين العمارتين». فردّ الشاب:

- صوت ثيابنا المغسولة أعلى، وبخاصة السراويل الداخلية.

فأردف الرسام: «وصوتُ حَبْلِنا أرقّ». ثم ساءل صديقَه: «أتعرف ماذا يقول حَبْلُنا لحَبْلِ الغسيل في العمارة المقابلة؟»، فأجابه «أ. دهر» بسرعة:

- يقول له أعطِني طَرَفك.

- «لا.» ردّ الرسام: «لا. يقول سأفضّ الثياب التي عليك»، وانخرطا، من جديد، في نوبة من الضحك، قطعها الرسام بإشارة مفاجئة - للمرة الثانية - من يده، طالباً من «أ. دهر» السكوت: «لا تقُلْ إنك لم تسمع»، فأجابه الشاب:

- ماذا تعني؟ لم أسمع حقّاً.

ولمّا أكد له الرسام، بإشارات ملحاحة، أنه يسمع شيئاً مّا، قال «أ. دهر»:

- سأستجلي الأمر من شرفة شقتي.

ونهضَ واقفاً، فاستوقفه الرسام: «أتذهب إلى شقتك في هذا القصف؟ لا». لكن «أ. دهر» اتجه صوب الباب، وإذْ صار إلى الممر، خارج الشقة، همسَ غامزاً: «لن أموت الآن».

نعم. مضينا - نحن الخمسة اللامرئيين - من خلف الشاب، وصعدنا مثله الدرجات القليلة إلى الطبقة السادسة، ثم عرّجنا شمالاً، خطوة واحدة، كما فعلَ. وإذ فتح باب شقته ودخل دخلنا من ورائه، فتقدم، عبر المطبخ إلى

الشرفة المطلّة شرقاً، واتّكأ على السياج الحديدي بصدره، منصتاً دون تحديد، فيما كان دخان رقيق يتصاعد من سطوح البنايات المقابلة، ومن سطح المسجد ذي المئذنة المصابة بقذيفة. ثم ارتدَّ خطوة إلى الوراء، ممعناً النظرَ في المشهد الذي بدا يلقي بثقله على كلِّ ثِقَلٍ آخر، في الجهة الشرقية، إذ غطّى ظلٌّ هائل لسفينةٍ سطحَ المرئيات، كأنما العمارات كلُّها غارقة في الماء. وكانت السفينة شفيفةً كزجاجٍ بعيد، بمحركات مشتغلةٍ تُصْدِرُ طنيناً، وثمتَ محاربون ألقوا بصدروهم على السياج المحيط بسطحها، ناظرين غرباً إلى المدى الذي سيلقي «أ. دهر» في مياهه - ذات صباح - بمفاتيح قليلة، بعد أربعة أيام ونصف اليوم من انهيار عمارة «أبي كير».

نعم غالَبنا الشكُّ في أننا رأينا العمارة تنهار حين وجدنا أنفسنا، وجهاً لوجه، مع «أ. دهر» على سطح السفينة الحديدي، التي أقلّت المحاربين، بمواثيق دولية، إلى الجهة الأخرى من البحر. لكننا اسْتَعَدْنا مشهداً قدَّمه الأحياء المرئيون كبرهانٍ على انهيارها. فعلى مقربة من الأنقاض المترامية للعمارة، فيما كان أهل الحارة يتحلّقون، بين مُساعدٍ على انتشال الموتى أو متفرِّجٍ آسٍ، استوقفَنا حوارٌ خفيف بين رجل في الخمسين، يقطن شقة في الطبقة الثالثة من «أبي كير»، وبين ابنه الذي بدا متأسّفاً لِما سيقوله لأبيه:

- لم يَبِعْني جريدةً.

فزمّ الأب شفتيه سائلاً:

- انفدَت أعدادها؟

فَرَدَّ الابن: «لم يَبِعني».

ففتح الأب عينيه دِهِشاً: «يملك نسخاً ولا يبيعنا؟ أنحن نستجديها؟».

وكان واضحاً أن الرجل قد أعطى ابنه ثمن صحيفة ليشتريها من محل قريب اعتاد على شرائها منه. ودون أن يحاجج ابنه كثيراً في الأمر قال له: «هاتِ النقود»، وهو ينظر نظرة شكٍّ إلى وجه الصبي، فردَّ الأخير النقود إلى أبيه، محاولاً شرح أمرٍ يتعذَّرُ شرحه:

- أبي. الحكاية أن البائع...

فقاطعه الأب، منادياً على ابنته: «هيه. تعالي»، فاقتربت فتاة في الحادية

عشرة، بدتْ على شرودٍ: «نعم؟». فناولها الأب ثمن الصحيفة: «اشتري صحيفة من هناك»، وأشار بيده إلى المحلّ البادي بطرفٍ من واجهته في الجهة الجنوبية.

لكن الفتاة عادت بعد غياب لم يَطُلْ، وإذ واجهتْ والدها مدّت إليه النقود: «خذْها. لم يَبِعْني». فانفجر الأب صارخاً: «ماذا يجري؟»، فردت الفتاة في هدوء يشوبه ارتباك:

- لم ينتبه إليَّ يا أبي. كلَّمْتُهُ فلم ينتبه. هززْتُ كُمَّ قميصه فلم ينتبه.

إذ ذاك انـدفـع الأب، في سَوْرة غضب، صوب محلِّ بيع الصحف، فركضت إليه الفتاة الصغيرة حتى جاورته، هاتفة: «إنه لا يرانا يا أبي». فتوقف الأب ضاغطاً بيده على جبهته كمن تذكَّر شيئاً: «أناميت». كان عليه أن يتذكَّر ذلك. والموتى لا يشترون الصحف، بالطبع.

نعم. قدُم الرجل ما يبدِّد أيَّ شك. فعمارة «أبي كير» انهارت عليه وعلى أولاده، وعلى «أ. دهر» أيضاً. غير أننا ننظر، الآن، مع الشاب، من الشرفة، إلى الظلِّ الشفيف الهائل للسفينة، منعكساً على العمارات الغارقة في طبقة كالسراب، شرقاً. ثم نتراجع، إذ يتراجع «أ. دهر»، إلى داخل البيت، ونمضي من خلفه إلى الممر الذي ينتهي في آخره، شمالاً، بتلفاز مركون إلى الجدار بين باب غرفه النوم وباب الحمّام المتقابلين. ولمّا يتوسَّط «أ. دهر» الممرَّ ذلك يستند إلى الحائط بظهره، ثم ينزلق، رويداً رويداً، حتى يجلس القرفصاء، وقد انسلَّ قميصه من تحت حزام بنطاله، في انزلاقته. وعندما يستقيم له قُعُوده، يضم ركبتيه بذراعيه إلى صدره، ناظراً إلى شاشة التلفاز المُطفَأة في الرّكن، هناك. وإذ نتأمّل، بدورنا، الجهازَ المُطفَأ، نرى في عمق شاشته البيضاء خمسةً على كثافةٍ متماوجةٍ كأنما يهمُّون أن يجلسوا القرفصاء أيضاً، صفّاً واحداً، لصقَ الجدار الغربي من الممرّ، فيما يتصاعد نباح مائة كلب من أعماق العمارة؛ من الأساسات الصلبة، حيث يشتغل قتلى المصادفاتِ - في جهةٍ مّا - على توزيع أقدارهم في مكاييلَ كبيرة.

الفصل الرابع

كان الوقت عصراً حين خرج جد «أ. دهر» من بيته، قبل أربعين سنة من مولد الأخير، صارخاً: «خدعني»، وهو يتخذ طريقه عبر السهول إلى جهة لا تهمُّ أحداً، بالضبط كليْلَته التي لن يهتمَّ أحد أين أمضاها. غير أن الصباح، في ذلك الربيع الشاحب، بدا رفيقاً بخطوات الشاب، فلم تضيِّق الريحُ عباءته على ساقيه، ولم تضايق جفنيه، أيضاً.

رخياً تراءى المدى، واثقاً، متّصلاً، كأنّما يوسّع للرؤية ممّرات في الأفق ذاته، وكان ثمت بخار خفيف يتصاعد من الأرض، بفعل الشمس القوية التي تذيب الندى الملتمع فوق كل عشبة، أو تحتها، فيتموّج المشهد في عيني جد «أ. دهر» دون أن يفقد وضوحه. وفي المشهد ذاك لاح خط داكن مستقيم، ممتد من الغرب إلى الشرق، معرِّفاً عن نفسه كدرب سلكه الكثيرون حتى تحـدَّدَ في صرامـة. وكـان الشـاب يقصـد الخطَّ الـداكن تحديداً، وهو قادم من جهة الجنوب، بدليل أنه توقف قليلاً، مضيِّقاً بين جفونه ليقدِّر المسافة الباقية كي يصل، دون تذمُّر في ملامحه.

حين وصل الشاب، الذي سيكون جد «أ. دهر» بعد أربعين سنة، إلى مقربة أمتار قليلة من الدرب، عرج على شجرتي كينا، نَمَتا ملتصقتين فتكثَّفَ ظلُّهما، فجلس مستنداً بظهره إلى جذعهما العريض، ممـدِّداً ساقيه أمامه على العشب الذي بدا كثيفاً لصق الشجرتين، أكثر من ذاك الواقع على بُعْدٍ منهما، ثم أشعل لفافة تبغ راقب بعينيه اتجاه دخانها، متفقِّداً حركة الريح ربما، لكنه لم يكن معنياً، في حقيقة الأمر، إلاّ بالحركة اللولبية للدخان متصاعداً بينه وبين

الأفق الشمالي، وهو يزفر في حرقةٍ: «خدعني».

كان الوقت يمضي رويداً رويداً، والشاب لا يبارح جلسته تحت شجرتي الكينا، كأنما ينتظر مرور عربة تجرها البغال، أو سيارة «توربيدو»، من تلك التي تتوقف بعد كل فرسخين، فيضطر سائقها إلى إدارة المحرّك، ثانيةً، بقضيب ملتوٍ يدخله من فتحة في مقدمها، بينما يتجاذب ركابها الثمانية، على المقاعد المصفوفة كخطوط في دفتر، أحاديث متداخلةً يقطعها خفق اجنحة الدجاجات، أو إجفالة خراف صغيرة يحشرونها تحت المقاعد حشراً.

الظل ينحسر، والشاب على انتظاره. دعاسيق تصعدُ أوراقَ العشب الداكنة، وإذ تصل إلى نهاياتها تفرد أجنحتها الغمدية المرقّطة وتطير. عصفوران من هزّار الذيل يحطّان على منتصف الدرب، عجولين في حركتهما، وما يلبث أن يحط عصفوران آخران من فصيلة السُّمْن ذي القَنَازِع، بُنّيّانِ من لون التراب، فما تكشفهما العين إلاّ إذا ركضا. وقد تقاربت العصافير الأربعة، كأنّما وقعت على حَبٍّ مّا، ومن ثم تنافرت لتطير، بغتةً، عجلةً بعضها من بعض. حشرة ملتمعة الجناحين، أشبه بالجُعَل، سقطت، في طيرانها المنخفض الثقيل، على فخذ الشاب، فتركها تدب على مهل، حتى نزلت عن فخذه واختفت في العشب.

قدما الشاب تصيران خارج دائرة الظل في انحساره. فردتا حذائه المطاطيتان، بالسيور التي تشدُّ عنقيهما على ساقيه، تسخنان قليلاً قليلاً تحت الشمس المنفلتة، بينما يُطفيء عقب لُفافته في التراب الرطب، حيث أطفأ، من قبل، أعقاباً أخرى. ويميل على جنبه متكئاً بمرفقه على الأرض، سانداً رأسه براحته، كأنما سيغفو.

ريح رخية موّجت العشب، لكنها أحسَّت بالدفء المنبعث من قبل، فبدا موطيء الظل، حيث يتمدّد جد «أ. دهر» أكثر برودة. إذ ذاك اعتدل المتمدِّد في جلسته وهو يلمّ أطراف عباءته المهملة من حوله، ثم خرج من دائرة الظل زحفاً على ركبتيه إلى ضوء الشمس، وتمدّد راضياً أول الأمر، لكنه عاد فجلس في قلق، وهو يعاين الريح التي باتت أكثر هبوباً من حوله، فيما انبثقت

غيوم بيضاء صغيرة، متنافرة، لم تلبث أن تداخلت قوافلَ قوافلَ، ثم اسودت بطونها، مُغْلقةً ما تبقى من شقوق بين عجلاتها على آخر الشعاعات، فأَعْتَمَ ما لم يكن معتماً من قبل.

هكذا عاد الشاب، ملتفّاً بعباءته أكثر، إلى الاحتماء بشجرتي الكينا الملتصقتين. لكن الريح خمدتْ فجاءةً، في الآن الذي بعثرتِ الصمتَ فيه قطراتُ مطرٍ كبيرة، نزلتْ في تؤدة أول الأمر، وما لبثت أن تلاحقتْ بعدئذٍ، قويةً عجلى، تضرب رؤوس العشب فتلمس الأرض من الثّقل. أمّا الشاب فلم يُلْجِئْهُ ورقُ الكينا، فرفع عباءته يغطي بها رأسه المعصوب بحطّةٍ ذات ذؤابات، غير أن الماء انساب على استقامة أنفه، وانحدر من هناك قطرةً قطرةً لامست شفته السفلى.

وكما بدأ المطرُ عجولاً انتهى في إشارة خفيّة، فتقدمت الريحُ ثانيةً، مشْرِنةً باردةً، تمهِّد، بعد برهةٍ، لِبَرَدٍ انهمر دفعةً واحدةً كأنّما من غربالٍ مثقوب، مّما اضطر جدّ «أ. دهر» الشاب إلى إلصاق رأسه بساقيْ شجرتي الكينا الملتصقتين اتقاءً، وعاد فاستقام رويداً رويداً بأثرٍ من التناقص المتسارع في انهمار البَرَدِ حتى توقف، فبدا مشهد العشب فَكِهاً باستلقائه تحت طبقة رقيقة بيضاء، بينما بدا الدرب الذي كان بنّياً أكثر استسلاماً، (منظوراً إليه من مَكْمن الشاب)، للجَمَدِ، مهتوكاً، لا يدلّ عليه إلاّ عريه من أيٍّ نبات.

وفي التعاقب المضحك ذاك بزغت الشمس من جديد، أكثر جسارةً بعد غُلْبَتِها، فتحسس الجدُّ القيدَ الحديدي المتدلّي من حزامه، وهو يلتفت بعينيه غرباً، حيث امتزج صوت محرّك آليّ بعيد، قادم في اتجاهه، بتمتمته الخفيضة «خدعني».

الفصل الخامس

(عزيزي. لا ـ في ودّي ألا أكتب إليك مبتدئاً بكلمة «عزيزي»، لكنني في موقف ضعيف يضطرني إلى مجاملتك. أقْنَعْتُهُم أنني جئت بالسفينة إلى هنا. لك منطق مُقْنع. لكن دعني أسألك سؤالاً خافتاً: أين أخفيتُ المسجدَ المقابل لعمارة «أبي كبير»، والبيوتَ من حول المسجد، إلى أبعد شارع كان يمكن أن يُرى من شرفة شقتي؟ ها؟ ليست لدي جرّافات. ولقد أقنعتهم. لك منطق مقنع، عزيزي، وليست هذه أول مرة تحشرني في موقع لا أستطيع الخروج منه. بالطبع تعرف الرجل البدين، ذا اللكنة السوقية، زوج البدينة، القاطنَ الطبَقةَ الثامنة، من جهة الغرب، الذي يغلق أنابيب المياه التي تصل الخزان، فوق السطح، بالشقق كلها إلاّ شقته؟ يدّخر الماء لنفسه ابن القحبة.. أنت تعرفه؟ ها؟ سألني وهو يلهث على الدرج:

ـ قل للصغيرة أن تخفّف صخبها يا جاري.

رفعتُ كتفيّ قائلاً: لم أفهمك.

ـ ابنتك.

ـ ابنتي؟؟

فكرَ في ضيق: ابنتك أنت.

أنت تعرف أن له أربعة أخوة في أحد التنظيمات المحلية، وهو يستمد جسارة سلوكه منهم. لكنك تعرفني أيضاً. أليس كذلك؟ برغم كل الذي فعلته بي إلاّ أنك تعرفني. سأغتصب العمارة وأساساتها إذا تحدّث إليّ شخص بلهجة لا تروقني. غير أنني قلت له، في هدوء، محسّساً إياه بخطئه أولاً (حتى أسرد

عليه كم هو كلب، بعدئذٍ):

ـ أنا غير متزوج.

فجاراني في الهدوء: أتريد أن أعرّفك بها؟

ـ سأكون ممتناً لك لو فعلتَ.

ـ انزل معي الدرج.

ـ سأنزل.

وتركت باب شقتي مفتوحاً، وأنا أنزل من خلفه في تفكّهٍ ساخر، لكنني أغلي غيظاً من نكتته. ولّما وصلنا إلى الردهة في مدخل العمارة تلفّت يميناً، وشمالاً، هامساً: «كانت هنا»، فازمعت أن أبدأ هجومي، كأن أصرخ: «سأجعلك تشرب كل مياه العمارة التي تسرقها»، ممسكاً بخناقه، وأنا أدفع ظهره إلى باب المصعد المغلق، لكن طفلة تبلغ السادسة، أو السابعة، دخلت الردهة، فجاءة، قادمة من جهة الشارع، فأشار البدين: «قل إنك لا تعرف هذه؟». فاعترضتُ الطفلةَ، وفي نيتي السخريةُ من البدين، هاتفاً بها: «يا ابنتي، ابنة من أنتِ؟»، فتوقفتْ مبتسمة، ثم تقدمتْ فأمسكت بقميصي، عند الخاصرة، والتصقتْ بي، ناظرة إلى البدين كأنها أمِنَتْ شرَّه، فرفع الأخير كتفيه: «فلتخفّف الحلوة صخبها» وغمزني، ثم استدار صاعداً الدرج، بينما ظللتُ في مكاني متمعناً في الطفلة التي رفعتْ وجهها إلي، وهي ما تزال ممسكة بي. ابتسمتُ فابتسمت. هززتُ رأسي في توبيخ مخالطه المزاح سائلاً من جديد: «ابنة مَنْ أنتِ يا حلوة؟»، فدفنت رأسها في خاصرتي ضاحكةً من السؤال. لكنني أبعدتها عني قليلاً، بيدي، لأواجهها:

ـ لماذا تضحكين؟

ـ أتريدني أن أبكي يا بابا؟

فأجفلتُ. ثم تمالكت نفسي:

ـ ابنة من أنت؟

ـ ابنتك.

وإذ رأت الدَّهشَ على وجهي اقتربت لتدفن وجهها من جديد في بطني، متفاديةً عقاباً مّا، فلم يكن مني إلّا أن طوّقت راسها بذراعي، يا عزيزي. وأنا، عادةً، حين تدفعُ بي إلى ورطةٍ أتبنّاها. نعم. ما من مخرج آخر. اتبنّاها لأحرجك أنتَ، فيما بعد، لأنني لا أملك طريقتك في الاقناع يا عزيزي.

أتريد أن تعرف بقية القصة مع الطفلة؟ أمْ كيفَ انقذت نفسي منهم حين اتهموني بإيجاد ذلك الميناء قبال عمارة أبي كير، كأنني مسحت مدى الأبنية كلّه بخرقةٍ من المشهد، من جهة الشرق، كما تُمْسَحُ الطباشيرُ عن لوح مدرسة، وسوّيت المياهَ إلى أبعدِ بُعدٍ؟ أتريد أن تعرف؟

كنتُ أنظر، من الشرفة إلى سطح السفينة الراسية قبال العمارة، وأنا أكاد ألوّح لبعض المحاربين الواقفين هناك، ممن اعرفهم، فارتفعت طرقات عنيفة على الباب. وأنا ـ كما تعرف ـ لستُ ممّن تُقْرَع أبوابهم على هذا النحو. صرخت من مكاني: «فلتنكسر يدك» وأنا أعني أيّاً كان، ثم فتحت الباب، بعد قفزتين، متحسساً مسدسي لأُحْكِمَ راحتي على مقبضه، فألفيت بنادق كثيرة مصوّبة إليّ. صُعِقتُ. قلت مبتلعاً ريقي: «ماذا يجري ايها الاخوة؟»، فردّ أحدهم: «ارفع يدك عن مسدسك»، فأرخيت قبضتي عنه، ورفعتُ يدي إلى مستوى وجهي:

ـ ماذا يجري؟

ـ السفينة . . .

ـ ما بها؟

ـ من أجاز لك المجيء بها إلى هنا؟

أنت مُقْنِع يا عزيزي . . . مُقْنِعٌ خارق. فَمَنْ يقنع اناساً كهؤلاء انني جئت بسفينة خرجتُ من البلد عليها، عائداً بها (لا أعرف كيف) إلى مكان لم يكن ميناء من قبل، لَهُوَ شخصٌ خارق. والمسجد؟ أنا نفسي أتساءل أين المسجد الذي كان محل المياه هنا، وأين البيوت، وأين الجهة الشرقية كلها من المدينة، حيث المدافع التي ترصّد عمارة «أبي كير»؟ لكن عليّ ان أتبنّى سبباً لظهور السفينة في هذا المكان، بالمحاربين الواقفين على سطحها. لذلك قلت دون تفكير كثير، ولم يكن هنالك متّسع للتفكير على كل حال:

ـ لن تبقى طويلاً.

فتكلّم الذي تكلّم من قبل: لو أنك بلغتنا بالأمر، في الأقل، لما كان هنالك من إشكال.

قلتُ: لم أجد أحداً هنا حين جئت بها.

ـ «كنا هنا» ردّ الشاب نفسه.

سألته: أين؟

فأجاب محتدّاً: نرفع الأنقاض.

ـ «أية أنقاض؟» سألتُه.

ـ «أنقاض هذه العمارة»، قالها، ورفع إحدى يديه يُريني خدوشاً على ظهرها كَمَن يقدّم برهاناً على كلامه، فابتسمتُ دون إبداء سخريةٍ حتى لا استثيره، متمتماً في ثقةٍ: «العمارة في خير»، وَرَبّتُّ بيدي على الجدار، متطلعاً إلى السقف ثم إلى الأرض، مقدّماً، بدوري، برهاناً على صلابة ما حولي. لكن الشاب ذاته انفجر مقهقهاً، فجاراه أصحابه على نحو عصبي، وما لبثوا أن تحلّقوا برؤوس متقاربة كأنما يتشاورون همساً، وعادوا فتباعدوا، ليتقدّم مني ذلك الشاب بملامح جادّة:

ـ تَدَبَّر لنا ان نصعد إلى ظهرها . .

ـ أتعني السفينة؟

ـ نعم.

قلتُ: «اصعدوها. الأمر هيّنٌ» وضربت كفّاً بكفٍّ أُنهي حكاية هذه الزيارة الموحشة كلها، ولم أنسَ ان اضيف: «خذوا سُلّماً معكم»، وأنا أرد الباب، في هدوء، بيني وبينهم، واثقاً من انصرافهم. وتوجّهت، بعد ذلك، إلى الشرفة، كي أتأمّلهم يخرجون من بوابة العمارة، فما خرجوا قط. ولّما تعبتُ عُدتُ أدراجي إلى الباب ففتحته ظنّاً مني أنهم ربّما لم يغادروا فما وجدتُ أحداً يا عزيزي . . ».

نعم. بغتة توقّف «أ. دحو» عن كتابة رسالته حين دخلت الممرّضة إلى

الغرفة التي تحويه مع جريحين آخرين. وكان قد دأب، منذ استعاد قدرته على الاتكاء بظهره إلى طرف سريره، على كتابة رسالته التي لم تكن لتنتهي فقراتها إلّا بدخول الممرّضة، فيدسّها تحت الوسادة. وكنا نحن الخمسة اللامرئيين يصيبنا الضجر من الحوار المعاد ذاته، مثل تساقط قطرات المصل في الأنابيب المتصلة بسواعد الجرحى هناك:

- «ما الذي تُخفيه؟» تسأله الممرضة.
- «لا شيء» يردُّ.
- «قلت لي الكلمة ذاتها في المرة الماضية» تقول الممرّضة.
- «ما العيب في هذه الكلمة؟» يجيب، ثم يفترقان مبتسمين، هي إلى خارج الغرفة، وهو إلى استعادة أوراقه. وكان في ودّنا، نحن الخمسة اللامرئيين، ان نحدّد من هو المعني ب «عزيزي» في رسالة «أ. دهر» لكننا لم نقع على تحديده.

وهي رسالة بدأها في اليوم الثاني والعشرين من إصابته بأربع طلقات في فخذيه، حين حاول أن يحول بجسده بين صديقه الرسام وأولئك الذين قتلوه. وكان يتوقع تخفيف اندفاعهم إذ رفع يديه صارخاً: «يا إخوان، فلنتحدّثْ..» لكن أحدهم صوب رشاشه إلى فخذي «أ. دهر»، وكان واضحاً أنه لا يقصد إلّا تنحيته، بهذه الطريقة القاسية، لمّا وقف مستغرباً اندفاعهم. وحين سقط أرضاً، أطلق آخران وابلاً من رشاشيهما على صديقه المستطلع تلك الضجة غير المرتقبة، فسقط بدوره على العارضين الخشبيين، اللذين يحملان اللوحة الفارغة إلّا من نافذةٍ في جهتها اليمنى.

عقلاء، وانصاف عقلاء، توافدوا على عمارة «أبي كيرو» لتصحيح سوء التفاهم المميت الذي جرى. فقد اتضح أن المداهمين أخطأوا الشقة، غير أنهم كانوا يقصدون شخصاً بشاربين كثّين، في الطبقة الرابعة، وشاربا صديق «أ. دهر» الكثّان زادا الخطأ خطأً، برغم وجوده في الطبقة الخامسة.

نعم. عَنَّ لنا، نحن الخمسة اللامرئيين، لوقتٍ قصير، أننا سنكون في حِلٍ من مصاحبة «أ. دهر» بعد إصابته تلك، بسبب غيبوبته الطويلة. ثم تناقصت آمالنا، برغم أننا لم نكن نعرف أين سنمضي إذا تحرّرنا منه. وأول

إشارة على خسارتنا كانت همسته المتعَبة: «لا. فلنتحدّث». واسترسلَ، بعدئذٍ، يوماً بعد آخر، لتتّسعَ تلك الجملةُ: «خذوا اللوحة. النافذة لا تعنيناه. «لم يرسم العمارة. لم يرسمكم». وحين أفاق، للمرة الأولى، في اليوم الثاني والعشرين من إصابته، متهالكاً نفسه وجسده قليلاً، طلب اوراقاً وقلماً، ليبدأ:

(عزيزي. لا. لست عزيزي، غير أنها كلمة لا تعني شيئاً، لذلك أخصُّك بها. واسمح لي، في بداية هذه الرسالة، بتذكيرك أنك أقنعتهم بوضع العبوة تحت جُبّالة الاسمنت، أمام العمارة الجديدة التي ارتفعت سبع طبقات غربي عمارة «أبي كيرو». أتعرف ماذا جنيتَ؟ كنتُ اقودهم أيها الأحمق، كنتُ أقود أولئك الذين تعرفهم، اعني الثمانين ذوي المعاطف القديمة التي درجوا على ارتدائها حتى في الصيف. لم يكن لهم إلمام إلّا بحقول القطن. من أرسلهم؟ لا ادري. لكنهم جاؤوا إلى البلد بطرق شرعية، وحصلوا على أذونات بالاقامة فيه، مثلي. وكانوا ينامون ليلهم في مدخل تلك العمارة ذات الهيكل غير المكتمل، وعلى الأرضيات الاسمنتية المتراصفة واحدة فوق الأخرى، والعارية من جهاتها الأربع.

كنت فضولياً، فهم ليسوا عمّال بناء، أو عتالين، مع علمي أن عمّال البناء، والعتالين، قد غادروا المدينة بعد اندلاع هذه الحرب الأكثر رفاهية بين الحروب الكبيرة. ولم يكونوا يغادرون تلك الهياكل الاسمنتية حتى في ساعات السُّعار وطيش قذائفها. أمّا كيف يحتاشون فذلك أمر ما ساءلَ أحدٌ نفسه فيه. وقد بادرتُ بعضهم، ذات يوم، مُسْتَدرِجاً إياهم:

- متى ستنهون هذا البناء؟
- نحن لسنا عمّال بناء.
- «ها» نطقتُها، مردفاً: «أنتم تنظيم جديد، لكنني لا أرى أسلحتكم»، فردّوا بجدٍّ على فكاهتي المبطّنة:
- لسنا تنظيماً. نحن قطّافو قطنٍ مياومون.

بادرتهم ببديهة غير سريعة: «لدينا حقول قطن في قبو عمارتناه، وتوقّفتُ عن الابتسام، ممتعضاً من سخريتي الخفيفة، لكنهم تحلّقوا من حولي، مشيرين

بأيديهم، أو بعيونهم، إلى عمارة «أبي كير»:

ـ أتعني تلك العمارة؟

فرددت: «أنا أمزح. كان قصدي أن أتحدث إليكم، فقط». ولمّا رأيتهم جادّين في النظر إلى عمارة «أبي كير»، خشّنْتُ فِطْنتي على محاورةٍ أقلّ مزاحاً، وأقلّ إشكالاً:

ـ ما من حقول قطن في البلد. ماذا جاء بكم؟

ـ «القطن»، ردّ بعضهم.

ـ «هناك من غشّكم، إذاً» قلتُها.

ـ «لا. كنا نعرف أن الحقول قريبة منّا، لكننا لم نعرف أنها على هذا القرب»، قالوها مشيرين إلى عمارة «أبي كير».

لقد أدركت يا عزيزي، في تلك البرهة، أنك أقنعتهم بأمر القطن، ووضعتني أمامهم في صورة الدليل. وأنت تعرف، بالطبع، أن عليَّ، في موقف كهذا، تبنّي ما تُقْنِعُ الآخرين به، فقلت لنفسي: «لا بأس. لدينا حقول قطن في قبو العمارة»، وتمعّنت في أقربهم إليّ:

ـ كم أنتم؟

ـ ثمانون.

ـ أنتم قليلون. لكنني قد أتدبّر معكم أناساً آخرين.

فردّ الذي أمامي: «لا ضرورة لذلك. سنبعث من يأتي بنسائنا في يوم واحد».

همستُ في استغراب: «نساؤكم؟»، واستدركتُ فقلتُ: «لا بأس»، وتقدّمتُهم مشيراً أن يتبعوني فتبعوني، وإذ وصلنا إلى مدخل «أبي كير» أشرت عليهم بالنزول إلى القبو فنزلوا، واحداً وراء الآخر، في صمت لا يُسْمَعُ فيه إلاّ حفيف معاطفهم الثقيلة، بينما صعدتُ الدرجَ إلى شقتي، كأنما أديتُ ما عليَّ، وقسمتُ الوقت ذاته بيني وبينهم).

نعم تلك كانت المرة الأولى التي يكتب فيها «أ. دهر»، وقد رأيناه متجهماً حين أنهى آخر جملة، فنضّد أوراقه في تعب، ووضعها تحت الوسادة،

ليتحسس فخذيه المغلّفتين بالجبس. ثم نظر إلى أحد السريرين اللذين يجاوران سريره من جهة الشمال، فابتسم للشخص الملفوف رأسه إلاّ عيناً واحدة، وموضعاً صغيراً في زاوية من فمه يسمح بمرور أنبوب المصل. ثم غمزه، فاهتز جسد ذلك الشخص. وتمادى «أ. دهر» فأخرج له لسانه، فاهتز سرير الشخص. فاستخرج «أ. دهر» ورقة من تحت المخدة، ثم كوّرها ورمى الشخص المُمَدَّد بها، فَعَلَتْ همهمةٌ مختنقة من بين اللفائف البيضاء المُحْكمة على كل رأسه.

نعم. كان ذلك هو دأب «أ. دهر» كلّما أنهى فقرةً، أو نصف فقرة في رسالته: يتفكّه بالجريح الذي لا يستطيع إلاّ الهمهمة من غيظه. ولربما تمادى فسردَ لذلك البائس ما لا يُتمُّه في الرسالة: «اسمع يا ابن . . ابن من أنت؟» ويرفع رأسه ملقياً ببصره إلى الجريح الثاني، البعيد عنه: «يا أبا السّعلة، ابن من هذا؟»، فيسعل ذلك الشاحب، الذي شُدَّ رأسه بسلسلة إلى قضبان سريره حتى لا يحرّك رقبته. وهو يسعل أبداً. يسعل حتى تجحظ عيناه، دون أن يتحرّك جسده قط، فتسعفه الممرِّضة، من وقت إلى آخر، بحقنة تجعل تنفّسه منتظماً.

«ابن من هذا؟» يوجّه «أ. دهر» سؤاله إلى رجل السّعال، فيميل الأخير بعينيه، وحدهما، صوب الشاب، مبتسماً ابتسامة لا تُرى، وهو يتمتم: «إنه ابن هذا» ويشير بيده الحرّة الى ما بين فخذيه، فيضحك «أ. دهر» بقوّة، بينما تُسْمَع طقطقة الجبس على جسد الجريح الذي بينهما، كأنما سيتفجّر لحمه من الغضب. إذ ذاك يتابع الشاب مخاطبة ذلك البائس، الذي يحدّق بعينه الوحيدة، من ثقب قناعه الأبيض، في بياض السقف: «اسمع. كنا نستطيع أن نجمع من مدخل عمارتنا، كل صباح، قطناً يكفي لصنع فراشين»، ويتنحنح: «ويكفي ضماداً لثلاثمائة جريح مثلك»، ثم يفتح يديه مخاطباً فراغ الغرفة: «جَمَعَ سكانُ العمارة، في هدنات القصف، لهم، ولجيرانهم، ولجيران جيرانهم، ما يكفيهم، ولم ينته القطن. فاض مدخل العمارة، ثم فاضت الأدراج به، في الطبقات الثماني، ثم زحف القطن إلى الشقق، فاضطررنا إلى

فتح أبواب المطابخ المطلة على الشارع، حتى ينحدر القطن منها، عبر الشرفات، خارجاً، فلا نختنق»، وتوجه إلى الجريح الغارق في الجبس، من جديد: «ماذا تفعل في وضع كهذا؟. أنا أبيض. الشقة بيضاء. الدرج أبيض. الشرفة بيضاء. الشارع أبيض، وقبو العمارة . . لا أعرف ماذا يجري هناك. أهو أبيض أيضاً؟ قل لي ماذا تفعل يا ابن . . »، ويغمز الجريحَ ذا السّعال، الذي يبادل جملته بإشارة من يده إلى ما بين فخذيه، كأنما يقول «ابن هذا»، في تفكّهٍ شاحب.

«نعم يا جميل» يقول «أ. دهر» للجريح الغارق في الجبس، مضيفاً: «كان علينا أن نبعد أولئك الثمانين عن قبو العمارة، بطرق مهذّبة، لكن عزيزي . . أعني عزيزي الذي لا تعرفه، وضع عبوّة تحت جَبّالةِ الإسمنت، في مدخل العمارة ذات البناء غير المكتمل، حيث ينامون عادة، فاختفوا. لا أعرف إذا كنتُ متواطئاً في ذلك، لكنني، اقسم بالجبس الذي عليك، لم أفكر إلاّ في توجيه ملاحظة إليهم: «يا اخوان، لا نريد قطناً خارج القبو. أنتم تضايقون الحيّ». نعم. لم أفكر بأكثر من ذلك. وقد قصدتهم، مساءً إلى هيكل الإسمنت غير المكتمل، لأبلُغهم ذلك:

ـ «أتعرفون» وتنحنحتُ: «أتعرفون أننا لا نريد هذا القطن؟».

ـ «أيُّ قطن؟» ردّ أحدهم. فضحكتُ: «أين تختزنون ما تجْنُونَهُ؟»، سألتُ.

ـ «نجني ماذا؟».

ـ «تجْنُونَ الزّفت. اين تخبئون القطن الزفت؟»، فرد الشخص ذاته:

ـ نحن لا نخبىء القطن، بل نجنيه.

قلت: «أعرف أنك تبول عليه أيضاً. إحفظه في القبو، فقد ضقنا بالذي تنثرونه على درج العمارة ومدخلها»، فابتسم في الظلام:

ـ انزل إلى قبو العمارة لتعرف السبب.

قلت: «لن أنزل. أنا أبلّغك»، فردّ:

ـ انزلْ.

ـ لا.

ـ «بل ستنزل»، قالها في هدوء، فرددْتُ في هدوء مثله:

ـ «تعال لأريك حقول قطن أخرى، يا صاحبي، في قبو هذه العمارة أيضاً»، فنهض مستغرباً:

ـ «هذه العمارة؟».

ـ «نعم» قلتُها، وتقدّمت إلى مدخل العمارة غير المكتملة، في الظلام، كأنما أعرف الدرج المفضي إلى قبوها، لكنَّ عزيزي . . . ».

وتوقف «أ. دهر» عن سرده، ليستخرج أوراقه من تحت مخدته، هامساً: «اعذرني» وهو يغمز الجريح الغارق في الجبس، ثم انكبّ بقلمه ليكتب:

(عزيزي، كنتُ أقود أولئك الثمانين إلى القبو حين انفجرت عبوّتك تحت جَبّالةِ الإسمنت ذات الحديد المغلّف بقشرة من الرمل الهش. وفي لمحةٍ صرتُ خارج مدخل العمارة. صدّقني أنني طرتُ، وإذ هويتُ كان الموقعُ الذي سقطت عليه ليّناً، والمكانُ أبيضَ اغرورقتْ من وهجه عيناي. نعم. لوهلةٍ تبادر إليّ أن القطن قد اجتاح كل شيء، لكن البرودة، التي دفعت بي إلى أن أنفض يديْ مما علق بهما، وضعتني أمام الثلج وجهاً لوجه. وأنا، يا عزيزي، لم أفاجأ، وبي قدرة على التفكّر في مخرج، على الفور، دون الاستسلام للدَّهَشِ وأسئلته. والأمر، على أية حال، بسيط: كنت في مدخل عمارة، صيفاً، وألقى بي انفجار عبوّتك الى حقل من الثلج. إذاً هذا هو المراد. فليكن. وقد كدت أضحك، وأنا أتنفّس الهواء المُدَغْدِغَ ملء رئتي، لولا بعض دمٍ تحسَّسته نازلاً، في سخونةٍ، من صدغي الأيسر. غير أنني وجدت على مقربة مني مجموعة مدجّجة بآلاتٍ وأحمالٍ ما كدتُ أقترب منها حتى عرفت أنها «لجنة الخبراء».

أنت تعرف، بالطبع يا عزيزي، «لجنة الخبراء» الصامتين، الذين قدموا لتقصّي الحقائق في المدينة، ومعهم مترجمون بلغات عديدة. إنهم بدناء، تكاد تختفي عيونهم تحت ظلال قبعاتهم، ويحملون عصيّاً قصيرة كالتي يحملها عسكريون متوسّطو الرُّتب. ولمّا دانيْتُهم أشار إليّ أحد المترجمين:

ـ «أنت من عمارة أبي كير».

فقلت وأنا أنظر إلى دم بدأ يجفّ على أصابعي: «نعم»، وأردفتُ متطلعاً إليه: «رأيتك مراراً من قبل»، فهزّ رأسه وغمزني قائلاً:

ـ إنهم يحبّون الحقائق. والحقائق كثيرة هنا.

فقلتُ: «تعني هناك»، وأنا أشير بإبهامي إلى جهةٍ مّا خلف ظهري، كأنما أعني المدينة التي كنّا فيها، وليس هذا الحقل الثلجي، فأبدى ذلك الترجمان فهماً لإشارتي، قائلاً بدوره:

ـ لا فرق. الحقائق كثيرة هنا، أيضاً.

فسألته: «بوغتتُ.. أعني كيف..»، فقاطعني:

ـ تعني كيف انتقلنا إلى هذا المكان؟

ـ «تقريباً» قلتُ، فأكملَ الترجمان: «وما هي «تقريباً» هذه؟»، فابتسمتُ:

ـ بالتأكيد تساءلتُ كيف انتقلتم إلى هنا، وماذا تفعلون؟

ـ وماذا جاء بك، أنتَ؟.

ـ إنها حكاية صغيرة.

فابتسم لي، وهو يضيّق ما بين جفونه:

ـ «الحقيقة مقسّمةٌ بين الأمكنة»، وأردف مجيباً على سؤالي السابق: «إنها حكاية صغيرة أيضاً».

فسألته ممازحاً: «وما الذي جمعتموه حتى الآن؟»، فأشار إلى البُدْناء، الذين كانوا منصرفين الى همهماتهم: «إسْألهم».

ـ «أنت الترجمان» قلتُ، فردّ:

ـ «سيفهمونك. إنهم يفهمون دائماً».

سألته: «أتظنهم يعرفون حكاية السفينة؟»، فسألني بدوره: «أية سفينة؟» فشرحت له: «تلك الراسية قبال عمارة أبي كير، لم يكن ثمت ميناء هناك. غادرنا المدينة عليها، وإذ بها ترسو في المكان الـ...»، فقاطعني:

ـ «أووه» قالها كأنه يتثاءب.

عاجلته: «المسألة أكبر من أوووه»، فردّ:

ـ «لا. المسألة صغيرة».

فعدت بسؤالي إلى أوّله: «أهُم يعرفون حكايتها؟»، فردّ:

ـ حكاية السفن كلّها.

ـ «أية سفن؟»، سألتهُ.

ـ «السفن التي عادت»، قالها وتطلّع إليّ متفحّصاً:

ـ أظننْتَ أنها السفينة الوحيدة التي عادت؟.

فأومأت برأسي: «أهناك غيرها؟»، فردّ: «أووه» في ضجر.

لكنني استرسلتُ بحمّى فضولي: «وعليها محاربون؟».

ـ نعم. من لحم ودم، ويدخنون.

فرجعتُ أسأل: «أهم، أيضاً، يبقون على ظهور السفن ولا ينزلون؟»

ـ نعم.

ـ «ولماذا لا ينزلون؟» سألتُه متضايقاً، فردّ في ثقة:

ـ «ولماذا ينزلون؟ لقد اكتملتِ الحقيقة»، ورفع إصبعه هامساً في أدب: «اعذرني»، ثم اتّجه إلى حيث تحلّق الأشخاص البُدناء، لينخرط، مع المترجمين الآخرين، في حديث تتخلّله إشارات إلى الأفق القريب والبعيد، والى الهضبات الوطيئة والعالية).

ورفع «أ. دهر» قلمه عن الورقة، وقد باغته صوت صادر من الجريح الغارق في الجبس، فحدّق فيه ملياً، ثم جاوزه إلى الجريح الآخر، المشهود له بسعاله، فسأله: «أظنني سمعتُ صوته» مشيراً إلى رجل الجبس، فأغمض الجريح ذاك عينيه معاً موافقاً. فعاد «أ. دهر» يتطلّع الى الغارق في الجبس: «ماذا تريد أن تقول؟»، ثم رفع عينيه إلى رجل السعال صارخاً: «فيخلعوا هذا الجبس عن رأسه حتى لو مات، بحقّ الله»، واستدرك فأضاف: «أن يقول كلمة وهو يموت، أفضل من بقائه أبكم تحت هذا الـ..»، وبحث عن كلمة مناسبة لوصف قناع الجبس، لكن رجل السعال أشار فجاءة ـ وهو يقاطعه ـ

إلى ما بين فخذيه، كدأبه حين يسأله الشاب «ابن من هذا؟» أيْ يشير إلى إحليله، تحديداً. وهنا انفجر «أ. دهر» مقهقهاً من حركة رجل السّعال، ثم توقف بغتةً، متأوّهاً من ألم طارىء اعترى احدى فخذيه: «قحبة» قالها وعض على أسنانه، وعاد فكرّر: «قحبة هذه الساق».

نعم. كنا نستطيع، نحن الخمسة اللا مرئيين، ان نترجم ألمَ الرجل الغارق في الجبس وهو يحاول آن يتحرّر، ولمّا أدرك عقم الاعتياد على أعضائه الضعيفة لتحطيم طبقة الجبس قرّر، في صرامة، أن يستسلم استسلاماً لا رجعة فيه، فانحدر بأنفاسه، وبجسده، وبالجبس، وبالخيالات التي تهيّأت له في نوبات الحمّى الطويلة، إلى الأبدية التي بلغها بشهقةٍ واحدةٍ، تردّد صداها في حديد الأسِـرّة الأخرى. وحين نقلوا الجثة البيضاء من الغرفة، دون عناية أو رفق، بدا «أ. دهر» كئيباً، بينما اغرورقت عينا رجل السّعال المحدّقتين في السقف، وهو يتمتم للمرة الأولى، أو هكذا خيّل إلى «أ. دهر»: «أسيدفنونه بالجبس الذي عليه؟»، فالتفت إليه الشاب، متأمّلاً رجل السّعال وصوته معاً، ثم أطرق قليلاً ليعود فيسحب أوراقه، قائلاً: «لحظة من فضلك»، فهمهم الأخر في سخرية هادئة: «إلى اين انت ذاهب؟».

- «إلى الترجمان» ردّ «أ. دهر».

- «أجاءوا بترجمان إلى السرير الشاغر؟»، سأله رجلُ السعال، فلم يردّ «أ. دهر»، بل زمَّ شفتيه وهو يكتب:

(عزيزي، لقد تقدّمتُ بدوري من خلف ذلك الترجمان النحيل، ذي العينين المرهقتين، حتى صرتُ على بعد شبر منه. وأنا اهمس: «عفواً..» لألفتَ نظره فالتفتَ إليَّ فارداً اصابع يده كأنما يصدُّني عن التقدّم: «انتظرْ قليلاً»، وعاد يكمل حديثاً خافتاً مع واحد من أولئك الخبراء، فيما توزّع المترجمون الآخرون على الجمْع، كل ثلاثة، او أربعة، معاً، وهم يتحدّثون الحديث الخافتَ ذاته، بالكثير من حركات الأيدي، والاستدارة بالرؤوس والإيماء بالأعين الى الجهات، فيما تصاعد بخار خفيف من الأنوف والأفواه بين كل مقطع من الكلام والذي يليه.

لقد انتظرتُ أن ينهي الترجمان حديثه بناءً على إشارته، فوضعتُ يديّ تحت إبطيّ، دون ان أشعر بأي برد إلاّ فيهما، فأنا، يا عزيزي، قدمتُ إلى الحقل الثلجي بثياب الصيف الخفيفة، وإذ تأمّلت الأخرين وجدتهم في ثياب صيفية أيضاً، إلاّ انهم كسوا أيديهم بقفّازات بيضاء.

أنت تورّطني يا عزيزي في المواقف، عادةً، وعليَّ أنا أن أشرحها لك. فأنتَ لا تصلُ إلى شيءٍ إلاّ بي. نعم. أنا رهانُك. ذلك ما تعرفه وأعرفه. والحقُّ أن في مستطاعي إطلاق عنان الخسارة لهذا الرهان، لكنني أجاهدُ كي أربح، حتى أورّطك، شوطاً بعد آخر، في المراهنة عليَّ إلى ما لا نهاية له. لذلك ارتأيت أنْ أنتظر الترجمان، برغم ما أثارته إشارته فيَّ من الإمتعاض. فأنا لم أتعوّد صدّاً بهذه الطريقة، وبخاصّة حين لا أكون في حاجة إلى جواب.

إنني، بحقٍّ، لست في حاجة إلى جواب الترجمان، ومع ذلك تراجعتُ خطوةً لأترك له إنهاء محادثته الخافتة. وإذ استرعى بصرهُ وقوفي، بعد لحظات، كأنما كان قد نسيني، تقدّم صوبي كمن سينهي جملة اعتراضية، سائلاً: «نعم؟».

- «أيعرفون كيف انهارت عمارة أبي كير؟» سألتُه، موجّهاً بصري إلى حلقة الرّجال البُدناء، فتسمّرت عيناه اللتان كانتا عجولتين، من قبل، عليَّ:

- «أتريدني أن أسألهم؟» قالها.

- «نعم» أجبته.

- «أإنهارت العمارةُ، حقاً؟»، سألني.

- «كنتُ هناك»، أجبته.

- «كنتَ هناك، ونجوتَ؟»، سألني.

- «لا»، أجبته. فانفجر ضاحكاً، متمتماً من بين شدقيه: «أكنتَ هناك أم لا؟»، فأجبته: «نعم. كنتُ هناك»، فتفرّس فيَّ، قائلاً وقد كتم انفعالَهُ الساخر: «لم تنجُ»، فأجبته: «لا أعرف». وهنا ازداد فضوله الممتزج بالمداعبة، فسألني:

- «أإستمتعتَ بانهيارها؟».

فأجبته: «أستطيع أن أصف الذي جرى، وعليك استخلاص ما تريده».

غير أنه حوَّر المحادثة في لباقةٍ، سائلاً:

ـ «لاتهتم. نحن إلى جانب الحقيقة هذه، حيث تقف»، وأشار إلى قدميَّ، فابتسمت من طريقته الساخرة الرصينة، قائلاً: «هذا ليس كل شيء»، فأجابني:

ـ أعرف.

ـ «تعرف ماذا؟» سألته.

ـ «الحقيقة التي قربك»، ردَّ. فالتفتُّ، ساخراً، من حولي، مردداً: «أينها؟ أين فردة الحذاء؟»، فباغتني: «لا تبحث عنها».

ـ «ولِمَ لا؟» سألته. فردّ: «إذا لم تجد الفردة الأولى من الحذاء ستستغني عن الثانية». فقلتُ: «ذلك منطقيٌ. ماذا أفعل بفردة واحدة؟».

ـ «أشرتُ إلى الحقيقة التي قربك» قال، مردفاً: «لا إلى حذاء».

فأجبته نصفَ ساخر: «ذكرتُ الحذاء مازحاً، وأنا أعني الحقيقة». وتوقفتُ متفرساً فيه: «أغابت عنك دُعابتي؟»، فردّ: «لا. لكن عليك البحث عن الحقيقة في الجهتين، في الوقت ذاته»، فاسترسلتُ مداعباً برغم وطأة الحديث: «تعني أنْ أجِدَ الفردتين معاً؟»، فردّ: «نعم. حتى تجتاز الحمّى التي فيك».

ابتسمتُ، ثانيةً، يا عزيزي. بل ضحكتُ، سائلاً:

ـ لماذا اجتاز الحمّى بحذائين في قدميَّ؟ تكفي حقنةٌ بنسلين.

فردَّ الترجمان: «الحقيقة هي، أيها الجار، أن تجتاز الحمّى مشياً، الآن».

ثم قاطعني دون أن أتفوّه، سائلاً: «صِفْ انهيار عمارة أبي كير»، والتفتَ إلى الوراء، داعياً أولئك الأشخاص من خلفه حتى يتحلّقوا حولي.

فبادرتُه: «أتريدني أن أصفَ انهيارها لكَ، أم لهم؟»، فردَّ: «لهم».

قلتُ: «قلتَ لي إنهم يعرفون...»، فردَّ: «نعم. لكنهم نَهِمون، ويحبون التكرار».

قلت: «ماداموا يعرفون الحقيقة، فلماذا يبحثون عنها؟».

قال: «دعْني أشرح لك قليلاً. أعني»، وتلمَّس جبينه، قبل أن يشير إلى منفرد الأسارير: «الحقيقة هي التكرار»، فرفعتُ كتفيَّ دليلَ ضجرٍ من إجاباته، دون أن أبدي انفعالاً على وجهي، لكن عنَّ لي سؤال مباغت:

ـ «لماذا يرتدون هذه القفّازات في أيديهم؟»، قلتُ ذلك حين اكتملت حلقة الخبراء من حولي، فرد الترجمان النحيل، ذو العينين المرهقتين:

ـ لا يريدون أن يتركوا بصماتهم على الحقيقة حين يلمسونها.

بالطبع، يا عزيزي، لم أتوقف عند إجابة الترجمان، لأنني كنتُ منصرفاً إلى البحث عن مدخل لوصف انهيار عمارة «أبي كير» أمام جَمْعٍ بدا كمن يمتحن الآخر بنظراته الصامتة. فقلتُ، أوّل ما قلتُ: «لم أحسّ بشيء. كنتُ أهبط في هدوءٍ كالقطن إلى الفراغ»، وفركتُ أصابعي بعضها ببعض لكي أقدم برهاناً على الليونة: «كالقطن. كالقطن». ثم توقّفتُ متمعّناً في الوجوه قليلاً، فوجدتها خالية من أي تعبير إلاّ التحديق فيَّ، فخطر لي أن أبدأ الشرح على نحو آخر: «ليس دقيقاً أنني لم أحسَّ بشيء. هجستُ الأمرَ بإحساس غريب. لمستُه، هكذا، كالقطن»، وعدتُ أفرك أصابع يدي الواحدة بعضها ببعض، تدليلاً على نعومةٍ مّا. غير أنني استدركتُ تردادي لكلمة القطن في الوصف، فجاهدتُ أن أجد لفظة أخرى، هامساً: «أعني أنني لمستُ الأمر كـ ...»، فقاطعني الترجمانُ النحيل: «لا تتوقّفْ. استمرَّ، فقد أحسّوا الذي تعنيه».

لقد شجّعني كلامه، لكنني بقيتُ حذراً في الوصف: «لا أعرف، تحديداً، ما الذي بدأ أوّلاً: صوت الانفجار أم الظلام»، وأنا أسمع نبضي يعلو في امتحان الوصف هذا، فدرتُ ببصري يميناً وشمالاً لأتغلّب قليلاً على ما بي، مضيفاً: «لن أطيل عليكم... انهارت العمارة، حين...»، فقاطعني الترجمان ذو العينين المرهقتين: «لحظة من فضلك»، قالها لي كمن يُحَيّي شخصاً، ثم التفت إلى الجَمْع مخاطباً: «لن نرهقه في وصف انهيار العمارة»، وأشار إليَّ، مضيفاً: «إنه متردّد في كونها انهارت عليه».

فصرخت: «أتشكّكني في أمرٍ أعرفه؟».

فردَ دون أن يلتفت إليّ: «لا أشكّك في ما تعرفه، بل اسعى إلى ضمّك إلى اللجنة لِنتقصّى معاً حقيقة انهيار عمارة أبي كير».

قلتُ في عصبية مكتومة: «انهارت العمارة. اندثرتْ. نفخ الله على أساساتها، ولم يبق في أعماق الأرض التي اقيمت عليها إلاّ نباح الكلاب»، فابتسم وهو يلتفت إليّ:

- «الحقيقة هناك» قال، فابتسمت بدوري، سائلاً:
- «تعني أنها وسط النباح؟»، فردّ:
- ولِمَ لا؟.

ولِـمَ لا يا عزيزي؟ انا ايضاً اسألُ نفسي ذلك، لكنني أجد الاقتناع بالامر صعباً، فالحقيقة، كحقيقة، معرفةٌ مُرْبكة. أعني قد تكون مُرْبكةً. بل .. لا أعرف كيف أصفها، غير أنها شيء مّا من قُبَيْل الإستنطاق: إنها في جهةٍ، وانتَ في جهةٍ، والجَدَلُ على أشدّه. قد تسألني «جدلٌ حول ماذا؟». لا أعرف. ثم انني لا اعرف من يستنطق الآخر. غير ان التّرجمان اقتحم شرودي:

- بِمَ تفكّر؟

قلتُ: «في قلقي»، فاردفَ: «قلَقك مِمّ؟». قلتُ: «من الحقيقة».

ابتسم الترجمان فازدادت الخطوط تحت عينيه. ثم مدَّ يده إلى كتفي فرايت القفّاز الأبيض يغطيها، لأوّل مرة، في حين أنني كنتُ انتبهتُ إلى أيدي الآخرين. همس:

- الحقيقة لا تُقْلِق..

قلتُ كمن يشحذُ ذكاءهُ: «حين نفكّر في أمر كهذا فإنه يُقْلِقُنا». فردَّ:

- الحقيقةُ هي ما لا تُفَكِّرُ فيه.

وأنـا يا عزيزي)، ثم لمْ «أ. دهر» أوراقه، فجاءةً، حين دخلت الممرِّضة يصحبها شخص آخر، وهما يدفعان عربة صغيرة ذات عجلات مفصلية، تدلّى من قضيب معدني طويل في أحدى زواياها كيس مليء بالدم. ولما اقتربا منه ابدى دهشة: «لمن هذا؟»، فردت الممّرضة وهي ترْكُنُ العربة إلى

جوار سريره: «لك». فتقوّس صوب الأمام، في سريره: «حمدتُ الله أنني تخلّصت من كيس المصل، فلماذا هذا الدم؟»، واستدرك: «لستُ في حاجة إلى عملية على ما أعتقد. أليس كذلك؟» وحدّق بريبة في وجه الممرِّضة يستنطقها، فابتسمتْ مُطْمْئِنَةً: «لا تَخَفْ. إنها عملية تجديد دم روتينية»، فصرخ: «ما به دمي؟ أهنالك سرطان مّا؟». غير أن الممرّضة دفعته بيدها إلى الخلف، وهي تصرخ بدورها: «خَفِّضْ صوتَك، واستلقِ»، فاستلقى وهو يعرف أن ألم ساقيه سيمنعه من القيام بأية حركة. وحين أشرفت المرأة عليه، من فوق، طالبةً أن يمدّ ذراعيه معاً على جانبيه، سألها في انكسار: «بالله ما به دمي؟»، فابتسمت وهي ترد خصلة من شعرها، غير المغسول من أيام، خلف أذنها، هامسةً: «أسعفناك، حين جاءوا بك، بدمٍ من الذي تبرّع به أناس تلك اللجنة التي تتقصّى الحقائق»، وتأمّلته مردفةً: «ألا تتوهّم، في بعض الأحيان، أنك انضممتَ إلى اللجنة؟»، فتدارك «أ. دهر» دهشةً من سؤالها المُحْكم، مبدياً استغرابه: «أنا؟ إذا اردت رأيي الشخصي، أحبُّ الإنضمام إلى المترجين»، قالها دون بداهةٍ، فضحكت الممرِّضة من اعترافه المُبْطَن، قبل أن يستدرك، هو، أنه أوقَعَ نفسَهُ بنفسه، وإذ انتبه إلى زلّته، كانت الممرّضة تشرح له: «كلهم ينضمّون إلى لجنة تقصّي الحقائق. أعني هؤلاء الجرحى الذين اسعفناهم بالدم الذي تبرّعت به الجماعة تلك؛ جماعة البُدناء. ومنهم مَنْ يسألنا عن السُجلاّت التي كانت في حوزته، لمّا دخل المستشفى». وعادت إلى ضحكها: «سجلاّت، وحقائق. امّا أنت..»، واتكأت بيدها على طرف السرير متّقيةً أن تسقط عليه من شدّة القهقهة: «أنت تريد الانضمام إلى المترجين»، ونظرت إلى الذي دخل معها بالعربة المحمّلة بكيس الدم: «هذه حالٌ جديدة بين حالاتنا»، والتفتت إلى «أ. دهر» ثانيةً، متهالكةً نفسها: «أأنت ترجمان؟».

- «لا»، ردُّ الشاب الجريح.
- «ولماذا تريد الانضمام إلى المترجين، إذاً؟»، سألته الممرِّضة.
- «لأنهم يحتفظون بالحقيقة لأنفسهم»، رد «أ. دهر».

- «كيف؟» سألته المرأة.
- «لأنّ الترجمان هو الوسيط المُستمتع بفكاهة المخاطبات» قال الشاب.
- «ألا يَضْجَرُ؟» سألتْهُ الممرّضة.
- «الضجر هو الموقع الذي نترصّدنا الحقيقةُ منه»، ردّ الشاب.
- «أنت تريد أن تحتفظ بالحقيقة لنفسك، كما تقول»، قالت الممرّضة.
- «نعم»، ردّ «أ. دهر».
- «لماذا يتقصّونها؟ أعني لماذا تريد أن تتقصّاها أنت، إذا كانت لك وحدك؟»، سألته الممرّضة.
- «تلك هي المتعة. أعني أن نتقصّاها، وحين نصل إلى بعضها لا يعود لدينا ما نقوله»، ردّ الشاب.
- «أتتحوّلون إلى بُكْماء؟» سألته المرأة مزدريةً أجوبتَهُ الفكِهَة.
- «لا»، ردّ «أ. دهر»، ثم غمزها، مضيفاً: «تصير الحقيقةُ حماقةً».
- «هذا ترجمان فصيح» خاطبت الممرّضة شريكها في العمل - ذلك الصامت المبتسم الواقف على خطوتين منها، وعَمَدْت، في حركةٍ هادئةٍ ماجنةٍ، إلى رفع ثوبها عن فخذيها، أمام عيني «أ. دهر»، حتى أطراف سروالها الداخلي المسوَّر بالدانتيل، هامسةً:
- انظرْ.
- «أنا أنظر» ردّ الشاب.
- «ما رأيك؟» سألته.
- «رأيي؟»، ردّ الشاب في تساؤل، وألوى برأسه صوب السرير البعيد، الذي يتمدّد عليه رجل السُّعال، فخاطبه بصوت عالٍ:
- هيه.. ما رأيك أنت؟
فردّ الجريح الآخر، ذو الرأس المشدود بسلسلة إلى طرف السرير: «رأيي من رأيك».
- «أترى ما أراه؟»، سأله «أ. دهر» مازحاً.
فردّ رجل السُّعال: «أرى هذا»، وأشار بيده، كعادته، إلى إحليله،

فقهقه «أ. دهر»، ملتفتاً إلى فخذي الممرّضة تحديداً:
- «اقتربي»، قالها، فردّتْ:
- تخيّلْها إذا انضممت إلى أصحابك المترجمين.
- «ولماذا أتخيلها؟»، سألها «أ. دهر» فأجابت:
- «لأن لجنة تقصّي الحقائق، تلك، لا تستجّل أموراً من هذه»، فسألها الشاب ثانية:
- «أية أمور تعنين؟»، فردت مشيرة إلى ما بين فخذيها:
- «هذه»، وأسدلتْ ثوبها غامزةً «أ. دهر»، مضيفةً: «تخيّلْها. سينفعانك»، ثم استدارت لتخرج من الغرفة، فيما بقي شريكها الصامت المبتسم مشرفاً على تغيير دم الشاب.

نعم. دمٌ يدخل ودم يخرج. خدرٌ كالدغدغة يتمدّد ويتقلّص في شرايين «أ. دهر»، بينما نشرف، نحن الخمسة اللامرئيين، على الغرفة كهاوية تنبض نبضاً في فراغٍ أبيضَ تقطعه أنابيبُ دقيقة يجري فيها السائل الخبيث الأحمر. «آه لو توقّفَ» نقولُ نحن. بات كل شيء مُضجِراً، لكن صوت رجل السُّعال يرتفع فجاءة:
- عُدْ إليهم أيها الأحمق.
فيرغبُ الشابُّ المستسلم إلى عذوبةٍ مّا:
- «أتخاطبني؟»، سأل «أ. دهر» جارَه.
- «لست أخاطبك أنت: أخاطبُ ما تبقّى منك»، ردّ رجل السُّعال، فسأله الشاب بامتعاض:
- «متى ستصير جادّاً في كلامك، لمرة واحدة؟». فردّ جاره الجريح:
- أنا جاد. عُدْ إليهم يا أحمق.
- «إلى مَنْ؟» سأله «أ. دهر».
- «إلى المترجمين»، ردّ رجل السُّعال.
- «وماذا تعرف عنهم؟» سأله «أ. دهر»، فأجابه جاره الجريح جواباً في غير سياقه:

ـ هذا الدم الذي يعطونك . .

فقاطعه «أ. دهر»: «ما به؟»، فردّ جاره: «يردُّك إلى المتاهة».

ـ «أية متاهة؟» سأله «أ. دهر»، فرد رجل السُّعال: «إلى ان تبقى في موقعك الأخرق على الشرفة».

ـ «أتعني شرفة شقّتي؟» سأله «أ. دهر»، فرد الجريح الآخر:

ـ «نعم. إلى متى ستظل متفقّداً تلك السفينة من الشرفة؟»، فتملاّه الشاب سائلاً في هدوء:

ـ «أتعرف أنت، أيضاً، بأمر السفينة؟»، فرد رجل السُّعال متأفّفاً:

ـ «ضجرتُ من ظهورك اليوميّ على الشرفة كأنك تُحصينا»، فساءله «أ. دهر»:

ـ «أحصي مَنْ؟»، فردّ جاره الجريح:

ـ نحن. أعني أنا والآخرين. كنتَ على ظهر السفينة. .

كاد «أ. دهر» أن يقفز عن سريره، وهو يصرخ: «ولماذا لا تَقلعُوْن؟. أنا كنتُ على ظهرها أيضاً. غادَرْنا في اتجاه الغرب، وإذ بها ترسو أمام عمارة أبي كير في الشرق». واعتلى وجهَهُ أسى شفيف وهو يكمل: «اختفت البيوت في الجهة الشرقية من العمارة. اختفى المسجد بطوله وعرضه، لتظهر المياه»، «االحكمة يا ابن الـ . . .»، وتأمّل جارَه الجريح: «ما الحكمة في رجوع السفينة إلى هذا المكان الذي لم يكن ميناءً قط؟»، فَعلَتْ ابتسامة وجهَ رجل السُّعال المتجهِ إلى السقف:

ـ «لتأخذَ السفينةُ ما نَسِيَتْ أن تأخذَهُ معها»، قالها في برود.

ـ «وما الذي نسيتْـهُ؟» سأله «أ. دهر»، فردّ رجل السُّعال:

ـ لتكتشف هذا عليك أن تنضمَّ إلى المترجين أيها الأحمق.

ـ «وما الذي سأكتشفه أيها الـمُـهْمَل؟» صرخ «أ. دهر»، فردَّ جاره الجريح بصراخ مماثل:

ـ لتكتشف أنك كنتَ هناك أيها الضائع.

ـ «أين؟» تساءل الشاب، فرد رجل السُّعال:

ـ «معهم. معهم. معهم. مع . . هـ هـ هـ م»، وهمس: «انزعْ انزعْ أنبوبيّ الدم المتّصلين بساعديك»، فتطلّع «أ. دهر» إلى شريك المَرضة الواقف قباله، سائلاً في تفكُّهٍ: «أأستطيع نزعهما حقاً؟»، فعلا صراخ جاره الجريح: «انـزعْهـما. انـزعْهـما»، فصرخ «أ. دهـر» بدوره محتـدماً: «أيسمح لي هذا بنزعهما؟» مشيراً إلى الشخص المبتسم أمامه، فردّ رجل السُّعال: «إنه شبح. إنزعْهما».

نعم. نزع «أ. دهر» الأنبوبين المنتهيين بإبرتين من ساعديه، واستخرج أوراقه المطوية، مبتسماً، من تحت مخدته، وهو يرمق شريك المَرضة الواقف أمامه كبلاهةٍ اختلَقها بياضُ الغرفة، لا أكثر:

(عزيزي، سأرجع إليهم، فاسْتَعِدّ لتمضي معي إلى ما سأتدبّره لك، لأنك اعتدتَ أن تدبِّر لي أموراً أتبنّاها، من قبل. اعتدتَ أن تورِّطني في ماضي أحداثٍ لم يكن لي يدٌ فيها، وبرغم ذلك تبنَّيتُها كجزءٍ من اللعبة، لكنني سأورِّطك، الآن، في ما لم يحصل بعد. أعني سآخذك معي إلى جهتي.

هكذا هي جهتي. لا تتأفّف. خبِّئ يديك تحت إبطيك لِتَقيْهما البردَ، ولنتقدّمْ، على مهلٍ، من تلك. .)، وتوقف «أ. دهر» عن الكتابة وهو يرى الدم المتسرِّب من إبرتي الأنبوبين يتكوَّم على جانبيه قطرةً قطرةً، ثم يسيل على أرض الغرفة. ابتسم رافعاً بصره إلى رجل السعال الذي يفصله عنه سرير فارغ:

ـ «هيه. . » ناداه.

ـ «ماذا؟» أطلقها رجلُ السعال خافتةً من بين شفتيه.

ـ «إنه يتأمّل هيأتَهُ في بركة الدم»، قال «أ. دهر»، وهو يقصد شريك المرضة، الذي كان قد وقف، فعلاً، فوق المرآة الحمراء المتشكِّلة من الدم المتجمِّع قرب إحدى قوائم سرير الشاب. فأجابه جاره الجريح:

ـ هكذا هي أشباح هذا المكان.

غير أن «أ. دهر» رجع إلى أوراقه، كأنما لم يسمع جملة جاره الأخيرة:

(ستقدَّم، يا عزيزي، على مهلٍ، من تلك الهضبة التي تشرف على ما كان «مطاراً» ذات يوم. لم يكن من مطار هنا؛ أعني في هذه الجهة التي يغمرها الثلج، لكنني أجزم أن لجنة تقصي الحقائق هي التي جاءت به. كيف جاءت به؟ لا أعرف. وما همٌّ أن عرفتُ أو عرفتَ، فهو مطار لا يصلح حتى لمرور الماعز، لكن له هيبته: انظرْ إلى البرج البعيد الذي يعلو المبنى الصامت. انظرْ إلى المدرج بثلجه المنبسط على مدى الرؤية. إنه مريح. أعني أن عبوره مريح، وبخاصَّة إذا تتبَّعْنا هؤلاء الذين يجُرُّوْن مدفعهم الضخمَ في اتجاهه. أتراهم؟ يبدون كخيطٍ أسفلَ الهضبة. كنا نسميهم «الفصيل الشاحب». عليهم ثياب عسكرية رثة جداً، ويؤدّون مهمتهم على أكمل وجه. سبع سنين وهم يؤدّون المهمة ذاتها على أكمل وجه: يتنقلُون بمدفعهم الضخم من شارع إلى شارع، ومن حيٍّ إلى حيٍّ، ومن ضاحيةٍ إلى ضاحية. يجُرُّونه دون كَللٍ في هدنات الحروب وفي سُعار الحرب، كأنما ينتظرون مهزلةً أكبر من هذه ليعلنوا اشتراكهم، إلى جانب القدر، في حَسْمِ الموت. أتدركُ ما أقول؟ سيحسمون الموت. لا أعني المعركةَ. لا أعني خسارةً هنا، أو ربحاً هناك. لا أعني اقتحامَ موقع أو إخلاءَ موقع، بل أعني الموتَ. تقدَّمْ لتراه. تقدم معي خلف «الفصيل الشاحب»، لنلتفَّ معهم، من الجهة الجنوبية للهضبة، على الحوافِّ القريبة لمدرج المطار، وسنشرف، جميعاً، من هناك، على الموت.

لا تضحك. أنا أصطحبك معي يا عزيزي، لذلك أتمنّى عليك ألا تضحك. الموتُ لا يُضْحِك. الموتُ هو برجُ المطارِ المشرفُ على المدرج، ونحن سنشرف عليه وعلى المدرج معاً. تقدَّمْ معي. الثلج يسترُ ببياضه. الثلج فضيحةُ الموت، و«الفصيل الشاحب» دليلنا إلى آخر موقع في التَّماسِّ مع الغد الذي لا يتقدَّم. نحن سنتقدَّم إليه. أنا وأنت و«الفصيل الشاحب»، ووسطنا هذا المدفع الضخم المصنوع لتوجيه القَدَر ذاته، لا للقصف.

سأتقدَّم بك دفْعاً أمامي، أو أجرُّك، لا فرق، لم تعُدْ بيَ رغبةٌ في محاججتك، فنحن أمام الثلج الطليق مثلي من لعبتك. لكنني أحذِّرُكَ، سلفاً، من الموجات الفراغية في هذا المكان. كانوا يشرحون لنا بإسهاب معنى

«الموجات الفراغية»، ولم أعد أتذكّر سوى أنها خللٌ مّا في الزمن، أشبه بفقاعات الهواء التي نجدها في سبيكة من الزجاج. نعم. الموجة الفراغية هي فقاعة من ماضٍ سحيقٍ عالقة بكُتْلةِ الحاضر، فاحْذَرْها.

ربما عَنَّ لك أن تسألني: «كيف أعرفُ الموجةَ الفراغية؟». هذا من حقّك بالطبع، ما دمتُ أنا الذي أتقدَّم بك على كفالة الحقيقة. إنها ـ أعني الموجةَ الفراغيةَ ـ تتبدّى على أعراضٍ عدّةٍ، منها الأكثر شيوعاً، وهو أن يبثَّ فيك مكانٌ تراهُ لأول مرةٍ حنيناً غريباً، كأنك كنت فيه في وقتٍ مّا، مُبَلْبَلٍ لا تستطيع حَصْرَهُ. أمّا بعضُ أعراضه الأخرى فهو «البرهان». لا تقدِّم برهانك على شيء، لأنك ستخسره. والماضي يجرّك ـ وأنتَ مُمْتَنٌّ لهذا الإنجرار ـ إلى تقديم البرهان، حتى يتسنى له، وحده ـ أعني الماضيَ ـ أن يكون برهانَ الحاضر على كل شيء، فلا يكون للحاضر، من ثَمَّ، برهانُهُ الخاص به.

لك الحق، وأنا أحذرك من هذا العارض أيضاً، في مساءلتي: «وكيف أثبتُ أنني في الحاضر دون برهان؟». هيه. الأمر بسيط. تَشاغَلْ بالحِيَل. انْسُجِ الحيَلَ لا البراهينَ. دوِّنْ أرقاماً خاطئةً في مسائلَ صحيحةٍ، وتشرَّدْ ليبحثَ عنك المكان. لا تُقْنِعْ مُخاطِبَك. لا تُقْنِعْ نفسك. انْسَرِحْ في حضور الآخرين، أبداً. وأَدِمْ إطالةَ الشيء؛ أدِمْ إطالةَ أيِّ شيء حتى لا تستنفدَه فتستنفدَ خاصَّةٌ فيك. تمهَّلْ واستعْجِلْ. كُنْ مشدوهاً حتى لا تغويكَ الموجةُ الفراغية.

تعالَ. لا تعبثْ بالسَّلالمِ المرمية التي تُرى بعضُ أطرافها من تحت الثلج. وإن تعثَّرتَ بشِباكٍ رقيقة فحرِّرْ رِجْلَك منها دون سَحْبِها، ومزِّقها بالثلج من جديد. إنها شِباكُ صيادي الأسماك المختبئين في مكان مّا من جوانب الهضبة. ستسألني: «ماذا جاء بصيادي أسماك إلى مدرج مطار مغطى بالثلج؟». لا بأس. كان هذا المطار على مبعدة فراسخ قليلة من البحر، قبل أن أجده في هذا المكان الذي لا بحر فيه، أو من حوله. إستبدالاتٌ. ولِمَ لا؟ الأمكنةُ تتبادلُ مواقعها أيضاً على سبيل التجريب، وأبْقاها أكثرُها خِبْرةً. بالطبع لا تختفي، أو تزول، الأمكنةُ الأقلُّ خِبرةً، بل تُسْهَجَر. أقول ذلك للتوضيح، أمّا أمر

صيادي الأسماك فهو أنهم وقعوا في بطالةٍ بما فعل المحاربون بالبحر: قصفٌ عليه. قنصٌ عليه. إلقاءُ متفجّرات على سمكة لا يجاوز طولُها الإصبع. بوارج حديد هاذية بآلاتها الهاذية. سلبُ الذاهبين إلى الشواطىء أو العائدين منها. يضاف إلى ذلك «مَنْ سيشتري؟». لا كهرباء لحفظ السمك. لا غاز لطهوه. السيادةُ للمُعلَّبـات. السيادةُ للصفيح في السماء وفي الأرض. غير أن هؤلاء الصيادين لم يستسلمـوا لقـدْرٍ لم يشـاورْهم، فتراجعـوا بشباكهم إلى مداخل الشوارع ينصبونها بين العمارات، مرفوعةً على عَمَد خشبية، بينما تتدلّى كرات الرصاص من حوافّها على الإسفلت.

كانوا يقتعدون المداخلَ وعيونهم على الشّباك، بينما يعمد ما تبقّى من المارّة، مع الوقت، إلى فتح ثغرات فيها، والعبور منها، دون مساءلةٍ في فحوى وجودها، ودون اعتراض من الصيادين. نعم. إتّفاقٌ صامتٌ مرفوعٌ على صَحْن اللعبـة. وحين اقتحمتِ المتاريسُ مداخلَ شوارع المدينة من جهاتها الغربيةِ أيضاً ـ جهاتِ البحر، تراجع الصيادون أكثر إلى داخل المدينة بشباكهم، لكن الصِّبْيةَ المشـاغبين كانوا يعمدون إلى إحراق النُفايات قربها فيطاولُها الحريقُ أيضاً، لذا ارتأوا ـ أعني الصّيادين ـ النزوحَ إلى الجهة الجنوبية من المدينة، حيث التخومُ المتصلةُ بأفقٍ من الرمال، لا يحدُّه إلاّ المطارُ بالطريق المفضي إليه وسط صفين من نخيل شاحب، متباعدٍ بعضه عن بعض، مائلٍ كثيراً بإهمالِ من عـمّال التشذيب، أو ساقطٍ بفعل القصف المدفعي. غير أنهم استقرّوا، نهائياً، على مدرج المطار الفارغ، حيث لا يزعج شِباكَهم أحدٌ، فنصبوها في إتقان، بينـما أقاموا، هم، وسط نوعٍ من قصب قزم، نما كثيفاً حيث تصبّ مجارير المدينة، على بعد أمتار من المدْرج، كأنما لم تستطع البلدية مَدَّ الأنابيب بضعة أمتار أخرى لتصبَّ السائلَ الكريـهَ في البحر لا في العراء. وقد اقتدى عمّال النفايات بمهندسي الأقنية فانبروا، هم أيضاً، إلى كبِّ ما في شاحناتهم على أطراف المدرج المحاذية للبحر، حيث الشارع العريض الذي أوكِلَتْ إليه مهامٌ سياحية، دون أن يمرّ عليه سائح إلاّ سادّاً أنفه. وقد عَلَتْ أكوامَ النفايات، بين موضع وآخر، جثثُ أبقار، أو أغنام، أو بغال. أما الكلاب والقطط فكانت

مدفونة بين الركام، على الأرجح، لضآلة حُجومها.

قد تسألني، يا عزيزي، ما الذي يتصيدهُ هؤلاء، في العراء الثلجي هذا؟ عليَّ أن أنقل الجواب إليك همساً، لأنهم سيسمعوننا من جوانب الهضبة. نعم. باتـوا حادّي السَّمـع من طول تَنَصُّتهم على الفـراغ؛ باتـوا كشّـافةَ الفراغ، يتحيَّنون الزَّعانف الكبيرةَ التي ستقود الغيبَ إلى شِباكهم.

هذا جوابي يا عزيزي: يتصيّدون الغيبَ. لا تضحك. ليس في وسعك أن تضحك. أنت موجود على ورقتي هذه، وسأخاطبك بما يؤكد التوازن بيني وبينك. أنا شَهْمٌ. الا ترى أنني شهم؟ لم أُلْقِ بك في موقفٍ كالذي ألقيتني فيه. لم أحرجْكَ. لكنني سأتركك مع هؤلاء.

لا ترفع يديك معترضاً. لستَ في حاجةٍ إلى شَبَكَةٍ تنصبُها مثلَهم. لستَ في حاجة إلى الاختباء قرب الهضبة.

أنْصِتْ.

أنصِتْ.

أنْصِتْ، فقط، إلى ما سيتخبَّط في شِباكهم.

.. وداعاً...).

ثم ألقى «أ. دهر» بالورق كلّه إلى سماء الغرفة السابحة في بياضها: «افْرَأيْ» صرخ. «افْرَأيْ». ويدأ يخبط بيديه على الجبس الذي يُغلِّفُ ساقيه: «أعطوني منشاراً»، بينما كانت القصاصات تتساقط، على مهل، في بركة الدم التي علاها غشاءٌ متخثِّر رقيق، وسط الغرفة.

نعم. كنا نحن الخمسة اللا مرئيين، على تعوُّدنا الضجرَ ممّا يجري في مكان واحد، نتقاسم أمكنة شتى، بدءاً من غرفة «أ. دهر» وشريكه، وانتهاء بالشوارع الخلفية في الحيّ الغربي، حيث ظهرت، فجاءةً، شريحة جديدة من الآدميين، ترتدي أحذية ضخمة في أقدامها اليسرى، فتجرُّ نفسها جرّاً وهي تمشي.

ظهـر الآبـاء أولاً، وتبعهـم الأبناءُ، في تسـارعٍ غريب، ممسكينَ

أحدُهم برُدْنِ الآخر، أو بأطراف السُّترات. ولم يكن صعباً التعرّف إلى أسباب هذا الظهور. فهم ـ نعني ذوي الأقدام اليسرى الضخمة ـ كانوا متعهدي بناءٍ لم ينجزوا غير أساسات قليلة، في أوّل الحرب، من الأبنية التي تعهَّدوها، ثم اتّخذوا الحرب ذريعةً ليتواروا بالنقود التي في عهدتهم، والمخصَّصةِ، أساساً، لانفاقها على البناء. ولما تمكن المحاربون، وقُوَّادهم، من الاستئثار بتصريف شؤون المدينة، لجأ أصحابُ العمارات غير المنجزة إليهم، منفقين عليهم أضعاف ما يريدون تحصيله من البنّائين الفارّيْنَ، بدافعٍ من انتقامٍ مسنون. وبالفعل جرى ضبط هؤلاء فرداً فرداً، فعرضوا، في مأزقهم، أن يعيدوا النقودَ إلى أصحاب العمارات لتسوية الوضع، لكن الأخيرين رفضوا، طالبينَ بالعقوبة لا باسترداد النقود، وهذا ما جرى:

جيءَ بالبنّائين وبعائلاتهم معاً، فوُضِعَ في القدم اليسرى لكل فرد فيهم قالب كبيرٌ وصُبَّ فيه الإسمنت. ولمّا جفَّ اطلقوهم، تحت طائلة القتل لمن ينزع «حذاءه» الصُّلب.

نعم. كان في وسعنا، وفي وسع أي أحد آخر، أن يميز من الطبقة السادسة في عمارة «أبي كرم» بين عابر من سلالة البنّائين وبين الأطراف الصناعية التي باتت تتجول وحدها على الأرصفة، في الهدنات، وفي القصف.

خمسمائة ألف طرف صناعي، من التي يلصقونها بأعضاء الآدمي المبتورة، دخلت المدينة. خمسمائة ألف طرف من المطاط والمعدن المشغولَيْنِ فنّياً، دخلت المدينة، في سبع سنين. وكان ثمة فرق في الصوت بين نقرها على الأرصفة، وخشخشة أقدام البنّائين الثقيلة، التي تُجَرُّ جرّاً.

ما همَّ. كان «أ. دهر»، بعد عودته إلى البيت من المستشفى، يتحسس ساقيه في خَدَرٍ مكتوم، كلّما سمع نقراً على رصيف الشارع. ولربّما ابتسم في بعض الأحيان، وقد ذكّره الصوت بحوارٍ فضفاض كبنطاله مع صديقه الرسام:

ـ «كيف جرى التعرُّف إلى أثر الإنسان؟»، يسأله صديقه، فيردُّ هو:

ـ بما ترك من أدوات.

ـ «وللأدوات أشكال. أليس كذلك؟» يسأله الرسام، فيردّ «أ. دهر»:

ـ لكل شيء شَكْلٌ.

ـ «أللصوت شَكْل؟» يسأله صديقه مدافعاً عن أمرٍ مّا، فيردّ هو:

ـ نعم. باتت ذبذبات الصوت تُحَدَّدُ بالرسوم البيانيَّة.

ـ «ليكنْ. دعنا نَعُدْ إلى الأشكال» يقول الرسام. «الأشكال، وحدها، هي ما يمكن تصويرها، ولمّا كانت الأشكال هي نتاج خيال الإنسان، فقد بقيت لتدلَّ على وجوده». فقاطعه «أ. دهر»:

ـ تعني أن خياله هو نتاج الأشكال؟».

فصمت الرسام كأنّما يتدبَّر مخرجاً من المحاورة، ثم ضحك: «خيالُه نتاجُ هذا» وأشار إلى خصيتيه. وأردف:

ـ «ليكن. دعنا نَعُدْ إلى الأشكال. الأدوات أشكال. الأدوات صور. الصور تدلّ على وجود الإنسان». وتوقف ليبدأ سؤالاً آخر:

ـ ماالذي أنقذ البشرية من الإنقراض؟

ـ «الرسامون». . ردّ «أ. دهر» متفكّهاً.

ـ «أسألك جادّاً» أضاف الرسام، واسترسل: «الصوتُ هو الذي مدَّ في عُمْر البشرية».

ـ «الصوتُ؟» سألَهُ «أ. دهر» فرد صديقه:

ـ «نعم. الصوتُ إنذار. الصوتُ هو الحَذَر. الصوت هو نذير المكيدة. الصوت هو الميزان الرحيم. الصوت هو غباب الغَدْر. . »، فقاطعه «أ. دهر»:

ـ وماذا بعد؟

ـ «أعني. . » أردف الرسام مُمَسِّداً شاربه: «كان الإنسان، باستخدام سمعه، يتجنّب أن يكون ضحية هيِّنة».

ـ «يا للإكتشاف» همس «أ. دهر» ساخراً، فردَّ صديقه، ساخراً بدوره:

ـ «اكتشافي، يا صاحبي، هو أنَّ ما أعرفه أنا، وأنت، سيكون مستقبل الأرض إلى أجَلٍ غير معلوم. ستسود الصورةُ والمؤثراتُ الصوتية، وحدهما،

بينما ينقرض الكلام». فعاد «أ. دهر» إلى تفكُّهه:

ـ إذا بقيت الكهرباء.

ـ «المستقبل ليس عمارة أبي كير وحدها» ردّ الرسام ضاحكاً، واستطرد بشاربيه المرتعشين: «هذه المدينة توفّر الكهرباء على المستقبل».

نعم. خمسمائة ألف طرف صناعي دخلت المدينة في سبع سنين. أعضاء تستطيع تخمين حامليها بالحركات الاستعراضية التي يفتعلونها، أو بالمبالغة في البذاءة المغلَّفة بالسخرية، في محاولة يائسة لإبداء موهبة تتقوَّض كلّها استحضروها. وكان بعضهم، إمعاناً في مؤاساة نفسه باستدرار شفقة الآخر، يعمد إلى وضع طرفه الصناعي (يده مثلاً) على المنضدة في المطعم المجاور لعمارة «أبي كير»، حيث يؤمُّه المحاربون بكثرة، وهم في كامل عتادهم. ولربما عمد بعضهم الآخر إلى وضع سيقانهم المعدنية على المناضد، أيضاً، بعد سبع أقداح من الجعة الألمانية، وسط مجادلات جادّة، بكلام كلُّه تخمين، عن الوكالة الجديدة التي شاع صيتها، أكثر فأكثر، مع ارتفاع وتيرة الحرب. ولربّما همس واحد من ذوي الأطراف الفاتنة اسمَ الوكالة على النحو التالي: «وكالة الخال»، فصحّحه جليسه: «تعني وكالة الخيال».

«اتحاد وكالات الخيال»، ذلك هو اسم المؤسسة الرحيمة التي ظهرت كقبلة مضيئة في كثافة الموت. إعلانات صغيرة، في الصفحات الداخلية المهملة للصحف والمجلات تقدَّمتْ، رويداً رويداً، لتستقر على الصفحات الأولى والأخيرة معاً، مُتْقَنة في خطوطها ذات الحروف النافرة من معدن مصهور: «لا تتصل بنا إن كنت ميتاً». هكذا كان التدوين النافر، فتهافتَ الأحياءُ على مقرّ الوكالة في الجزء الجنوبي من المدينة. وإذ اتصل بها أناس من الأجزاء الشرقية للمدينة، وهم غير قادرين على اجتياز الخط الفاصل بين الجهتين، عمد القائمون على «اتحاد وكالات الخيال» إلى إنشاء فروع لها في الجهة الشرقية أيضاً، ثم توسَّعوا في بثّ مراكز لهم بحسب التقسيم الطائفي، والمذهبي، والعائلي أيضاً، باتفاق مع المتنفّذين في الأمكنة والجهات.

«انتصارُكَ مِلْكُكَ. تعالَ نعلِّمْكَ إدارةَ الحرب دون دم». ارتفعت هذه

الكلمات، تالياً، على أطراف الإعلان، ولحقتها: «ثمت الكثير مّما ينبغي عليك أن تفعل. تعال إلى هدنةٍ طويلة، تحدُّدها بنفسك، مع الموت». وبأثر من هذه الكلمات ارتفعتْ أضابيرُ مصفوفةٌ في ممْرات الشّقق التي استأجرتها الوكالةُ ـ أمّ الوكالات، ثم أحاطت المنافذَ كلها، من حول الشّقق، بمتاريس من الرمل، طلتْها باللون الأصفر، «حتى لا يعبث القصف الطائش» ـ بحسب ما يقول الموظفون ـ «بعرَقِ الناس»، مشيرين إلى الأوراق في كل إضبارةٍ، الرقيقة منها والسميكة.

كانت وكالة رحيمة بحقٍّ. تدفعُ رسْماً ضئيلاً في انتسابك إليها، فيعطونك ورقة محدَّدة بأسئلة قليلة:

١ ـ واضح أنك لا تحبُّ الحروب، ولست ميتاً، أجب بـ «نعم» أو بـ «لا».

٢ ـ اقتلتَ احداً؟ لستَ مضطراً للإجابة إذا أحرجك السؤال.

٣ ـ سجّلْ على هذه الورقة أولى رغباتك، ريثما يتسنّى تسجيل رغباتك الأخرى، متسلسلةً، فيما بعد. (انتهى).

وينزوي الوافدون في غُرَف جانبيه، لتدوين ما عليهم تدوينه، مُطيلينَ حتى أنهم انفُسَهم يضجرون من البحث عن تحديد رغبةٍ أولى، فيختصرون الجواب على مقاسٍ آخر لحظةٍ: «أن ننتهي من هذه الحال»، في حين يتجرعون كؤوساً من الماء البارد يسبقهم إلى الطاولات التي يجلسون إليها للكتابة، على مرمى من العطش الذي يلفُّ المدينة، وما مِنْ سائلٍ بارد إلّا الدم يحفظونه للمجرحى برحمة مولّدات الكهرباء المبثوثة في أقبية المشافي.

غير ان جملةَ «أن ننتهي من هذه الحال» يحوجُها التوضيح، فتطلب الوكالة من قاصديها العودة بعد أربعة أيام ـ تحديداً ـ لاستكمال «الباقي».

ويعود العائدُ فيتسلَّم ورقةً عليها: «أن ننتهي من ماذا؟»، فيجلس إلى الطاولة من جديد، في غُرَف غير غُرَف زيارته الأولى، وأمامه الماءُ البارد ذاته، وكربُ عصير، وصحن نُقُل ساخن جاء من محمصةٍ مّا توّاً، إضافة إلى هواءٍ مكيَّف يستغرقُ استنشاقَ تنفّسٍ منه ألفَ جملة، قبل أن يصل الذي يدوِّن طلبَه إلى

مُراده، فيؤجِّل، في آخر لحظةٍ يجدها مناسبة لإنهاء مكوثه، ما ينبغي قولُه دفعة واحدة، إلاّ حروفاً قليلة: «أعني أن أنتهي من الحرب». فيطلب موظفو الوكالة أن يعود صاحب الطلب بعد أربعة أيام ـ تحديداً ـ ليكون قد صار إلى درس رغبته. ويقاضونه، حين يعود من جديد، مبلغاً ضئيلاً آخر، ثم إذ يجلس إلى ورقته، في غرفة اختلفَ طِلاؤها، يجد سؤالاً منطقياً في سياقه، مدوَّناً على الورقة ذاتها، فيلوم نفسه على تقصيره هو: «ما الطريقة التي تريد أن تنهي بها الحرب؟». نعم. يزمّ شفتيه قائلاً في داخله: «لماذا لم أحدِّد؟». ويصمم على أمر خطير: «أريد أن تنتهي الحرب بـ . . .» ويتفكّر.

كان على أصحاب الطلبات التقيدُ بالصيغة النهائية، والمقترحة في الوقت ذاته، لشَرْط الوكالة: «ستنتهي الحرب، بالتأكيد، فنحن لسنا نناور في ذلك، لكن ترجيح طريقةٍ وَفْقَها سيتمُّ بحسب ميزان الرغبات»، وذلك أمر منطقي يبعث على الإطمئنان في كل حال. وفي كل حال ينكبُّ المنكبّون على الورق: «نريد أن تنتهي الحرب بـ . . .».

كلهم متفقون على إنهائها. ذلك ما تعلنه الوكالة بخط عريض على مداخل أروقتها، وعلى البوابات. «الحظُّ إلى جانبكم». يقرأها الفخورون بانتسابهم إلى «الواحة الرحيمة» المركزية وفروعها. ولِمَ لا؟ الحظُّ هو اتفاق مصادفتين على نحوٍ غير محسوب، فكيف بحظٍّ مَبْنِيٍّ على اتفاقٍ لا مصادفةَ فيه، بل مليء برغبات إنسانية جرى تدوينها بالأقلام، وحُفِظَتْ في مراتب الأضابير؟ إنه حظُّ الحظ، وأمِّه، وأبوه، وأخته، وعشيق الأمِّ والأختِ معاً.

«نحن متّفقون» يردّدها الخارج والداخل إلى فروع الوكالة، ولكنهم لا ينسون التهامس: «أكتبتَ كيف ننهيها؟» يسأل أحدهم الآخر، فيُجابُ: «ليس بعد. في المرة القادمة ربما. الأمر يسيرٌ، لأن الجواب بات مِلْكَنا».

ولربما ضجر البعضُ ـ والشواذُ لا يُؤبه له ـ من انتظاره لأنْ ترجحَ كفّةُ رغباتٍ مّا على غيرها، فعاذَ بالوكالة صارخاً: «أريد نَفْسي. جِدوا حلاً لي». فقادتْهُ موظفاتٌ أنيقات إلى غُرَف مخصّصة لهذه الأحوال، ذات مقاعد مستديرة يغوص فيها الجالس، وأمامه تلفاز مضاء يبث صورته هو، مُذْ يدخل الغرفة

برفقة الموظفات إلى حين جلوسه، فيستغرقه الأمر لبرهة فيبتسم، ثم يتلفَّت من حوله فلا يُخفِّيه ما يبحث عنه: آلةُ رصدٍ تصويريٍّ تُرْكَن إلى زاوية من الغرفة. لكن مسألة التهدئة هذه لا تنطلي عليه، فيعود إلى احتجاجه: «أريد تسوية الحكاية الآن».

تبتسم الموظفة الأكثر أناقة من زميلاتها للشخص الذي يحتجّ، هامسة: «انتظر لحظة»، وتختفي لتعود، من ثَمَّ، حاملةً ورقةً سُطِّرَ على فراغ فيها: «تستطيع أن تنهي الحرب. قل لنا كيف ننهيها من أجلك». فيتأمَّلها الشخص المُسْتَوْفِز، ويكوِّرها في قبضته، صارخاً من جديد: «لا أريد أن أُنهي الحرب. لا أعرف كيف أُنهيها. فلتبقَ مشتعلة إذا شاءت. لكنني أريد الخروج منها».

«أوه» تهمس الموظفة مبتسمةً على عادتها، مضيفةً: «تريد أن تخرج وحدك؟»، فيرد الشخص: «وحدي. نعم. وحدي». «أليست لك عائلة؟» تسأله الموظفة، فيرد: «لا. وحدي. أنا وحدي». فَتَتَفَهَّمُ الموظفة في ملاطفةٍ واضحة: «لدينا استمارات خاصة لمن هم في حالك. سأجيئك بواحدة منها». وتغيب ثانية، لترجعَ بواحدةٍ من استماراتها تلك، هامسة في تَدلُّه: «إملأها رجاءً».

وينظر الشخص في الجُمَل التي تترجرج أمام عينيه على بياض الورقة الأنيقة: «المسألة هيِّنة حين تكون وحدك. ستخرج من الحرب بإشارة منك، لكننا نتمنى عليك مساعدة الآخرين بإبداء نصيحة لا تكلِّفك شيئاً: قُلْ لهم أن يُنْهوا الحرب بالطريقة التي أَنْهَيْتَها». هذا هو المدوَّن على البياض الأنيق، المحيِّر، الذي يجعل الشخص ذاته مرتبكاً، فيرفع رأسه إلى الموظفة الأنيقة المبتسمة الواقفة أمامه: «كيف أحدِّد للآخرين طريقة إنهاء الحرب؟»، فترد الأنثى: «بالطريقة التي أنهيتَ بها الحرب. تمعَّن في السؤال أمامك». فيستغرق الشخص في الورقة التي أمامه، يمحِّص في السؤال المضطرب مثله، ويعود رافعاً وجهه في خجل صوب الموظفة، متمتماً على نحو مرتبك: «أأنهيتُ الحرب؟»، فتردُّ عليه الموظفة بسؤال مشابه: «أأنهيتَ الحربَ؟»، فيردُّ الشخص: «لا، بالطبع»، فتعاجله ذات الغنج: «لا تكتب، إذاً، النصيحة

المطلوبة منك».

ويحتدم الشخص، آنئذٍ، باحتدام الشكّ فيه:

ـ «الدى هذه الوكالة مقدرة على إنهاء الحرب؟»، فترد الموظفة المبتسمة:

ـ نعم.

ـ «أهي مخوَّلة بذلك، أمْ ماذا؟» يسألها الشخص، فتجيبه الأنثى:

ـ مخولة جداً. الوكالة ذات صلة بمن أشعلوا الحرب.

ـ «ولماذا لا تطلب الوكالة منهم أن تنتهي الحرب؟» يسألها الشخص، فترفع الموظفة كتفيها في رِقَّة: «ستنتهي حين تفوز الرغباتُ الأكثر»، فيصرخ الشخص:

ـ رغباتنا هي الأكثر. ألا ترين الوافدين إلى الوكالة؟ .

ـ «مانراه نحن أيضاً» تردُّ الموظفةُ الأنيقة.

ـ «وماذا، إذاً، ؟» يسألها الشخص، فتردُّ:

ـ وماذا إذاً؟.

ـ «أعني، ألا يعني ذلك شيئاً لكم؟» يسألها الشخص، فتردُّ:

ـ يعني ما يعنيه الأمرُ لك.

ـ «يعني الأمرُ أن على الحرب ان تنتهي»، فتسائله الموظفة:

ـ «إطَّلَعْتَ على ما يريد الداخلون إلى الوكالة؟»، فيبتسم الشخص في ثقة:

ـ يريدونها أن تنتهي.

ـ «لا» تهمس الموظفة الأنيقة، وتُردف: «إنهم يؤجلون رغباتهم». ثم تنظر إليه في تأمُّلٍ أقربَ إلى استدراج المرء إلى الإعتراف: «أبديت، أنتَ، رغبتك، في كيفية إنهاء الحرب؟».

لا نعرف، بالطبع، ماذا سيحتمل في داخل الشخص المُلقى، عارياً، على سؤال عارٍ، فهو لم يدوِّن رغبته، في الواقع، على ورق الوكالة.

نعم. وكـالة ذاتُ ألقٍ وسط النقرات المعدنية لخمسمائة ألف طرف

صناعي على الأرصفة، متجوِّلةٍ وحدها، كما يتجوَّل الآدميون الأحياء، لكنها أكثر انتظاماً بنقلاتها من الخطى الآدمية، ولا ترتبك في حدوث قصف مدفعي، أو تفجيرٍ لا سلكيٍّ، ولا تهرع إلى مداخل الأبنية. كما أن في استطاعة «أ. دهر» تمييزَ أنواعهـا، وأصناف معادنها، من شقته: «هذه ذراع تمشي على أطراف الأصابع. المفاصل تحتاج إلى تزييت. وهذه ساق من النيكل، تخشخش من حولها المشدّات الجلدية التي تربطها بفخذ صاحبها. هذا إحليل...» ويغرق في القهقهة: «سيوزّعون علينا أحاليل من النحاس المطلي بالذهب، حتى يعرف القاصي والداني أن الإنسان قد ينقرض، لكن الفحولة ستبقى»، ويشتط في هرجه: «النكاح الميمون هو صورة القيامة حين تندثر. منيٌّ ورياحٌ. فجواتٌ وفروجٌ. ظلامٌ وضوء متعاقبان، أو متجاوران، على ضَفَن الخصية. لهاثٌ في كل شيء صلب أو رَطْب. هياااا»، ويرتد إلى الخلف، ناظراً إلى سقف غرفة بيته، يتمعن فيه بعد طول إقامة في المستشفى.

حين عاد «أ. دهـر»، متكئاً على المحارب الذي أنـزلـه من سيارة «اللاندروفر» العسكرية، ثم اتجه وحده، بعكازٍ لا بد منه إلى أن يشتدَّ ساقاه أكثر، وجد مصعد العمارة معطلاً، فأطلق شتائم بدءاً بالمصعد ذاته، مروراً بالقبو، والشقق، وانتهاء بالأدراج «التي تبوَّل عليها الشيطان». وإذا تمالك أنفـاسَه المُتلَجْلِجَة صعد الدرجة الأولى بأنينٍ خفيف، فيما وضع بين أسنانه كيسَ الأدوية الذي كان يحمله، فصار الكيس يخبط صدرَه كلما ارتقى درجةً جديدةً، بفعل دعساته غير الثابتة من أثر ألم لم يزل في ساقيه. ولمّا بلغ شقته، في الطبقة السادسة، وأدار المفتاحَ في قفل الباب، أطلّت امرأة جاره من الباب المجـاور، برأسهـا فقط، كعادتها حين تسمع الخطى في ردهة تلك الطبقة، وبادرتْهُ شبه متنحية:

ـ «الحمد لله على سلامتك»، فردّ مُجفلاً قليلاً:

ـ «أوه. بارك الله فيك»، وكتم لهاثه المرتفع، بينما استرسلت الجارة:

ـ أخذوا زوجي.

فاستدار «أ. دهر» إليها بكلِّه:

ـ «زوجك؟ من أخذه؟»، فردت:

ـ «التنظيم هذا» وأشارت بإصبعها إشارةً إلى مكان قريب، فَهِـم بها «أ. دهر» مَنْ تعني، فرفع كتفيه متسائلاً:

ـ «ما الحكاية؟»، فأجابته:

ـ اتهموه بالمتاجرة بالحشيش.

ـ «وما العيب في ذلك؟ يحششون وقوفاً على حواجزهم. وكشاشو الحمام، من أصحـاب هذا التنظيم، ينفخون في مناقير الحمام دخان الحشيش، على سطح المبنى المقابل يا جارتي»، فقاطعته بصوتها المتهدج:

ـ «قلتُ لهم لدينـا أربـع مخدات ملآى بالحشيش. خُذُوْهَـا وأطلقـوا سراحه، فردُّوني قائلين: أتريدين أن نملأ لك مخدةً خامسةً؟ عندنا قبو تخرج الجـرذان دائخة مِنَ الذي فيه. ندخنه، وتأكله الجرذان فلا ينتهي»، وتمالكت شهيقـاً خفيفـاً غَـرَا صوتهـا: «والله، هذا ما قالـوه لي. فتـوجهتُ إلى أحـد مسؤوليهم متوسلة: أطلِقُوا سراحـهُ وسيتوب أمامكم مُقْسِماً بالطلاق، فضحكَ المسؤول. سألتُـهُ: ما المـطلوب بحق الله؟ فردّ: زوجك حمار. فجاريته من غضبي على حالنا: كلنا نعرف أنه حمار. والحمار لا يُـحْـتَـجَز لأنه حمار. فردّ أنه حمار خطير. ثم طلب مني الإنصراف إلى البيت». وحدّقت في عيني «أ. دهر»:

ـ «أتعرف أحداً منهم؟» فأجابها:

ـ «نعم .لكنني . . .» ونظر إلى ساقيه يتشفع بحالها لتأجيل إلحاحها، في هذا الوقت في الأقل، فهمستْ همساً:

ـ «تعال، رجاءً» .فتقدَّم من بابها دافعاً نفسَه دَفْعاً، بعدما استعاد مفتاحه من قفل بابه، ثم دخل شقة جاره حين أفسحت المرأة له.

الأرجح أن «أ. دهر» لم يتقدم غير خطوة واحدة، لأن الممّر، وحدَهُ، كان مهيئـاً لاستقبـال الـداخلين، على نحوٍ واضح، إذ مُدَّتْ طنافسُ صغيرةٌ في أرضـه، ورُكِنَتِ الوسائدُ إلى الجدران، بينما تكوَّمَ الأولاد الخمسة ـ الصِّبْيانِ والبناتُ الثلاث ـ في جهته الجنوبية، قرب باب غرفة النوم، دون فزع بالطبع،

بل بما يمليه دفء أرواحهم الصاخبة. فارتدَّ «أ. دهر» على المرأة يسألها:

ـ «لماذا يجلسون في الممر؟ لم نسمع قصفاً منذ أيام»، فردت جارته:

ـ «تعـوَّدوا عليه»، وتمتمتْ في اعتذار خجول:

ـ «فلندخل إلى غرفة الجلوس يا جاري»، لكن «أ. دهر» أسند ظهرَه إلى الحائط، وانزلق قليلاً قليلاً حتى استوى قاعداً: «أنا أيضاً أحب الجلوس في ممّر شقتي»، فأغلقت المرأة الباب من خلفها، ثم جاءت بكرسي أسندته إلى الزاوية الشمالية من الممر، فكانت وحدها تعلو الجالسين بنصف متر. ولربما أتـاح موقعها لـ «أ. دهر» أن يركز عينيه، حين يدير وجهه صوب أولادها، جنوباً، على ابنتها المقبلة على الرابعة عشرة بحماسةِ جسدٍ عجول. وكانت الفتاة ذات النعاس الواضح، تشدُّ فخذيها إلى صدرها، في جلوسها ذاك، برهةً بعد أخـرى، فينكشف ثوبهـا عن سروالها الداخلي، مما يزيد في اقتناص الشاب لتأمُّـلاته الساخنة، غير أنه كان يستنشق الهواء، متحسِّساً رائحةً مّا، بين جملة وأخرى من كلام المرأة المتقطع، الذي تصله أواخر كلماته، أو بداياتُها، فيقْدِرُ هو، على سهوه، أن يجمعَ ما تقول.

إنها رائحة يعرفها، وقد جاهد أن يخفي سؤاله عن مصدرها أمام المرأة المضطربة، الجالسة على كرسيها العالي، لكنه أفْلَتَ ما يتوجَّبُ في مقام كهذا من فَلَتَاتِ لسانٍ غير صريحةٍ:

ـ «أعاد كشَّاشُو الحَمَام إلى السطح، في العمارة المقابلة؟» سألَ المرأةَ، فردت:

ـ اختفى الحمام.

ـ «أأكلوه؟» سألها، فأجابتْ مبتسمة:

ـ «أكله القصف. القذائف أكلت صناديق أعشاشه، وشرَّدته. يحوّم من فوق السطح فتسقط قذيفة. يعلو فتسقط قذيفة. يتجمّعُ فتسقط قذيفة. يتفرُّق فتسقط قذيفة. يبتعد رفُّه فتقتنصه بنادق المتحاربين بالطلقات المضيئة المخصصـة لتحـديد التصـويب الليلِي. انتهى . . .»، وألوتْ رأسها معتذرة: «انتهى الحمام. فلماذا يرجع الكشَّاشُون إلى سطح العمارة المقابلة؟». فردّ «أ.

دهره :

ـ «أعني هذه الرائحة . . »، فقاطعتِ المرأةُ تساؤلَهُ :

ـ «تعني رائحةَ الحشيش؟»، وغطت بيدها ابتسامةً طفرت على الشفتين المُفْتَرَّتين، بينما ابتسم «أ. دهره بدوره، من مبادرتها الصريحة، ثم رفع وجهه إلى الصبي الذي وقف أمامه، فجاءةً، وهو يمدُّ إليه لُفافة غير منتظمة الشكل، فبوغتَ الشاب، واستدرك فمدَّ يده، بصورة تلقائية، يتناولها من الصبي، هامساً :

ـ «ما هذه؟»، والتفتَ صوب الأم بغريزة غامضة، مُستنجداً، فغمزته المرأة :

ـ «انفخ الدخانَ إذا لم تُرِدْ أن تبتلعه يا جاري»، كأنّما تخفِّف عليه بعضاً من حيائه. ولمّا أشعل الصبي الواقف، ذاته، تلك اللفافة لـ «أ. دهره»، اشتعلت لُفافات أخرى في الممر دفعة واحدة.

كان كل واحد من الأولاد يشعل لفافة خاصة به ـ البنات الثلاث والصُّبيّان ـ أمام عيني الأم المثبتتين على زوجٍ لا يُرى. أما «أ. دهره فاتخذ من المسألة، برغم طرافتها، مدخلاً لمسامرةٍ تبعثُ على الإنشغال :

ـ «من منكم يستنشق أكثر؟» سألَ الأولادَ، فردّت الفتاة الناعسة بصوت ذي بحّةٍ خفيفة :

ـ أنت.

ـ «أنا؟» قالها «أ. دهره وأشار بإصبعه إلى صدره متسائلاً، ثم ضحك من دعابةِ جوابها. فاسترسلت الفتاة الناعسة :

ـ «أنت تستنشق الحشيشة أكثر، لأنك خائف منّا»، فالوى «أ. دهره شفته السفلى في تساؤل صَريح :

ـ ولماذا أخاف منكم؟.

ـ «لأن أمّنا حذّرتْك» قالتها الفتاة، فنظر «أ. دهره إلى الأم متسائلاً، فالفاها مبتسمة في بلاهة. فعاد محدّقاً في الفتاة يسائلها :

ـ «مِمَّ حذّرتني أمُّك؟». فأجابته الناعسة :

ـ «مِنّا». واستندت برأسها إلى الحائط : «إنها تظن أننا أخبرنا مكتب التنظيم هذا»، وأشارت إلى مكان غير محدد، مضيفة : «تظن أننا أخبرناهم بما كان يفعله والدنا». فحاول «أ. دهره أن يصرف الفتاة عن حوار كهذا، يُثقِلُ على الأم المتربصة، ببلاهة، في كرسيّها الحزين، قائلاً :

ـ «منذ متى تدخنين الحشيش؟»، فألقتْ نظرةً على لُفافتها، ثم رفعت عينيها إليه :

ـ «لم نقل لأحد إن والدنا يرسل معلومات إلى الجهة الشرقية من المدينة عن مرابض المدفعية في الجهة الغربية». فبوغت «أ. دهره، سائلاً :

ـ «لم أفهم . . »، فقاطعته المرأة :

ـ إنه كلام حشّاشين.

إذ ذاك انتفض الأولاد الخمسة، معاً، صارخين بأصوات متداخلة :

ـ «أنتِ أخبرتِهم»، فهبّت المرأة واقفة، تتوعّدهم بيديها معاً :

ـ «سأنظف هذا البيت ،والله، منكم ومن براز الشيطان الذي تدخنونه»، فهب الأولاد بدورهم، إلاّ الفتاة الناعسة، متهدّدين :

ـ «سنفرُمك وندخنك مثلما فَرَمتِ والدنا يا بنت الـ . . »، وغابت عن «أ. دهره آخر كلمة في جملة الأولاد، لأن النظرات المتواطئة بينه وبين الفتاة الناعسة، الجالسة مثله، كان تتخذ شكل تهديد علني للإفصاح عن رغبة شابٍّ يحدّق في لحمٍ مكتنزٍ لا يحدّده عُمْرٌ، ورغبة فتاة مقبلة على استعراض هيئة اللحم ذاك على عينين مُمْتَجِنَتَيْن. ولم يكن «أ. دهره ليُهْمِلَ، برغم سَرَحانه، أن يلقي بنظراتٍ على المشهد الجاري في الممر، من فوق رأسه ورأس الفتاة معاً، حيث تشير الأيدي من جهة إلى أخرى، بالتناوب، في صيغة اتّهام محفورة بشتائم يتفنّنُ الأولاد والأم في تأليفها :

ـ «أنتم قطط مزبلة» تقول الأم، فيرد أولادها :

ـ أنتِ مزبلة.

ـ أنتم مدعسة الباب.

ـ أنت لصة.

ـ أنا؟؟ يا للبهائم.

ـ أنتِ، نعم. شخيرك كمؤخرة الكلبة.

ـ شخيري أنا؟ مَنيٌّ والدكم ملوث بالسلّ، يا أولاد الفضيحة.

ـ أنتِ فضيحة.

ـ «أنا؟ أترى؟»، وتلتفت مكسورةً إلى «أ. دهر»، فتراه شارداً في ابنتها، فلا تعبأ:

ـ «هي، أيضاً، ستتاجر بالحشيش في سروالها»، تقول الكلمات هذه وتجلس على كرسيّها من جديد، شاردةً دون حزن واضح، فيجلس الأولاد بدورهم، كأنما كان الحوار الصاخب مرسوماً على نحو متناظِر.

اللُّفافاتُ غير المتّقنة تتعاقب على الأيدي. الأولاد يتمايلون إلى الأمام وإلى الوراء، بعيون يعرو جفونها شحوبٌ وتعبٌ كاللذين في جفون الكبار، أما الأم فتصير تعدُّ على أصابع يديها عَدّاً مبهماً، وتطأطىء، باحثةً في أعماقها المتناثرة عن صورة مَرِحة لزوجها العابس أبداً. بينما تزداد جسارة «أ. دهر»، والفتاة، بتزايد اللفافات التي يحرقانها نَفَساً نَفَساً، حتى أنهما ينشغلان عن وجود الآخرين، فيقترب الشاب منها زَحفاً حتى يجاورها، فيضع يده على ساقها مُمَسّداً من أسفل إلى أعلى.

ـ «ليَكُنْ» تقول الأمُّ في مكان مّا من روحها، مضيفة: «إنها ابنته»، وهي تنظر إلى الجسارة المتنامية للشاب الجالس لصق ابنتها في آخر الممر. «ليَكُنْ». وتتمنّى على نحوٍ جارح أن تنقل بخواطرها المشهدَ الذي تراه إلى الأب الغائب: «يد أ. دهر ترتفع على ساق ابنتك. إنه يتحسس ركبتها. مالذي ستفعلُهُ؟ ستصرخ؟ إصرخْ. الشاب لا يعبأ. يده على فخذها. لن أتكلم. تكلّمْ أنتَ. إنها تسترخي. فخذاها تسترخيان كلٌّ إلى جهة. لو ترى سروال ابنتك. لو ترى أولادك غير العابئين بما يجري. لو تراني. أنا. آه. مالذي ستفعله؟ عينا ابنتك الناعستان على يد الشاب، تستحثّانه في كسل، والشاب جَسُور. فليأخُذْها. لن نبالي حتى لو أخذها أمام أعيننا في الممر. عليك أنتَ أن تفعل شيئاً. اصرخْ. تكلّم. كنتَ قَوّياً عليَّ وحدي. عسى أن يمضي بابنتك الى غرفة

النوم. من سيمنعه؟ فلْيَشُدَّها من شعرها، أو من قدمها. سننتظر صرختها على السرير. لا. ابنتك لن تصرخ. إنها تريده. ألا ترى؟». ورفعت رأسها المطأطِىء إلى الشاب هامسة بإشارة من يدها: «خذها إلى غرفة النوم»، فبوغت «أ. دهر» برغم ثقل جفونه، وأعماقه، معاً: «ماذا؟»، سألها، فردّت: «خذها إلى غرفة النوم»، فسحب الشاب يده التي لم تُجاوز رُكبة الفتاة شبه النائمة، فصرخت المرأة:

ـ «لا تسحب يدك»، فأفاق «أ. دهر» أكثر، وقد اعتراه خجل خفيف، فهمس بدوره:

ـ «ينبغي أن أغادر يا جارتي». لكن المرأة تقدمت منه، وأعادت يده إلى حيث كانت، على ركبة ابنتها شبه النائمة: «ضعها هنا»، ثم صعدتْ بتلك اليدِ إلى فخذ الفتاة، وانحدرتْ بها إلى سروالها:

ـ «ابحثْ هنا». فأبقى «أ. دهر» يده في المكان الذي بلغتْهُ، سائلاً:

ـ «أبحثُ عمَّ؟». فردت المرأة:

ـ «عنك. ابحثْ عنك، وعن أبيها، وعن العمارة»، ودفعته دفعاً خفيفاً صوب ابنتها، حتى مالَ عليها، مضيفةً:

ـ «خُذْها إلى غرفة النوم». فاتكأ «أ. دهر» على يديه، مستنداً بظهره إلى الحائط، وقام منتصباً على ساقيه الضعيفتين، ثم تناول عكّازه المعدنيّ:

ـ عليَّ أن أتفقّد شقتي يا جارة.

كل شيء كان على حاله. في شقة «أ. دهر»، برغم أنه لم يتفقّد شيئاً. لقد دخل وأغلق الباب من خلفه. ثم توجه إلى الشرفة مباشرة، عَبْر المطبخ، وإذ وصلها، في ذلك الوقت الذي لم يبلغ الظهيرة بعد، ألقى بنظره إلى أسفل، فوجد السفينة الراسية على حالها، والمحاربين يتبادلون اللفافات، فيما تتجه أنظارهم إلى جهة أبعدَ من العمارة، حيث تتدلّى مخيلة «أ. دهر» من الفراغ المعدني كورق الزينة الملون في بيتٍ منهوب. وإذ يلتفت الشاب نفسُهُ إلى مخيلته، التي تتجسّد بعيداً عنه كما ثوب نزعَهُ لابِسُهُ، يبصرها منشغلة بجُسُور سترتفع من فوق عمارات المدينة، في الجهة الأقرب إلى البحر غرباً؛ ضخمةً

معلّقةً إلى لا شيء، تبدأ أطرافُها من أماكن غامضة في المدينة، وتنتهي أطرافُها الأخرى في الزرقة العارمة للمياه.

كان في ودّ «أ. دهر» أن يلوّح بيديه للمحاربين، من شرفة شقته، لكن الخَدَر، الذي استشرى فيه من أثر اللُّفافات ذات الأشكال غير المنتظمة، أيقظ كسلاً حلواً في مفاصله، تحت الجلد، وتحت العضل، وفي الْتقاءِ الغضاريف والعظام، فاكتفى بابتساماتٍ موزّعةٍ على أشكالٍ تساوتْ، قليلاً قليلاً، بالمياهِ المنبثقة شرقاً، فيما تفتّحتِ الأعماقُ المرمية، على بعد أمتار منه، عن مصاعدَ مضيئة تتسلّق الهواءَ إلى الأعلى، كأنها ألعاب في مهرجان؛ مصاعدَ كرويّة، ومكعّبة، مستطيلة الأضلاع أو مربعة، وأخرى موشورية، وبيضاوية، ذات أبوابٍ من قضبان خفيفة تتلألأ كالنيون، ومن زجاجٍ مُحدَّب، سميك ورقيق، برتقالي أو أزرق؛ مصاعدَ ترقى، في خُيلاءٍ هادئةٍ، معارجَها المرسومةَ في الفراغ الشاخص إلى مرآته. وبين مصعد وآخر تزاحمت أدراج مضيئة أيضاً، ذات استدارات، يكفي النظر إليها من شرفة «أ. دهر» ليحسّ المرء بخفّةِ خطواته عليها، كأنها ترفعُهُ دَرَجَةً إلى دَرَجةٍ، متحرِّراً من الثِّقلِ، يؤكِّدُهُ الهواءُ، وحدُهُ، ببرهانِ الهواء.

ثمت تعاقبات متلاحقة للرؤى من شرفة «أ. دهر»، تمزجُ المصاعدَ بالأدراج، بأشياء أخرى ليسَ آخرُها البرّادات. نعم. برادات تتوقف عندها القلوب في حرب كهذه، وكذلك عينا الشاب المتعبتان إلى درجة النوم. غير أنه يفتحهما بأصابعه حيناً، وبروحه ذات الشرخ الصيفيِّ الرطب حيناً آخر، إذ يرى إلى أبواب تلك البرادات، السابحة ككواكب صغيرة، مفتوحة على مكعّبات من الثلج البهيّ، وزجاجات مياه يعروها ضباب خفيف من شدة ما هي باردة. ولقد مدّ «أ. دهر» يده مراراً، يحاول التقاط مُكعّبٍ من الثلج، أو زجاجة ماء بارد، لكن كسله ونعاسه اختصرا محاولته، فعاد إلى داخل شقته، متوجهاً إلى الحمّام تحديداً، ثم خلع ملابسه ووقف تحت رشّاش الماء، غير عابيءٍ بجروح ساقيه، فلم يحظ إلاّ بقَطْرٍ متسارع خفّ بعدئذ، فأضحى قطرةً قطرةً. لكنه لم يهتمّ. لعق شفته بلسانه، ودعك عينيه. كان يواجه المرآة التي

تكشفه إلى ما فوق سرّته. تقدم منها ومدّ رأسه إلى زجاجها كأنها هي شُبّاك، فاخترقها. ثم اتكأ بيديه على إطارها السفلي وتسلّقها داخلاً إلى الجهة الأخرى، عارياً.

لقد تعوّد «أ. دهر» أن يفعل ذلك؛ تعوّد أن يختفي في مرآة حمّامه ليخرج في مرآة بيت آخر. وكان عارفاً أن من احتمالات اختفائه في المرآة أن يبقى، إلى الأبد، في المسافة غير المنجومة التي تفصل المرئي عن اللا مرئي. لكن يقينه الغامر بوجود حمقى سينتشلونه، يجعله جزيئاً في إقدامه ذاك.

على أحد مّا أن يتذكّر «أ. دهر» من مكان بعيد أو قريب، في اللحظات التي يختفي فيها في مرآته. وعلى ذلك «الأحد» أن يسارع، بدفعٍ من إلهامه الفجائيّ، إلى حمّام بيته ـ هو ـ لينتشلَ «أ. دهر» من المرآة. سيمدُّ يده إلى الفراغ الذي يجد ذلك «الأحد» صورة شخصه فيه، لكن يدَهُ ستمسك بعضد «أ. دهر»، وسيجذبه آنئذٍ، صارخاً به: «كم مرة ستعيدها؟».

بالطبع سيُعيد «أ. دهر» الكرّةَ تلو الكرّة. فالبرهاتُ التي تجعله خفياً، منذ دخوله مرآة بيته، وخروجه من مرآة بيتٍ آخر، هي برهات إشرافه على توسيع رقعة الحرب، لتشمل التماثيل في ساحات الجزء الغربي من المدينة. ولِمَ لا؟ هذ الرموز الصامتة تثير الحنق بفظاظة ترفُّعها الثابت. وهي، يقيناً ـ (كما يقول أ. دهر لأنصاره الممتلئين جهامةً، من عصرٍ إلى عصرٍ) بكل ما فيها من برونز، أو إسمنت، أو حجر ـ أدلاّءُ الحاضر إلى مأزقه، بسبب المطابقة غير الممكنة بين ماضٍ واثق (هكذا قرّرْتُه)، ومستقبل واثق (هكذا قرّرْتُه)، بات لا بدّ من غلبةٍ لأحدهما، في حلبة الحاضر الثقيل كتماثيل الساحات ذاتها.

النّسْفُ يشملُ الكثيرَ، الحديثَ والقديمَ، من أنصاب السياسيين أو المُرَبّينَ فِكْراً وحماقةً. عمامات تتطاير، وطرابيش، وقبعات، ومعاطف، وخُوَذ، وبناطيل، وأحذية، وأوراق حجرية من التي تلوِّح بها أيدي بعض التماثيل. وكذلك تتطاير قواعدها، وينبثق التراب العاري متنفّساً هواء الحرب التي يعرفها.

وإذ تنتهي تلك الأنصاب، يجد «أ. دهر» مشاغل أخرى يقود أنصاره

الصـارمـين إليهـا ، في الفسحة ما بين اختفائه وظهوره . كان يحقّق ، كرجل القانون ، في أمر الرمل الذي بات يتململ في الأكياس المُقامة كمتاريس . «إنه حيّ» يكتب «أ . دهر» على ورقة صغيرة ، ويريها لأنصاره ، واحداً واحداً .

رمل حيٌّ ، يتململ ويزحف حين تُثقَبُ الأكياسُ . و «أ . دهر» يجيزُ لأنصاره مساءلةَ المحاربين ، دون استثناء ، عن مصدره ، فتجرُّ الأسئلةُ الأسئلةَ بعدئـذٍ ، طوال دخـول الشـاب إلى المرآة وخروجه منها في جهة ثانية . ومما يُضْحِك ، أن شخصاً لم يكن «أ . دهر» على صلة به ، قط ، جرّه ، ذات مرة ، فأخرجه من المسافة غير الملجومة ، التي تفصل المرئيَّ عن اللامرئي . وقد شُدِهَ الشابُ إذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع امرأة تقهقه ملء رئتيها ، قائلة : «ظننتك شخصاً آخر» ، فازدادت حيرته :

ـ «أهنالك غيري في المرآة؟» ، فردت ، وقد تمالكت ضحْكَها :

ـ زوجي هناك ، أيضاً .

كلٌّ كان يُسوِّي أموره ، في فسحةِ دخولِهِ المرآة وخروجه منها . وقد ظن «أ . دهر» أن المسألة سرٌّ من أسراره ، لكن ، حين باغتته المرأة التي لا يعرفها بجـوابها ذاك ، أصيب بكآبة لم يستطع إخفاءها كما أخفى أجزاء من جسده العاري بالمنشفة التي ألقت المرأةُ ذاتُ الحَوَلِ الخفيف بها إليه . أتُراه يوزّع كلّ تلك الأقـاليم على أنصـاره كأنـما هو الـوحيد القـادر على ذلك؟ بدأ بالميناء العريض ، الذي لم يتبقَّ فيه إلّا بعض زوارق مهترئة ، وباخرتان مقصوفتان ، غاص نصفاهما في الماء . نعم . قال لثلّة من أنصاره أن يستثمروه ، وأشار على آخرين بالمطار ، وعلى البقية بمفارق الطرق الكبيرة ، المؤدية إلى الجبال . واحتاط لسطوته فملأ أقبية عمارات الشطر الغربي من العاصمة ذخائر لم يجد الأهلون غضـاضـة في افـتراشها ، حين يلجأون من القصف إلى الملاجىء ، فيما كان الأطفال يعمدون ، أمام أنظار الأمهات والآباء الخائفين ، إلى عضّ الطلقات ليروا آثـار أسنـانهم على رصاصها ، ويدحرجون القذائـف ، بعضهم في اتجاه بعض ، فتطير قلوب الكبار ، وهم يصرخون : «مهلاً . . مهههلاً» .

لم يَدُمِ الحوار طويلاً بين «أ . دهر» والمرأة ذات الحول الخفيف . حدّد

لها موقـع العمارة التي يقطنها فابتسمتْ ، شارحةً أنها لا تبعد عن عمارتهم إلّا شوارع قليلة ، وناولته قميصاً وبنطالاً يعودان إلى زوجها ، ليستطيع العودة إلى بيته . وفي طريقه إلى الباب استوقفته ابنة الحولاء سائلةً أمها : «أهو من حرس عمي؟» ، دون أن تعني عمّـاً حقيقياً ، وإنما ذلك الرجلَ الأنيق ، ذا الشاربين المستقيمين ، الذي يقدِّم للعائلة خدماته كمتنفِّذٍ متمكِّن ، فردت الأم متخابثةً : «ليس الآن . قد يصير حارساً فيما بعد» ، فالتفت «أ . دهر» إليها ، متطلعاً إلى تخابُثِها الفَكِهِ ، لا إلى عينيها المترقرقتين اللتين لا تثبتان على عينيه :

ـ «لا . لن أكون حارساً عند عمِّها ، بل سأتزوّجه» ، وابتسمَ ، فقهقهتِ المرأةُ ، عائدةً إلى معابثته :

ـ «وماذا ستترك لي؟» ، فتطلّع «أ . دهر» إلى ابنتها ، معالِكاً نفسه من إجابةٍ قد تجرحُ الفتاة ، ثم أطرق : «سنرى» ، وخرج من الشقة مُرْدِفاً البابَ من خلفه .

كان حافياً حين عاد أدراجه صوب عمارة «أبي كبير» . نسي أن يسأل المرأة عن حذاءٍ ، أو خَجِلَ من ذلك ، ونسيتِ المرأةُ بدورها . شقَّ كُمَّيْ القميص ولفَّ بهما قدميه ، ليجرؤ على عبور الممرات المليئة بالزجاج المتناثر ، وبالحجارة والخشب . ولـمّا بلغ العمـارة ألفى نفسـه وجهاً لوجه مع البحر ، من واجهتها الشرقية ، وكان دأبه ، من قبل ، أن يرى البحر من شرفته فقط ، حين يتفقّد السفينةَ التي يعرفها . نعم . وجهاً لوجه مع ذلك البحر الذي لم يكن هناك من قبل ، قط ، بل كان يقوم في المساحة تلك مسجدٌ ، وعمارات واطئة ، وشوارع متوازية بأسرارها وناخبيها المعولين على الدم العائلي ، فتفرّس فيه ، ثم اتجه إليه ، لا إلى مدخلِ العمارة ، وخاض في الماء ، رويداً رويداً ، ميمِّماً صوب الشرق .

حائراً تقدّم «أ . دهر» في المياه ، على أية حال ، إذ وجد نفسه ، خطوةً تلوَ خطوة ، يتجّه إلى عمارة «أبي كبير» ، وهو الذي أدار ظهره لها غرباً ، واتّجه إلى الشرق ، في الـزرقـة المفتـوحـة على كُمـيْـهمـا . نعم . كانت ثمت انعكاسٌ للجهات كما في المرايا تماماً : «أ . دهر» يخوض في المياه شرقاً فيرى نفسه مراجعها العمـارةَ غربـاً ، دون أن يبدو أثر للسفينة التي دأبت على الرسوِّ هناك ، قربَ

مدخلها كما لو أنها ترسو في ميناء . لكن ، على الرصيف الملتمع أمام العمارة ، بسبب الرطوبة الخانقة ، ارتفعت خيام متقاربة باكتظاظ ، وامتدت حبال غسيل بين أعمدةٍ هنا وهناك ، وتناثر في المكان بطٌّ ودجاجٌ ، وعربات خضار متخضّنة ، وطاولاتٌ وطيئةٌ كالحةٌ يجلس إليها محاربون قلقون ، وأطفال يجُرون صفائحَ فارغةً من خلفهم ، مربوطةً بخيوطٍ ، وبراميلَ مطلية بالقار وقف البعض عليها ملقياً بشُصُوْصِ الصّيدِ في الماء ، وطواويسُ افردتْ أذيالها ، غائدةً رائحةً ، في وداعةٍ ، بمنمنماتِ اللونِ وسطَ الصخب ذاك .

ماذا كان في مستطاعه أن يفعل؟ لقد تقدّم - إلى حيث قُدِّرَ له أن يتقدَّمَ - صوبَ العمارة ذات الرصيف المكتظ ، فخرج من الماء بكامل ملابسه التي أعارته الحولاء من خزانةِ زوجها ، وإذ تطلع إلى الوجوه التي ابتسمت له كما تبتسم لطفل سقط في الماء على غفلةٍ ، رفع بصره إلى شرفة الطبقة السادسة ، حيث شقّتُه ، فألفى خمسة ينظرون إليه من هناك ، متكئين بصدورهم على سياج الشرفةِ الحديديِّ ، فاندفع ، بفضوله ، إلى بهو العمارة ليتسلق الأدراج ، فتبعته الطواويس وحدها من بين كل الطيور التي كانت هناك . هكذا . تبِعَتْهُ بأذيالها المُخْتالةِ كزينةٍ لا مكانَ لها ، فتوقف والماء يتسرب من ثيابه إلى عُقْبيه ، فجاوزَتْهُ وهي تعبر الأدراج قفزاً ، فتبِعَها واطِئاً أرجُلَها حيناً ، أو مرتطماً بها حيناً آخر ، ضاحكاً من إجفالاتها ، أو صارخاً ينبِّهها : «يا بناتِ الله» .

«يوم الأحد خَلَقَ عزرائيلَ ، وهو «طاووس ملك» ، رئيسَ الجميع» ، ذلك ما يقوله كتاب إحدى النِّحل الشرقية ، ويضيف : «يلي رئيسَ الآلهة «طاووس مَلِك» ، الذي يتولّى سَنَّ الشرائع ، وينزل بنفسه إلى الأرض» .

وماذا في مستطاع «أ . دهر» أن يتذكّر من قراءاته القليلة؟ كان متعلّقاً بصحيفة أسبوعية تتصدَّرها صور نساءٍ أميراتٍ ، يجعلن من أنفسهن - دون تصريح - شريكاتٍ لله في يقينِ الشباب ، يقينِه العائم كالزيت على الماء . أمّا الطواويس فتستثير فيه رهبةً مّا ، يمازجها افتتانٌ ، من غير أن يتنامى إلى سمعه شيء من كتاب النِّحْلةِ الشرقية المعتصمة بجبالٍ لها أسماؤها ، وثلوجها . وها هي تتقدّمه قليلاً ، أو يتقدّمها قليلاً ، على الأدراج في عمارة «أبي كبره» ، وفي ذاكرته

أخبار رقيقة عن تنافس السفارات الأجنبية في اقتناء هذه الطيور ، مبالغةً منها في تغليب الجمال على آلات التنصُّت ، وأحابيلِ أشباحها السرِّيّين .

طواويس . . ولماذا لا؟ إنها تلامس قدميّ «أ . دهر» في صعوده إلى الطبقة السادسة ، ولمّا يفتح باب شقته داخلاً تدخل معه ، منْجهةً بغريزةٍ مّا إلى الشرفة ، لتقفز إلى سياجها غير العالي ، كأنما تستشرف المدى المائيَّ مثله ، فيما يرمق ، هو ، في اطمئنان داخلي ، تلك السفينة التي لم تزل راسيةً أمام رصيف العمارة .

كان ذاك فيما مضى من وقتٍ غابر ، أو هكذا بدا الأمر لـ «أ . دهر» بعد عودته من المستشفى ، ذلك اليوم الذي استوقفته فيه جارته ، والذي لم يجد فيه ما يستحم به فدلف إلى المرآة ، عارياً ، ثم لم يخرج منها ، لأن ما من أحدٍ تذكَّره آنئذٍ ، أو بعد ذلك ، ليتمّ خروجه من مرآةِ بيتٍ آخر . أيْ ، بتأكيدٍ يمكن البرهانُ عليه ، بقي «أ . دهر» بين أنصاره الصارمين ، في الفسحة المديدة غير المنظورة فيما وراء المرآة ، في الفسحة الرَّحبة الممتلئةِ جُسُوراً يشتغل عليها آلافٌ صامتون ، وقد امتدت أطرافها ، بشكل قوسيٍّ ، من المدينة إلى الزرقة الموغلة في مياه البحر .

بالطبع سيبقى «أ . دهر» هناك ، حتى انهيار عمارة «أبي كبره» ، بعد أربعة أيام من ذلك الوقت ، أيْ إلى حين ظهوره على سطح السفينة التي تُقِلُّ المحاربين غرباً ، وسط نظرات الخمسة اللا مرئيين ، المكلَّفين بالتدقيق في مصيرهِ المُعْلَنِ الذي لا يحوجُهُ تدقيق . وكأنما التبس الأمر عليهم فظنوه اختفى لحظة انهيار العمارة ، كغيره ممن اختفوا ، وظهر بعد ذلك بأربعة أيام على سطح السفينة . لكن الواقع أنه اختفى في المرآة ، قبل انهيار العمارة بأربعة أيام ، مما يجعل محصِّلةَ اختفائه ثمانيةَ أيام : أربعة قبل انهيارها ، وأربعة بعد انهيارها . وهذا ما غاب إحصاؤه على اللا مرئيين الخمسة ، ذوي الكثافات التي لا تُحصى ، فأسقطوا من حسابهم ، وهم الموكَلون الصارمون بالتدقيق ، أربعةَ أيام تاهوا فيها - بنفوسهم - كمرئيين ، في التعرُّف على حدود أشكالهم المرئيّة .

أثمت حاجة إلى سرد ما فعله «أ . دهر» قبل انهيار عمارة «أبي كبره» ، منذ

دَخَلَ المرآةَ ولم يخرج منها؟

تقـدَّمَ هنـاك، في الجهـات الأكثر خراباً من المدينة، بأنصاره، وهم يسجلون مواقع العمارات، وزوايا الشوارع، والفراغات التي تجعل هذه الجهةَ، أو تلك، أقْدَرَ في السيطرة بأسلحتها. وفي تقدُّمه ذاك كان يقع على أفرادٍ من آخر طبقة في «طبقات اللصـوص»، محمَّلين بألواح حجرية من أرضيات البيوت، في إرهاق يُزيدهُ بخْسُ الغنائم. فقد تولت ثلاث طبقات، من قبل، نهبَ الأغلى، بحسب تدرُّجه، في مناطق الحرب المتواجهة: الأولى، وهم المتحاربون أنفسهم، سطتْ على النفيس، ذهباً وجواهرَ، وحلي أخرى. والثانية تسللت بتغاضٍ من المتحاربين أنفسهم، أو بتغطية منهم، فنهبوا الأثاثات. أما طبقة اللصوص الثالثة، التي لم تتمتع بحصانة الانتماء بِنَسَبٍ إلى المتحاربين، فقد تقدَّمت إلى الأمكنة التي جلا عنها المتحاربون وأقرباؤهم إلى أمكنة أخرى بعدما استنفدوها. ولم تكن لتقعَ، بعد تلك الاستباحة، إلاّ على زجاج النوافذ وإطاراتها الخشبية، وكذلك بعض الأبواب. وكانت هذه الغنائم قليلة على أية حال، بسبب القصف وحرائق القصف، أو إشعال النار فيها، عمداً، ليتدفأ عليها حرّاس الخطوط الخلفية ليلاً.

نعم. كانت الجهات الاكثر خراباً، التي تقدم فيها «أ. دهر»، مَرْتَعاً مُرْهَقاً للطبقة الرابعة من اللصوص المُرْهقين، فلم يُعِـرْهم التفاتاً، ولم يعيروه. كذلك لم يُعِرِ المحاربينَ الذين دخلوا المسلخ الكبير، غربيَّ المدينة ـ على خيولٍ شردتْ بعد تحوُّل حلبة سباق الخيل إلى مكان مواجهة بالمدافع المباشرة ـ التفاتاً، وهم يطالبون بحصص يومية من أكباد الخراف. أما الذي شغله قليلاً، وآثر أن يدوِّن أتباعُهُ شيئاً عنه، فهو المنطقة التي لم يُعْنَ كثيراً بتحديد موقعها، وكان سكانها لا يطأون الأرض قط في تجوالهم، بل ينصبون السلالم بين الشرفات، ويصلونَ ما بين العمارات بجُسُورٍ قصيرة. وما كان، بالطبع، ليُخفى السبب في ذلك، نظراً إلى الأحافير في الشوارع و الأرصفة، مما يدلّ على حقول ألغام، كما بدت البوابات مفخّخة على نحوٍ واضح، كأنما جرى الأمرُ في عجلةٍ خوفَ اقتحامٍ مفاجىء للمنطقة. والواضح، أيضاً، أن خبراء الألغام «الصغار» قد

نسوا العودةَ إلى إزالة ألغامهم، بعدما تأكّد، عياناً، أن ما من أحد اقتحم شبراً من تلك الشوارع والعمارات، فبقي الأمر على ما بقي عليه: موتٌ ساهرٌ على مرمى ظلال الناس، وأناسٌ على مرمى ثرثرة الموت.

لا يعرف «أ. دهر» كم من الوقت بقيت تلك المنطقة على حالها، بعد رحيله، لكنه، آنذاك، وهو يرى العابرين فوق الجسور والسلالم، خطَّ كلماتٍ قليلةً في ورقة وأراها لأنصاره، فتداولوها بينهم، ثم أضافوا إليها تعليقات حتى امتلأت، وأعادوها إليه فطواها هامساً: «هذا برنامجنا. سنعيد ترتيبَ المدينة».

خارجاً هناك، في المرآة، ليس على «أ. دهر» إلاّ أن يعيد ترتيبَ روحه. فالمشاهـدُ تنحلُّ وتتداخل، وتلدُ الصورةُ شقيقتَها: انظروا: هذا هو «القناة الثامنة». إنه يسمِّي نفسه «القناةَ الثامنةَ». نحيلٌ ضائع يحمل تلفازاً صغيراً ذا مقبض من الأعلى، ويعترض المارَّةَ: «أنا القناة الثامنة. انتظروا البثَّ مجاناً». هكـذا، قرَّرَ أن يكـون «القنـاةَ الثامنةَ»، وليس في تلفاز المدينة غير قناتين. انظروا: هذا هو العريس الذي وصل في مصفحة إلى بيت عروسه. وهذه آثار أقدام آدمية على الهواء، لأن الشارع بات معكوساً بالخاصة ذاتها التي تجعل المشاهِدَ مقلوبةً في سراب الصحراء. هذا هو الشيطان الصغير، المتوسل أبداً إلى الأطفال كي يدلوه على طريقة يخفي بها نفسه. هذه الجماعات الزرقاء، التي ترونها في الأليات المحترقة، هي التي خرجت من الحبر الذي اندلق من قلم «القائد»، في المؤتمر العاشر لمهندسي الأنفاق والخنادق. هؤلاء هم بقايا حرس الدولة الليليون. لن تفهموا لغتهم: كلُّها إشاراتٌ بالمصابيح اليدويَّةِ في النهار. هذا هو موقف السيارات التي لا تغادر قط: يدخلها أصحابُها لفتراتٍ هي المسافة الزمنية بين المكان ومنازلهم، ثم ينزلون منها دون أن تتحرك، ويمضون في حالِ سبيلهم. وهذا هو «السجن الخامس». إنه فارغ تماماً، وهؤلاء الذين يحرسونه، من الخارج، هم مسجونون سابقون، كانوا مشاغبين دمويين، فأخرجوهم، واحداً واحداً، موكِّلينهم بالحراسةِ مقابل أجرٍ معقول، ولقب نظيف، فلم يبارحوا الوظيفة حتى في الحرب، في انتظار رواتبهم المتأخرة. وهذا البيت.. أتسمعون الضجيج الذي فيه؟ أغلق صاحبه الباب على حشدٍ من

الملائكة أخطأ التقدير في معرفة البيت الذي يقصدُهُ. والمكان الذي تدخله الملائكة، عن خطأ، يغدو تَيْهاً أمام أثيريَّةِ جسومها فلا تستطيع اختراق جدرانه، مالم يكن فيه منفذ. أما هذه الساعات الجديدة في معاصم البعض، التي تصدر ما يشبه الأنين، والملتصقة باللحوم، فهي آخر ابتكار جَلَبَهُ المهرْبون، ومن خاصّتها أنها إذا تأخَرتْ عاد حاملها إلى الماضي بمقدار الوقت الذي تدلُّ عليه عقاربُها، وإذا تقدَّمت عن خطأ، تقدم حاملها فصار في المستقبل، بالمقدار الذي تدلُّ عليه عقاربُها. أما مشهد محلات بيع التسجيلات الموسيقية فيبدو على غير ما تعوَّدتِ الناسُ. إنها، وهي المحتفظة بكهربائها بفعل المولّدات الخاصة، مكتظة بخليط من المدنيين الشاحبين، والمحاربين، وهم يضعون مجسّاتٍ متّصلةٍ بالآلاتِ على أماكنَ مختلفةٍ من أجسامهم. بعضهم على الأذان، وبعضهم على السواعد، وبعضهم على الأفخاذ، وبعضهم على الظهور، وبعضهم على الأصابع. والحالُ، بحسب آخر غاياتِ العلوم، أنَّ الصوتَ الموسيقيَّ يصير حُكْراً على العضو الذي يتصل به المِجَسُّ الشبيهُ بِمِجَسٍّ فاحِصِ القلب، أو الدماغ، فينقلبُ العضوُ إلى كيفيَّةٍ موسيقيَّةٍ بذاته.

خارج المرآة تتحَلُّ المشاهدُ، وتتداخل، أمّا «أ. دهر» فيعيد ترتيب روحه، طالما لا يتذكّرهُ أحدٌ، وطالما ستنهار العمارة دون أن يتذكّره أحدٌ.

إنه ترتيبٌ صغيرٌ لما تبقّى من أيام. وهي، تحديداً، أربعة أيام، قبل انهيار العمارة: فليَكُنْ، إذاً، ما ينبغي أن يبوحَ به «أ. دهر»: «أنا..».

سيصمتُ قليلاً، فـ «أنا» هذه غير مشغولةٍ بالثّقةِ الممكنةِ لقولها. «أنا». آه. عليه أن ينطقها ثانيةً كمن يدرِّب حنجرته. «أنا اااا»، وسينصتُ إلى رنين كلمته في ما وراء المرآة، حيث هو والمعرفة التي تمتحن نفسها على نحوٍ مشاكِسٍ، معاً، يُؤوِّلانِ ما فاتهما. نعم. سينصت طويلاً إلى رنين كلمته «أنا»، وسيتشظّى، فجاءةً، في الجهات كلّها، ناظراً إلى أعضائه، كأنما يسكن خارجها، وهي تتطاير في خِفّةٍ لا ألَمَ فيه. سيرتطم بعضها ببعض. سيلتصق بعضها بإسمنت الجدران وبخشب الأبواب المتناثرة، مثل جسده المتناثر، في

الفراغ ذي الجاذبية. سيصل بعض أعضائه قبل الآخر إلى الأعماق المفتوحة للإنفجار، بينما يعلو هو - المنفصل عن خاصّيّةِ الثُقْلِ التي يتمايزُ بها الدم واللحم عن كل شيء - في الوميض، متجهاً، بالغبار الذي يتبعه، إلى الطريق ذاته الذي سيُقْبِلُ منه جدُّهُ القادم إليه قبل أربعين عاماً من مولده. وسيهتف هو، لا جدُّه، هذه المرة: «لقد خَدَعْتَني».

نعم. انهارت عمارة «أبي كير»، فخرج «أ. دهر» من المرآة التي انكسرت، ممسكاً بقيدٍ مُخصَّصٍ للبغال عادةً، وهو يتوعَّدُ: «خَدَعْتَني».

الفصل السادس

وصل جدّ «أ. دهر»، القادم قبل أربعين عاماً من مولده، إلى مشارف المدينة، بعدما أقلّته آليةٌ من نوع «توربيدو». ولم يخطىء بالحدس الذي فيه الطريقَ الذي يؤدي إلى عمارة «أبي كير»، فمرَّ بأزقة تفضي إلى طرق أوسع، وبيوت واطئة تفضي إلى عمارات أكثر عُلـوّاً، تنتصب من فوقها أدغالٌ من هوائيات التلفاز. وكان عليه، بالطبع، أن يتحاشى متاريسَ من الرمل تسدُّ الشـوارع بين أمتارٍ وأُختها، بعدما بَدَتْ مقفرةً في الهدنة الأخيرة قبل رحيل الراحلين على سفنٍ صوب الغرب، وأن يطوي عباءته على ذراعه في إهمال، مخفياً تحتها القيدَ الذي جاء به، وسط ذلك القيظ الرُّطب.

«لقد خَدَعني»، تمتم الجدُّ الشاب، وهو يعبر بخطوات واسعة زجاجاً وخشباً تناثرا في طريقه، أو يلتفّ من حول جذع شجرة سقطت، بطولها، من جرّاء قصفٍ مّا. لكنه، في تعقُّبه الغريزيّ لخطى حفيده الخفيّة، لم يكن يأبه للعـمارات الغريبةِ على وافدٍ مثله، فيجاوزُ أن ينظر إليهـا نظرةَ تمعُّنٍ، بل يُطْرِق في مشيه، ملتفتاً بعينَي أعماقه الترابيتين إلى المنزل الذي خرج من باحته متوعّداً حفيدَه: «خَدَعني».

«خَدَعني»: وحـده الجـدُّ الشـاب يتقن ترديدها كحاشية عباءته التي تعفّرت بعقبي حذائه، بعد مغادرة منزله ذاك، الذي يلتفت إليه الآن بعيني أعماقه المبتلتين بالحنين وبالغضب معاً. ولربما إذا التفت إلى ظله في الشارع، المُدثَّر بالركام، ألفاه ملقىً لا على الشارع بل على سور الخرنوب المحيط بساحة منزله الذي غادره. وإنْ حاول العودة إلى هناك؛ حيث لم يكن جَدّاً بَعْدُ، فما

عليه سوى الإلتفات إلى الخلف، بزفرةٍ تدلّ على تَعَبِه من هذا التعَقُّب المُقْلِق، وسيجد نفسه وسط الجالسين على بساط ممدود في ظل المنزل الأُبنيّ، في ريفٍ مّا، هادئاً، ليس يستثير فضولَهم وظنونَهم بكلمة «خدعني حفيدي»، حين لم يكن له حفيد قط.

لكن الجَـدَّ الشـاب يلتفت، إلى البعيد المسحـور، بأعـماقِه لا بعينيه المُطْرِقَتين، ويؤْثِرُ أن يكمل خطاه العجولةَ، بغريزة القُنْدُس، صوب عمارة «أبي كير».

. . والعمارة هناك. مثلها مثل أية عمارة أخرى تقوَّضت جداراً على جدارٍ بفعل تخطيطٍ محسوبٍ، وكَمٍّ من المتفجرات يفي بالـمَـهمَّةِ. وقد احتشدَ من حول الانقاض من احتشدَ: الهَلِعون والفضوليون معاً، ومحاربون كُثْرٌ يمرِّنون أصواتهم العصبية، وأسلحتهم أيضاً، فيطلقون رصاصاً في الهواء دون سبب ظاهـر، إلاّ حين تأتي الجـرّافـة، فيجدون في الإفساح لها مبرراً لدفع الناس بالمنـاكب والقبضـات: «ابتعدووووا»، فتتفرَّقُ الحلقات متفتِّحةً للآلة الهادرةِ بنباحٍ أشبه بالنباح الصاعد من أعماق الرَّدم الإسمنتي، ثم تنغلق من جديد على هاجسٍ أن ترى أوّل جثةٍ تؤكِّدُ ـ بالبرهانِ ـ فداحةَ الموت.

نعم. العـمارة هنـاك، في صورتهـا الثـانية التي تجعـل الشُّكـلَ مُتْرَفـاً بالنقـائض، والجَـدُّ يستجلي بعينيه منفذاً بين الحلقات لينضمَّ، بدوره، إلى البـاحثين عمّا يُرضي غريزةَ الرعب. غير أنه كان أكثر تأمُّـلاً في مسعاه، وهو يتنقل دائرياً من خلف الجمع المتناثر، كأنما يقصد أن يرى مشهداً بعينه، أو يستوضح الخبرَ من أناسٍ يعرفهم. وبعد جهد ليس كبيراً، بَدَا أكثر رصانةً في ملامحه، وأقلَّ فضولاً، متهيّئاً ليسأل، في ثقةٍ، سؤالَه الذي حضر من أجله.

كانوا خمسةً أولئك الذين بادرهم الجَدُّ الشابُّ: «لقد خدعني». وكان في كلماته غير المتسائلة ما يبحث، في وضوحٍ، عن جواب لائق. فاستداروا إليه، وهم المنحنـون على حفـرة كشفتها الجرّافة النابحة، ثم التفت كل واحد إلى الآخر، مستوضحاً بأعماقه: «أيرانا؟». فبادرهم الشابّ ثانيةً: «كنتم تعرفون أنه خدعني؟».

- «نحن؟» تساءلوا، فردّ:
- «ومن غيركم؟».
- «بِمَ خدعَكَ؟» سألوه، فردّ:
- «بهذا كلّه» وأشار إلى الأنقاض.

فبادروه، هم، سائلين:

- «أتعرفُ . . .» فقاطعهم:
- «أعرفُ. لم يكن في العمارة».

فصرخوا معاً: «بِمَ خدعكَ، إذاً؟».

ابتسم الجدُّ الشاب وهو ينظر إلى الجرافة ترفع جداراً بأكمله، ثم انسحب، دون أن يلتفت أحدٌ إلى عباءتهِ الغريبة، وحطّتهِ السميكة التي تدلّت ذؤابَةٌ منها على أذنه اليسرى، ثم غذَّ الخطى مبتعداً، عائداً من حيث قدِمَ، فلحق به الخمسة ذوو الهيئات المفرطة في كثافاتها. وإذ أحسَّ بهم من خلفه التفتَ سائلاً:

- «ماالذي تريدونه؟»، فهمْهَموا:
- «نريد أن نستوضِحَكَ أمراً يشغلُنا»، فردّ وهو يستدير ماضياً:
- «لستُمْ موكَّـليْـنَ بي».

حين صار الجدُّ الشاب خارج المدينة، على الطريقَ الترابي الذي يصلُ السماءَ القريبةَ بسماءٍ أخرى، تحسَّس القيدَ الحديديَّ المتدلّي من حزامه، هامساً:

- «سأخدَعُكَ».

الجزء الثاني

(الحكاية كما ينبغي أن تُرْوى)

الفصل الأول

هضبات من الرمال تزداد علوّاً بفضل السواتر الخشنة من نبات الأثْل الأغبر، التي بثّها الله في العراء ذاك، وهضبات أخرى تَنْزحُ فتستوي بالأرض، تحت جراءة الريح، لأنها لا تَلْقَى ما تتشبَّث به. أما المياه المقطومة على وحشتها، هناك، في ما بعد العراء الرملي، فكانت أقلَّ ألقاً، إذ ليس من بشر يعاندونها أو يتوسلونها.

على مرمى قليل من السفوح الغربية لسلسلة الجبال، إذاً، كان البحر. وكان يفصلها سهل رمليّ مستسلم لوقت مختبىء بين الأثل القصير. وكانت ثمت مداورات كاللُّعب بين البحر والجبل ليتقدم أحدهما في اتجاه الآخر: البحر ينفخُ الرملَ شرقاً، والجبل يذرو فُتاتَ صخره، قرناً بعد قرن، غرباً، فيما كان على الوحشة أن تستوي كالميزان وسطهما.

لم تكن للمساحة المرسومة، هناك، ما يقتضي الوصف. فالذي ينظر من السفوح الوطيئة القريبة صوب البحر، لن يرى إلاّ المشهدَ المتعاقِبَ ذاته: رمل وراء رمل، أثْل متشبّث بالأرض في ذُعْرٍ، ورطوبة تشتغل عليها رئةٌ كالقيامة، ومن ثمَّ مياهٌ إلى أبعدِ جموحٍ للمياه. أما الذي ينظر من جهة البحر إلى الجبل فلن يرى، بدوره، إلاّ المشهدَ المتعاقب ذاته: رمل وراء رمل، وأثْـلٌ مَنْكودٌ، وشجر يستر المسافةَ بين الأكيات، ويحجب الوديانَ، ومن ثمَّ يتدرَّج في اخضراره حتى يغدو، في البعيد، أزرقَ غامقاً، لاتِّصالِه بشقيقِه الفضاءِ.

إنـه المشهـد ذاته في كل أرض تجاور البحر، رتيبٌ قديم، مُـخْلِـصٌ لتعاقبات النهار والليل. لكنْ حَدَثَ أن اقتحم سربٌ من الماعز، فراغاً صغيراً

من المكان ذاك، مسوَّراً بالصبّار، فبات على الوصف أن يجد كلمات أخرى تتقطّع منها رتابةُ سياقه.

سرب من الماعز، وعائلةٌ من رجال ونساء وصِبْيةٍ لا يجاوزون العشرين، وظهيرةٌ مفتوحة لرياح الربيع: كلُّ هذا اجتمع معاً في حاكورة صبّار تقع في المسافة الأقصر بين الجبل والبحر، فقامت ركائز وعَمَدٌ، وانبسطت خيام صغيرة ثم غلَتْ على الأوتاد.

هنـاك، قطعـاً، في الأرض السرملية تلك، كانت الشهوةُ الخفيّةُ لأساساتِ عمارة «أبي كير»، التي سترتفع بعد زمن.

الفصل الثاني

ليس بحفنةٍ من الناس، وسربٍ من الماعز، تجد الأرضُ غيرُ المسكونة أوَّلَ الأثر في اتجاه التاريخ. على أشياء أخرى، وكائنات أخرى، أن تحضر أيضاً، لتبدأ خطوةُ القيّاف. فلم يكن كافياً، على سبيل المثال، أن تنضم بعض العصافير إلى الخيام الصغيرة التي ارتفعت في حاكورة الصبار، بين بدايات السفوح والبحر. وكانت العصافير تلك كسولةً، لا تتجشّم أن تبتعد صوب الأدغال القريبة، فتؤثرُ النفايات القليلة التي يخلّفها القادمون أولئك بماعزهم، أو تتغذى ببعوض أكثر كسلاً، لا يغادر الأثْلَ، وإن غادرَ فإنما يحطُّ على الأيدي فلا يطير بعد ذلك حتى يسحقها الملدوغون.

ولم يكن كافياً، أيضاً، أن يقتني أولئك الوافدون بماعزهم كلاباً باتت تشرد على طول الشاطىء، راكضةً وراء السلاحف الشاردة والسلطعونات. أمّا الجُعَلُ الحشراتُ فكان ظهورُها كعَدَمِه، بين البَعْر المتناثر حول الزرائب المسوَّرة بأغصان قصيرة كانوا يأتون بها من الدَّغل القريب، كل يوم، حيث يرعى الماعز بين الصخر الرمادي المتشقق، في المكان ذاته الذي سيرتفع عليه، بعد سنين عديدة، شركة للإسمنت المطحون.

أيمكن التكهُّن، في هذا المسار، بأهميّةٍ مّا لظهور عائلةٍ أخرى، ضئيلة العدد، إلى جوار العائلة السابقة، نصبتْ خيمةً واحدة، اتّخذتْ نصفها زريبةً لعدد من الخراف والماعز، وبضع دجاجات سمينة لكثرة ما تأكل الرمل، يقيناً؟. لا. لم يكن مهمّاً قطُّ أن تظهر آلاف العائلات، بأسراب من الماعز والغَنَم تُحْشَرُ حَشْراً بين السفوح والبحر. ولم يكن مهمّاً أن تتكاثر الكلاب

بين الأثل وبين الخيام؛ وأن تظهر رفوفُ يمامٍ بريٍّ في المكان ذاك نهاراً، وتختفي في الأدغال بعد ذلك، أو أنْ تصير السلاحف والسلطعونات أكثر جسارة فتدخلَ الزرائب؛ وأن تظهر أعشابٌ رَخْصَةٌ، وأزاهرُ تبدأ ذابلةً وتنتهي ذابلةً، في أمكنة النفايات المتنقِّلة من موضعٍ إلى آخر.

لا. ما كانت الأرضُ غير المسكونة، من قبل، لِتجدَ المدخلَ إلى التاريخ بكلِّ هذا وحده. فعلى الغيب أن يشتغل أيضاً، بأنواله، وحِيَلِه، وسيروراته المتقطِّعة، وفكاهاته، كأنْ يُطْلِقَ سراحَ جَمْعٍ خليطٍ من الكائنات الرقيقة تلك، المختصَّة بالشؤون الذكيَّة التي قرَّر الأنسيون ألاَّ ينسبوها إلى أنفسهم. أيْ: أن يُطْلِقَ الغيبُ، في كلِّ مكان يصيرُ آهلاً، كالمكانِ ذاكَ، سراحَ ملائكةٍ صغيرة مغلوبةٍ على أمرها، وشياطين صغيرة مغلوبة على أمرها.

ذلك، قطعاً، ما سيجعلُ للمسافة بين السفوح والبحر تاريخَها، إذْ سيجدُ هؤلاء الوافدون بماعزهم، وخيامهم الواطئةِ الضئيلةِ، ما ينسبونَه إلى غيرهم في تعليل الخصومات التي ستنبثق يوماً بعد آخر، بين ابن وأبيه، وأمّ وابنتها، وأخٍ وأخيه، وجارٍ وجاره، وخيمةٍ وخيمةٍ، وعمودٍ وعمودٍ، حتى تمتد الخصومة إلى الماعز ذاته، فينطَحَ التيسُ التيسَ، والجَدْيُ الجديَ، وتأكلَ الخِرافُ أصوافَ الخرافِ من غير جوع.

سينسبونه إلى غيرهم. سينسبُ الوافدون الرياحَ الجَهْمَةَ إلى كآبة الجَدِّ الميْتِ، والصواعقَ الأكثرَ طَيْشاً إلى رضى الجَدَّةِ الميْتَةِ، وأمراضَ الماعز إلى فُسْقِ الآباء، واحتدامَ البحر إلى خللٍ في نوايا الإنسان، وإنجابَ الذكور إلى فضيلةِ القلب الصالح. أمَّا تلك الكائنات الرقيقة - المختصة بالشؤون الذكية التي قرَّر الأنسيون ألاَّ ينسبوها إلى أنفسهم - فستجد في هؤلاء الوافدين ما يرتفع بضجر الغيب إلى مستوى ولادةِ مكانٍ له رملُه، وبعوضُه، وعصافيرُه، وماعزُه، وسلاحفُه، وسلطعوناتُه، وخيامُه، ومُحْدَثُونَ من لحمٍ وعَظْمٍ ذوو فروجٍ وأحابيلَ، وأطفالٌ فاجرون ينمو معهم القتل كحروفٍ منطوقةٍ؛ وكذلك له تاريخُهُ المُسْتَوْلَدُ من الحروب الأكيدةِ المُقْبلة.

هكذا، تحديداً، أطلقَ الغيبُ سراحَ ملائكةٍ عذبةٍ صغيرة، وشياطين

عذبةٍ صغيرة، في الفسحة غير المديدة بين السفوح والبحر، حيث سترتفع عمارة «أبي كير»، ذات يوم، على أساساتٍ من الإسمنت والصُّخب.

الفصل الثالث

سياجات مضفورة ـ في خشونةٍ ـ من الأثْل والأغصان الطرية ارتفعت من حول الخيام ، وطيئةً أول الأمر، ومن ثمَّ عَلَتْ أكثر، بحسب هِمَّةِ كل عائلةٍ في جمع الأغصان والأثل. وكانت دائرية في البداية، موضوعة على عَجَلٍ. لكن السياجات تلك غدت، فترةً بعد أخرى، أكثر هندسةً، على أشكالٍ مستطيلة، ومُثَلَّثة. واستُبْدِلَ الأثلُ والغصونُ بجذوعٍ مثبَّتةٍ في الرمل، وعوارضَ من الخشب المَنْجُوْر بمساحيجَ من حديد، وقد دُقَّتْ فيها مسامير تُثبِّتُ بها حدواتُ البغال، عادةً.

أما الخيام، ذاتها، فاستُعيضَ عنها ببَرَاكِيْاتٍ ذات جدرانٍ خشب، وسطوحِ صفيحٍ تنفجرُ صاخبةً في الريح.

ذلك كان التوزيعُ الهندسيُّ الأول للمربع الرمليِّ، الذي سيقبض بيدين لَيِّنتينِ على أساسات عمارة «أبي كيره».

الفصل الرابع

كان على المصائر، كعادتها، أن تتحدَّدَ مُسْبقاً، لكنْ بتفاوتٍ في المقادير، بحسب رغبة الشخص ذاته، أو العائلة ذاتها، أو المكان بكلِّ مافيه. ولما اجتمعَ في الفسحة غير المديدة بين السفوح والبحر أناسٌ يُشكِّلون عائلاتٍ، بمساكنهم، وسياجاتهم، وماعزهم، وأغنامهم، فقد بات على المصائر أن تعلن عن نفسها.

كلُّ العائلات، التي سوَّرت بيوتها الخشبية، لم يكن لديها ما تقلق عليه، فالغدُ محسوبٌ، وليس على الشخص الواحد، نصف البالغ، إلاّ أن يحدِّد لنفسه الخطوطَ الأكيدة التي يجدها مناسبةً ـ دون إسرافٍ ـ لِقَدْرِهِ ومَقامه، في الزمن.

لكنِ المسألة القديمة، التي توطَّدت مع الذُّرات الساحرة الأولى للكون، بسطتْ ظلُّها على الفسحة المنبسطة بين السفوح والبحر، أيضاً. وخُلاصتها أن الآدميَّ لم يستقرَّ، قط، على تحديدِ ما هو مخوَّلٌ بتحديده. إذ كانت معرفته التي تتنامى، يوماً بعد آخر، على هذا النحو أو ذاك، تقوِّضُ بقَلَقِها ما يكون قد استقرَّ عليه. فما يقرِّره اليوم، مثلاً، يصير عُرْضَةً للإضافة عليه غداً، حين يرى هذا الآدميُّ أن ما قرَّره، كمصيرٍ ثابتٍ لنفسه، لم يكن كاملاً.

والمعرفةُ ـ كعادتها ـ ملاكُ القلق.

والمعرفةُ من خواص الآدميِّ، لذلك هو كائنُ القلق بامتياز.

فما الذي يمكن الاسترسال فيه، إذاً، أمام مصائر تعلن عن نفسها، مسبقاً، للآدميِّ الذي يعيد ترتيبها في قَلَقِهِ؟

هكذا، في بساطةٍ معهودة منذ القِدَم، ستغدو المصائر المُعْلَنةُ غامضةً، في المكان الذي سيرفعُ بيديْن ليُّنتين أساساتِ عمارة «أبي كير».

الفصل الخامس

شَعْرُها كان طويلاً؛ شَعْرُ تلك المرأة التي نظرت طويلاً، من فوق السياج، إلى ابن جارها، كأنها لم تكن لاحظَتْهُ ينمو من فتى هزيل إلى شاب لا تخلو بَشَرته المحترقة من وسامةٍ أخطأتْ من قبلُ في تقديرها.

بعد عشر سنين من قدومها مع زوجٍ مبتسم أبداً، وطفل في الثانية من عمره، كان عليها أن تلقي نَظرتها المتأمِّلة تلك على ابن جارها، من فوق السياج، فابتسم الشاب في خجل، فاستدركتْ هي، قائلةً: «تبدو شاحباً»، ولم يكن ـ هو ـ شاحباً، بالطبع.

كانت امرأةً عاديّة. كان شاباً عادياً. وكانت العلاقة برمَّتها، قبل تاريخ تلك الجملة، عاديةً بدورها، كما ينبغي، بين امرأة كانت ترى فيه صبياً قَذِر اليدين، يضرب ابنها ويسرق الدجاج، وبين شاب كان يرى فيها امرأة تتهدَّده أبداً، وتعزو إليه كلَّ أمرٍ مرذول يحدث من حول سياج بيتها.

نعم. جرت الحكاية الصامتة كلُّها من فوق السياج؛ من النظرة المتأمِّلة تلك التي استحدثَتْ تاريخاً جديداً في مسيرة عُمْرَيْن، لكن بتدرُّجٍ كأنما يجاهد القَدَرُ المحسوبُ ان يجعله مثيراً أكثر.

والواضح الذي ينبغي قوله هو أن المرأة كانت تحبُّ زوجها، دون ريب. كان يدلِّلها وتدلِّله في ذلك الوسط الرمليّ الخشن. كانت تداعبه على مرأى من الآخرين، ويداعبها. كانت حنونة معه، وكان حنوناً معها. كانت مؤدبة معه، وكان مؤدباً معها، على نحوٍ غير معهود في أولئك الرعاة المستقرِّين.

إنها تحبُّ زوجها بطُمأنينةٍ من هدى قلبها. إنها تحبُّه. إنها تحبُّه. لكن

السيرورة المُحْكَمة التي تَبْتَدِعُ، أبداً، بدايةً مَا للأشياء، ألهمتِ المرأةَ أن تلقي بنظرتها المتأمِّلةِ تلك، من فوق السياج، على الشاب، وساقته، بعد ذلك، إلى باب بيتها، فلم يتعفَّفْ.

كانت تحبُّ زوجها دون ريب، لكن كان على خيانةٍ أُوْلى أن تتوطَّدَ ـ بالضرورةِ ـ في المكان ذاك الذي سيشهدُ، بأعماقِهِ، أساساتِ عمارة «أبي كير».

الفصل السادس

الرقم السادس، عادةً، رقمٌ مُعْضِلٌ. فهو ستةٌ، فقط، يليه سابعٌ يلْغيه ويُلغي نفسه، في أصلِ تِعْدادِ أيام الله والإنسان معاً. وليس في مقدور أحد، يقيناً، أن يجعله نهايةَ الأرقام، أو بدايتها. فما العمل؟. لا شيء. الرقم السادس مُخْتَزَلٌ ـ بالمشيئة الدَّفينة للأرقام ـ إلى تَبَعيَّةٍ مُطْلَقةٍ للرقم السابع الذي يحمل على كتفيه ثِقَلَ الكون كلِّه، والأبدَ الممتلئ براحةِ الله.

وهذا الاستطراد في ذِكْرِ الرقم السادس لا مبرِّر له، هنا، لولا عمارة «أبي كير» التي كانت سابعَ عمارة قامت في المكان ذاك، بعد أمدٍ لا يُستهان به. وللتوضيحِ أكثرَ لا بد من الإشارة إلى قيام أبنية اسمنتية ضئيلة الارتفاع في المسافة تلك بين السفوح والبحر، متجاورةٍ، وعلى مدىً يجاوزُ فراسخَ كثيرة، لكن الاحتكام الحقيقي إلى مستوى البناء، ونوعه، كان يتمُّ بناءً على ظهور العمارات العالية، ذات الطبقات التي تزيد على العَشْر. لذلك جرى إحصاء عمارة «أبي كير» كسابع بناءٍ عالٍ، بطبقاته الثماني، بين الأبنية التي ارتفعت، دون تجاورٍ، في المكان ذاك.

لقد كان على حِكْمةٍ مَا، مكتفيةٍ بذاتها، أن تردَّ للرقم السادس ـ المُعْضِلِ ـ اعتبارَهُ كتوقيتٍ غير محسوبٍ للأرقام؛ كسخريةٍ؛ كَشَطَطٍ؛ كتواردٍ للخاطر بين العدم والأكيد. نعم. كان على حكمةٍ مَا، مُرَفَّهةٍ، أن تُقَوِّضَ عمارة «أبي كير» عموداً على عمودٍ، وجداراً على جدارٍ، لأنها تقع في التَّراتب السابع للعمارات، وهو أمرٌ يترتَّب عليه إشكالٌ فاحشٌ في البحث عن مغزى أن يكون لأيِّ شيءٍ ترتيبُهُ السابعُ بين الأرقام.

كانت عمارة «أبي كيره هي السابعة، بين العمارات الأولى التي انبثقتْ، عاليةً، وسط بيوت واطئةٍ على مدى البصر، وكان عليها أن تنهار، كتعويض عن قُصُورِها في أن تكون رَقْماً آخر.

الفصل السابع

قبران تجاورا، أول الأمر، في الجهة الجنوبية من المساكن المسوَّرة ذات السقوفِ الصَّفيح، ليؤسِّسا مقبرةً لم يزد تعداد موتاها على أربعة. لكن ارتأى القادمون الجدد، الذين أعقبوا رعاة الماعز، أن يقيموا مساكنهم إلى الجهة الجنوبية أيضاً من المساكن القديمة، بسبب من اتصال البحر بسفوح الجبال أكثر في تلك الناحية. ولّما كان على المقابر أن تكون على تخوم التجمُّعات السكنية، لا وسطها، حتى يتوفّر للأرواح مدىً غيرُ مغلق، فقد قامت مقبرة جديدة شمال تلك المنازل. أما القبور الأربعة، تلك، فإنما سُوِّيَ أمرها، فيما بعد، حين باعها أصحابُ الموتى، مُتَشاركِينَ في اقتسام الثمن، إلى حلاّق يعمل طبيباً، وبيطرياً، وبائع صابون معطَّر، فأقامَ على كل قبر عموداً من الإسمنت ليبنيْ حانوتَه، ومسكنَه فوق الحانوت المستطيل.

لم تقترب الأرواح كثيراً من المنازل التي لا يزيد علوُّها عن طبقة واحدة، إذ كان عليها أن تتأمَّل، من تلك المقبرة المطوَّقة بالرمل، جهاتٍ أخرى بين سفوح الجبل والبحر، شرقاً وغرباً وشمالاً؛ وأن ترسم المخارجَ المحتَمَلة لنزهاتها فيما لو امتلأ ذلك المكانُ كلُّه بأبنيةٍ قد تحيط بالمقبرة الشمالية نفسها.

نعم. كان على الأرواح، أيضاً، أن تشتغل بهندستها على ترتيب المكان، ناصبةً أعمدةً غير مرئية، وجدراناً شفيفة، وسياجاتٍ من ألَقِ المغيب، وحدائقَ لا يمسُّها إلاّ الليل. ومن ثمّ قسَّمتِ المكان إلى مقاطعاتٍ، وعيَّنتْ لكل مقاطعةٍ طرائقَ خاصّة للتدخُّل في شؤون الأحياء. لكن حين قامت عمارة «أبي كيره لصق المقبرة تلك، بعد زمن، تدخَّل ساكنوها في شؤون الأرواح

أنفسها، حتى لم يعد معروفاً مَنْ يسهرُ على سِراج مَنْ، ومَنْ يعبثُ بمصير مَنْ عَبَثاً له طابعُ المُزاح.

الفصل الثامن

كان البحر يتفكّر طويلاً في الترتيب الهندسيّ الذي يجري أمام أعينه الكثيرة، على الجبهة الشرقية للأفق المتشبّث بسفوح الجبل، وهو يوازن، من مَكْمنِه الواطىء المستوي بالأرض، بين بيوتٍ ضئيلةٍ تهدّم ليرتفع في مكانها أبنية أكثر رصانةً، وبين قبورٍ لا شواهد لها، وقبورٍ ذات شواهد، وأسراب ماعز تُسْتبْدَلُ، رويداً رويداً، بآلاتٍ صَخّابةٍ لم يكن آخرها قطارُ الفحم الحجريّ، الذي يطحن ثرثرةَ البحر ذاته بعجلاتٍ تستولدُ الشَّرَرَ، لصقَ الرمل الرطب الممتزج بآخر عَبَقٍ للموج.

وكان البحر ذاك ـ الذي يتفكّر طويلاً في الترتيب الهندسيّ لما يراه ـ بحراً أحمقَ على أية حال، بركونه الثابت إلى الحركة ذاتها المتوقّدة بالزبد الشَّبِق، وإلى الزُّرقة المتدرّجة بحسب مسافات معلومةٍ تماماً؛ ويلي ذلك، كلُّه، الضَّجَرُ الأكبرُ للمدى الملتصق بهيكل الفضاء العُظْميّ.

بحرٌ أحمق، بعيدٌ، ذو هويّةٍ من رَذاذٍ، كان يَلُوْحُ للناظر إذا وقف على سطح عمارة «أبي كبير»، التي ارتفعتْ أساساتُها، بعد زمنٍ من ذلك التأمّل الهندسيّ للبحر في ما يجري بترتيبٍ هادىءٍ أمام أعينه الثابتةِ الكثيرة.

الفصل التاسع

المزيجُ السائلُ من الإسمنت والحصى يتغلغل عميقاً، عبرالقوالب الخشبية الطويلة، المنتصبة كأعمدة في الأرض المحفورة، والتي تنبثق من حوافها قضبانُ حديدٍ هي هياكلُ الأساسات في الأبنية.

همهماتٌ كثيرة كانت تدور في المكان. همهماتٌ وعَرَق، وأيدٍ محروقة تصبُّ صفائح من الإسمنت السائل في القوالب الخشبية. وكان النهار هناك أيضاً، بشعاعاته التي تخترق القوالب قليلاً، ثم يسدل الإسمنتُ عليها ظلامَهُ الصُّلبَ. وكان الظلام، نفسه، يزداد كثافةً بفعل الثِّقل الأكيد للسائل الذي يتخثر رويداً رويداً، فيغدو الكلُّ منصهراً، بعضه في بعضٍ: الظلامُ، والإسمنت، والهمهماتُ، والعَرَقُ، وما يُحْتَبَسُ في الثغرات من ضوءٍ طافٍ كالزيت، وحشراتٍ صغيرة جانحةٍ، وملائكةٍ، ورسائلَ مهموسةٍ، وتعبٍ، وشكاوى بثُّها عمالُ البناء، ومُلاسناتٍ قصيرة بين المتعهِّد والمالك، وهواءٍ شاردٍ، وحكاياتٍ قليلةٍ سردها قليلون، وشتائمَ، ووعودٍ من الله يحملها غبارُ الطَّلع في شجرات الصَّبّار التي بدأت تنقرض، في المدى الرمليِّ، الممتلىء - الآن - بالبيوت، هناك.

أعمدةٌ ترتفع. أعمدةٌ من إسمنت صلب خلعوا عنها قوالبها الخشبية، فتنفَّس الجنين الهندسيُّ، الصاعِدُ كلعبةٍ إلى الضوء، هواءً ثقيلاً من مسامِّه الصمَّاء. لكن الذين نزلوا من السفن الخشبية الكبيرة، التي رست غرباً، رفعوا مناظيرهم النحاسية الطويلة، للمرة العشرين في اتجاه تلك الأعمدة، متمتمين: «ماهذا؟!».

وكانوا قد رفعوا مناظيرهم، قبل وصولهم الشاطىء، غير مصدِّقين. ولما ألقوا المراسي، وأنزلوا القوارب الصغيرة عابرين إلى تخوم الرمال الرطبة، تأكدوا من جديد، فألفوا - عن حقّ - أعمدةً من إسمنت رمادي ترتفع في الموضع الذي خمَّنوه ممراً لهم إلى الجهة الثانية من ذلك العراء المتَّصل بالسفوح.

لقد أفردوا أمامهم خرائطهم، وتأمَّلوها طويلاً وهم يهزُّون رؤوسهم تدليلاً على خَلَلٍ حاصلٍ لم يكن في الحسبان. فالواضح أن الخطوط المرسومة لعبور أولئك القادمين من البحر - ببنادق قديمة طويلة، ومدافع من حديد سميك، ومنجنيقات، وسلالم، وأبراج خشبية محمولة على عجلات ضخمة أنزلوها تباعاً إلى الماء، ثم جرُّوها بأسراب من الجواميس - كانت تقضي اجتيازَ أرضِ عِمارةِ «أبي كير»، فأُسْقِطَ في أيديهم.

الساحرُ في نظراته، الممسكُ بناظورٍ مُطَعَّمٍ بالعاج، فَهِمَهُم من موقعه بين الرجال الغاضبين:

- لن أفعل شيئاً. درسنا كل احتمالٍ إلاّ هذا. لم يكن مقدَّراً لهذا الهيكل أن يُقامَ هنا. لن أفعل شيئاً.

واستدار، دون أن تفارق السخرية عينيه: «خَيِّمُوا هنا. سننتظر توضيحاً».

وفي انتظار توضيح لن يقدِّمه أحد، امتلأ الشاطىء، من شماله إلى جنوبه، بالخيام التي نصبها أولئك القادمون من البحر، لكنهم تركوا مسافة لا يستهان بها بين خيامهم وبين المنازل التي قامت وسط المدى الرملي الذي تحدُّهُ سفوحُ الجبل، مُنْكَبِّيْنَ - أبداً - على قراءة خرائطهم، المرة تلو الأخرى، وقد نشروها على الأرض مربوطةً إلى أوتادٍ ضخمة.

نعم. مذ قال الرجل ذو النظرات الساحرة إنه لن يفعل شيئاً، تأجَّلت المَهَمَّة، فرُبِطَت النعاج، التي جاءوا بها، بحبالٍ إلى المدافع المرمية في إهمال، وسُلِخَتِ الجواميس، المحسوبة كقوَّةِ نَقْلٍ في المهمة، وهي تتدلَّى من تحت الأبراج الخشبية الضخمة ذات العجلات. وأُوقِدَتِ الشحومُ في مراجلها المحمولة على قوائمَ معدنيةٍ، يشوُونَ عليها السَّمكَ والسلطعون.

كانوا خَلْقاً كثيراً أولئك الذين جاءوا من البحر، منكبِّينَ في جهامةٍ على نَقْلِ الأحمال من سُفنهم، أسلحةً وحيواناتٍ ومؤونةً، وأغراضاً أخرى تتراوح بين الخيام، والحبال، والخرائط. وكانوا على عَزْمٍ يتجلى واضحاً في حركتهم، وتدبيرهم للمواقع، وتوزيعهم لكلِّ ما معهم على جبهةٍ من البحرِ في ترتيبٍ دقيقٍ، حَذِرٍ، هندسيٍّ. لكنِ ذلك الخَلَلَ الطارىء على المَهمَّةِ المرسومة، أيْ قيامُ أعمدة «أبي كير» هناك، أظْهَرَهم دون حَوْلٍ، قاصرين عن مبادرةِ توقف المُهمَـة، من جديد، على قدميها. والذي لا حَيْدَ فيه هو أنهم كانوا موكَّلينَ بالعبورِ، من أرض «أبي كير»، إلى الجهة الشرقية من ذلك العراء، بعد عبورٍ في البحر تُـحْـسَـبُ سنواته بالظلام:

ـ «كنا سنقيم أسوارنا هناك» يقول الرجل ذو النظرات الساخرة، ويضيف: «كيف نحمي هذه الجهة إذا لم نُقِمْ أسوارنا هناك؟»، وهو يشير بيده إلى أبعد من عمارة «أبي كير» بفراسخَ كثيرة، ويَزِنُ الأمورَ الخفيْةَ بعينيه فتزدادُ سخريتُهما.

كان المكانُ المديد ذاك، الذي تتوسطه عمارة «أبي كير»، يغدو ـ قليلاً قليلاً ـ نصفَ المدينة الغربي. وكان مؤكَّداً، بحسب التخطيط المُتْقَنِ للغيب، أنـه سيكـون في عُهْـدةِ هؤلاء القـادمـين من البحر ـ بخرائطهم الواضحة، وجواميسهم، وخُوَذهم، وأبراجهم ذات العجلات ـ ليحموه من أية فتنةٍ قد يحوكها الغيبُ ذاته كامتحانٍ مُثيرٍ للكُلِّ، بَشَراً وأقداراً. لكن أولئك وقفوا حيث رستْ بهم السفن، وهم يشهدون الخللَ غير المرسوم في خرائطهم الأكيدة، المُعَدَّةَ في اتقانٍ كالمصائر ذاتها. وآثروا استجلاءَ المشهدِ، يوماً بعد آخر، بمناظيرهم النحاسية، أو المُطعَّمةِ بالعاج. ثم استنتجوا أنها حيلةٌ:

ـ «هذه الأساسات حيلة» قالها الرجل ذو النظرات الساخرة. مضيفاً: «إنها حيلة فاضحة»، وجلس على كرسيٍّ مغروزٍ في الرمل الرطب.

إحدى وثلاثون سنة مرَّتْ والحيلةُ على حالها: أيْ: بقيتِ العمارة هناك، في الموضع الذي أُعِدَّ ـ على خرائط أولئك القادمين من البحر ـ ليكون ممرّاً إلى شرقي المدينة فيحْمُوا غَرْبَها. وفي الإحدى والثلاثين سنةً، تلك، سُدَّتْ طُرق وفُتِحَتْ طرقٌ. وارتفعت عمارات أخرى لصق شقيقاتها، أكثر علوّاً أو أقلّ.

وانكسرت أقمارٌ على سفوح الجبل وارتفعت أقمار. وضاقت خُلجان البحر، أو اتّسعت، لتُقامَ موانىء عليها. وابتعدت القاطرات عن مُجاورة الرمل الرطب في اتجاه أعماق المدينة، ومن ثم اختفت تماماً.

إحدى وثلاثون سنة، والرجل ذو العينين الساخرتين يرفع المنظار ذاته فيصطدم بخزّانات المياه على سطح عمارة «أبي كير»، من موقعه قرب البحر، ومن حولـه أبـراجُـه نفسهـا ذوات الخشب المتـآكل، ومدافعُه الغائصةُ حتى منتصفهـا في الـرمـل، والجلودُ المُبَعْثَـرةُ للجواميس والنعاج المذبوحة، وقشورُ السلطعـونـات، وهياكلُ الأسماك، ونُتَفُ الخرائط الممتزجة بنُتفٍ من أقمشةِ الخيام. لكنـه في يوم من أيام السنـة الإحـدى والثـلاثـين، بعـد قدومه إلى الشاطىء، قام عن كرسيه المغروز في الرمل، دون سخرية في عينيه، صارخاً:

ـ احزمُوا كلَّ شيء. سنعود.

لم يكن على أولئك القادمين من البحر أن يجمعوا كل شيء. تركوا الخيام وراءهم، والجلودَ، وبعض مَرَاجِـلِ الشحـوم، والأبـراج المهـترئة، والخرائط المُبَعْثَـرَةَ من حول الأوتـاد التي تَشدُّها إلى الأرض، ثم استقلوا زوارقهم إلى السفن الضخمة، مقتادينَ، على طوّافاتٍ عائمةٍ، ما تبقّى من جواميس ذُبِحتْ آباؤها وأُمّهاتُها.

أنقلوا أشياءَ أخرى؟ النِّعاج؟ دِنانَ الشُّحم؟ سلطعوناتٍ حيّةً في براميل؟ مناظيرَهم؟ المدافعَ؟ ربما.

قبل أربعة أيام من انهيار عمارة «أبي كير» رحل أولئك الذين قدموا من البحـر تدفعُهم حُمّى أن يعبـرُوا إلى الجهة الشرقية من ذلك المكان كي يحموا غَرْبَه. لم يكونوا غاضبين، أو حيارى. إحدى وثلاثون سنة وهم يجلُونَ الصَّدأ الأخضرَ عن نحـاسِ نواظيرهم، دون اكـتراثٍ كبـيرٍ، أو قلقٍ داهمٍ على المَهمَّةِ. كانوا متأكِّدينَ، في أعماقهم الغريبة، أن الذي وكَّلَهم بحمايةِ المكانِ ـ فاجتازوا المياهَ سنينَ تُـحْـسَـبُ بالظلام لا بالوقتِ ـ ألقى على المدى المرسوم في خرائطهم بأساسات عمارة «أبي كير» كفكاهةٍ خفيفةٍ أول الأمر، ثم ازدادتْ ثِقلاً حتى باتت المهمةُ نفسها فكاهةً تحت ثِقَلِ اللعبة، فقرّروا الانسحاب،

مستسلمين إلى خساراتهم التي لم يُتَحْ لها إلاّ أن تكونَ خسارةً، إنّما دون امْتِهانٍ لهم، أو تصغيرٍ.

هكــذا، في تعبٍ ظاهــرٍ، ابتعــدت السفن الخشبية الضخمــة عن الشاطىء، وسط ضجر البحر الظاهر كزَبَدِهِ، في الهدنة الأخيرة قبل انهيار عمارة «أبي كبير»، فبدا الرمل، وحده، مستوحشاً؛ الرملُ الأبديُّ الأول، الساهر على المياه كأنها يتعقّب، في كل موجةٍ تترامى أمام ذكورته، شبحَ إلهٍ مّا، مطعونٍ في كَبِدِهِ الأثيريُّ.

وهكــذا، ايضــاً، في ذلك الليل الذي اقَلَّ سفنَ المحاربين إلى الجهة الغربية من البحر، إثْرَ المواثيق الدولية المُمْتَهَنَةِ في تدبيرِ خسارةٍ لِمَنْ لا يملكون خسارةَ أرضٍ أو جسدٍ، كان في مستطاع «أ. دهر» أن يلقي بنظراتٍ، وسط الكثافةِ الرمادية لفضاء البحر، على السفن الخشبية تلك، بقلوعها العالية، وأشرعتها المنشورة في مهبٍّ رحيمٍ، مبتسماً وهو يشعل لفافةَ تبغٍ رطبة:

ـ لا بأس. سنَصِلُ معاً.

من ١٢/١٠/١٩٨٥
إلى ١٩/٦/١٩٨٧

للمؤلف

- كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً — (شعر) — ١٩٧٣
- هكذا أبعثر موسيسانا — (شعر) — ١٩٧٥
- كنيسة المحارب — (يوميات) — ١٩٧٦
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك — (شعر) — ١٩٧٧
- الجمهرات (في شؤون الدم المهرج، والأعمدة، وحبوب الصلصال) — (شعر) — ١٩٧٩
- الجندب الحديدي — (سيرة الطفولة) — ١٩٨٠
- الكراكي — (شعر) — ١٩٨١
- هاتِهِ عالياً، هاتِ النَّفيرَ على آخره — ١٩٨٢
- فقهاء الظلام — (رواية) — ١٩٨٥
- بالشُّباكِ ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح — (شعر) — ١٩٨٧